نَفَحَات رُوحَانِيَّةٌ

إن

مَعَنَا

حَسَنٌ إِسْمَاعِيل

MORB3.COM

نَفحَات رُوحَانِيَّةٌ

إنَّ اللَّهَ مَعَنَا

بِالرَّغْمِ مِنْ كِبرِ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي نَعيش فِيهَا تَمر عَلِيّنا أَحْيَانًا أَيَّامًا وشهورا نَجِدْ فِيهَا أَنْفُسِنَا وحيدين وينتابنا إحْسَاس قَوِيٌّ وَغَرِيبٌ بِأَن شَيْئًا مَا قَدْ افْتَقَدْنَاه أَو نَسِينَاه وغفلنا عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ مَالًا أَوْ أَهْلًا أَوْ صَحِبَا أَوْ وَلَدًا هُوَ أَكْبرُ وَأَعْظَمُ مِنْ كُلَ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَنَّهُ اللَّهُ رَبُّنَا والهنا .

سُبْحَانَك رَبّنَا حِين نَكُون مَعَك تكُون مَعَنَا نَتَقَرَّب مِنْك فتقترب مِنَّا وَجُودك يغنينا عَمَّنْ سِوَاكَ وحضورك يَمْلِكُنَا الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا ورفقتك لَا نَظِيرَ لَهَا وصحبتك لَا غِنَى عَنْهَا وَلَا مَفَر مِنْك إِلَّا إِلَيْك .

قَرِيبٌ مِنَّا أَقْرَب مِنَّا لنفسنا وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَأَنَا نَفْحُه مِنْ رُوحِكَ خَلَقْتَنَا بِيَدَيْك صُورَتِنَا كَمَا شِئْتَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَتَقْوِيم .

نَفَحَاتٌ مِنْ الرُّوحِ أَوْ نَفَحَات رُوحَانِيَّةٌ لَا تُفَرَّقُ التَّسْمِيَة كَثِيرًا هَذَا مَا اخْتَرْته عُنْوَانًا لِكِتَابِي هَذَا تَنَاوَلَت فِيه بِطَرِيقِه وِجْدَانِيَّة طُرِح بَعْضِ الْمَوَاضِيعِ الَّتِي اِخْتَرْتُهَا مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمَ

لنذهب مَعَهَا فِي رَحْلِهِ وِجْدَانِيَّة معرفية نستكشف الْعِبَر وَالْحُكْم مِنْهَا نَسْتَهْدِي بِهَا ونسترشد

تَأْخُذُنَا بَعِيدًا مَعَهَا لنعيش فِي صَفَاء وَسَلَام وَاطْمِئْنَان نرِيح بِهَا أَنْفُسِنَا مِنْ هُمُومِ الْحَاضِر وضغوط الْحَيَاة العصرية لتجعلنا نَتْرُك الْأَرْض وماعليها لَسَاعَاتٌ و تَحْلِق بِنَا نَحْوَ الْأَعْلَى نَحْوَ السَّمَاءِ لنسمو بِهَا وَتَطْمَئِنّ بِهَا قُلُوبِنَا .

إنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ وَنَحْنُ مِنْ بَعْدَنَا

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 186] ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود : 61]

﴿ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ : 50]

أَن أَخْطَر شَيّ فِي حَيَاتِنَا هُو الشُّعُور بِأَنَّ اللَّهَ بَعِيدٌ عَنَّا فَنَنْظُر فِي السَّمَوَاتِ وَفِي المجرات وَالْكَون نبحث عَنْهُ وَهُوَ فِي الْوَاقِعِ وَالْحَقِيقَة قَرِيبٌ مِنَّا لِدَرَجَة لَم نتوقعها

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ق : 16]

لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ بَلْ هُوَ مَعَنَا ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الْحَدِيد 4

فَمَن الْجُنُون إِذْنٍ أَنَّ نبحث عَنْه بَعِيدًا وَهُوَ الْقَرِيبُ مِنَّا ونظن أَنَّه تَخَلَّى عَنَّا وَهُوَ فِي الْوَاقِعِ مَعَنَا أَيْنَمَا كُنَّا أَو نَكُون .

مِنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ فِي الْعَلَاقَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَالِقُنَا هُنَاك سِرّ تَرَى ماهُو ؟

أَن مِفْتَاح هَذَا السَرَ و كَلِمَة الْمُرُور إِلَيْهِ هِي الْمُبَادَرَة عَلَيْنَا أَنْ نُبَادِر نَحْن بِاتّجاه اللَّهُ خَالِقُنَا ولاننتظر مِنْهُ أَنَّ يَفْعَلَ هُوَ ذَلِكَ فَإِذَا قَرَّرْنَا الْبُعْد فسيبعد وَإِذَا قَرَّرْنَا الْقُرْب فسيقترب وَإِذَا قَرَّرْنَا أَنَّ ننسى فسينسانا وَإِن قَرَّرْنَا أَنَّ نُكَفَر فسيزيدنا كُفْرًا وضلالا وَإِذَا قَرَّرْنَا أَنَّ نَزِيد إِيمَانُنَا ويقيننا به فسيزيدنا إِيمَانًا وَهُدًى و لَا تَنْتَظِرُ أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ لَك أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَة كُنْ أَنْتَ الْمُبَادِر وَأَدْعُو رَبَك لَيْلَ نَهارَ أَنْ يَفْتَحَهَا أَمَامَك فَهُوَ

قَرِيبٌ مُجِيبٌ وَهُوَ الْقَائِلُ (﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : 186] .

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : 20]

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : 45]

﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ [المرسلات : 23]

فَلْيَكُنْ فِي عِلْمِكَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ وَقَادِرٌ ومقتدر

الْقَدِيرِ وَالْقَادِرِ والمقتدر مِنْ الْقُدْرَةِ ، وَهِيَ الْقُوَّةُ عَلَى الشَّيْءِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْهُ ، وَالْقُدْرَة ضِدُّ الْعَجْزِ ، وَاسْم الْقَدِيرِ أَبْلَغُ مِنْ الْقَادِرِ ، والمقتدر أَبْلَغُ مِنْ الْقَدِيرِ ، لِأَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْمَبْنِيِّ زِيَادَةً فِي الْمَعْنَى . فَاللَّهُ تَعَالَى قديرٌ متصفٌ بِالْقُدْرَة الْكَامِلَة الْمُطْلَقَة ، فَلَا يُعجزه شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَمَن قُدْرَته سُبْحَانَه إِيجَاد الْمَعْدُوم ، وَإِعْدَام الْمَوْجُود ، فَهُوَ الْقَادِرُ الَّذِي يَتَيَسَّرْ لَهُ مَا يُرِيدُ عَلَى مَا يُرِيدُ ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِذَا أَرَادَ شيئًا قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ ، فَقَدَّرْتُه جلَّ وَعَلَا مَوْصُوفَةٌ بِالتَّمَامِ وَالْكَمالِ . وَيَأْتِي الْقَادِر بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ ، أَي المقدر لِلشَّيْء ، يُقَال قَدَرْتُ الشَّيْءَ وَقَدَّرْتُهُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، كَقَوْله :

(﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾) [الْمُرْسَلَات : ٢٣]

لَا تَسْأَلْ نَفْسك فَلِمَاذَا لَم يُعْطِينِي أَوْ يقف مَعِي أَوْ يُحَقق طموحاتي وأمالي أَو يُسَاعِدُنِي وَقْت حَاجَتِي أَو يدمر أَعْدَائِي وَيُذِلَّ مَنْ يكْرهُنِي إِذَا كَانَ اللَّهُ قَادِرًا ومقتدرا وقديرا وَلَا يُعْجِزُه شَيْءٌ فِي الْأَرْض وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ ؟

وَلَا تُحَاوِل أَبَدًا إِنْ تُجَرَّب قَدَّرَهُ اللَّهُ أَوْ تَشُكّ فِيهَا أَوْ تستهونها وَتَحَكُّمْ عَلَيْهَا وَقْتُ ضَعْفَك وموقفك ووضعك وَتَقُولُ إِذَا كَانَ قَادِرًا فَلِمَا لَا يُعِينَنِي أَو ينقذني فَأَنْت مُخْطِئٌ كُلّ الْخَطَأ وَالسَّبَبُ فِي صدك هُو

o أَنْ تُجْعَلَ نَفْسِك مِحْوَر الْعَلَاقَة بَيْنَك وَبَيْنَهُ لِأَنَّ اللَّهَ الَّذِي تُرِيدُ مِنْهُ أَنَّ يَفْعَلَ لَك هَذَا وَذَاكَ

هُوَ رَبُّ الْوُجُود وَالْكَوْن وَرَبّ النَّاسَ جَمِيعًا .

o عَلَيْكَ أَنْ تَلُوَّم نَفْسِك وتتهمها بِالتَّقْصِير وَتُبَادِر حَالًا بِيَدِك زِمَام الْمُبَادَرَة فَهَل اقْتَرَبْتْ مِنْ اللَّهِ وَقْت رخاءك وَقُوَّتِك وعنفوانك هَل ناجيته مِنْ قَلْبٍ سَلِيم هَل تذللت لَهُ هَلْ نُصْرَته لينصرك أَو سَاعَدَتْه ليساعدك وَإِذَا قُلْت لِي كَيْفَ تُسَاعِدْه وَتَعَيُّنُه وَهُوَ الْغَنِيُّ الحَمِيدُ أَقُولُ لَك أَنْ تُسَاعِد الضُّعَفَاءِ مِنْ خَلْقِهِ بِقَدْرِ مَا تَسْتَطِيعُ وَإِن تَنصَر اللَّه وَتَذْكِرَة بِقَلْبِك وَلِسَانُك ويدك الَّتِي بِهَا تُعْطِي وَتَعْمَل فأساس الْعَلَاقَة بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ هِيَ عِلاقَة تبادلية وَلَيْسَت منفعية فَاَللَّه يُعْطِي بِدُون حِسَاب وَلَيْس بِحَاجَة لَنَا فَنَحْنَ الْفُقَرَاء إِلَيْه .

يَعْلَم الْجَهْر وَمَا يَخْفَى

النوايا

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ [الأعلى : 7]

﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [البقرة : 77]

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عِمْرَان : 119]

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ [الأنبياء : 110]

لِمَاذَا أَعْلَمَنَا اللَّهُ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْر وَمَا يَخْفَى وَيَعْلَمُ مَا لَدَيْنَا مِنْ أَسْرَارِ وَمَا نعلنه وَهُوَ فَوْقَ ذَلِك عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ؟

إِنَّ اللَّهَ ينبهنا إِلَى ذَلِكَ تَنْبِيهًا فِيهِ الخَيْرَ كُلّ الْخَيْر لَنَا وَفِيه مصلحتنا يُعْطِينَا إِنْذَارًا بِأَن عَلَيْنَا التريث فِيمَا نَقُول لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا نَسْر ونعلن وَفِي هَذَا رَقَابَة مِنْه عَلَيْنَا لِكَي نَتَرَيَّث وَنَقُول الْكَلَام النَافِع فَكَثِيرٌ مِنْ الْكَلَامِ الَّذِي لَمْ نَقَلَهُ فِيهِ مَنْفَعَةٌ لَنَا وَلَوْ قُلْنَاه لنتج عَنْ ذَلِكَ مُصِيبَةٌ أَوْ كَارِثَةٍ أَو نِزَاع وَقَدْ يَكُونُ نَمِيمَةٌ أَوْ فَسَادٍ أَوْ دَسِيسَةٌ كَمَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكْشِف الْمُنَافِقِين مِنَّا وَيَقُولُ لَهُمْ انْتَبِهُوا فَأَنَا أَعْرِف أَن ماتقوله أَلْسِنَتُكُم غَيْرَ الَّذِي تخزنه صُدُورِكُم مِنْ رِيَاءٍ وَكَذَّب وتملق وَتَقِيَّة .

اجْعَل الَّذِي فِي قَلْبك عَلَى لِسَانك إِذَا رَأَيْت أَمْرًا خَيْرًا فِي شَخْصٍ فَقُلْ لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ رَأَيْت فِيهِ اعْوِجَاجًا فَنَبِّهَ عَلَى ذَلِكَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَفْعَل الْعَكْس فَتَكُونُ مِنْ الْمُرَائِين وَالْمُنَافِقِين .

إِذَا حَقَدْت عَلَى إِنْسَانٍ فِي نَفْسِك فَصَرِّحَ لَهُ بِذَلِكَ فَقَدْ يَكُونُ بَيْنَك وَبَيْنَ الَّذِي فِيهِ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَقَد ظَنَنْت أَنَّهُ مِنْ إِخْوَةِ الشَّيَاطِين وَلَا تَحْكُم عَلَى الْأُمُور مِنْ ظَوَاهِرِهَا ومظاهرها هَكَذَا توحي إِلَيْنَا هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةُ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ لجهرنا ولسرنا .

إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

الْأَعْمَال وَالْأَفْعَال

﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ [العلق : 14]

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : 110]

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : 94]

مِنْ أَخْطَرِ الْحَالَاتِ الَّتِي نَكُونُ فِيهَا بِعِيدَيْنِ عَنْ اللَّهِ بُعْدًا فَظِيعًا هِيَ تِلك الْحَالَاتُ وَالْمَوَاقِف الَّتِي نَظُنّ فِيهَا أَنَّ اللَّهَ لَا يَرَانَا أَوْ هُوَ غَافِلٌ عَنَّا وَهُوَ الْقَائِلُ : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : 144]

إِذَا فُقِدَ احساسنا وشعورنا وايماننا بِأَنَّ اللَّهَ لَا يَرَانَا فَهَذَا يَعْنِي أَنَّنَا فِي حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ الْخَلْوَة وَالْحُرِّيَّة فَنَفْعَل مايطيب لَنَا ومانشاء مِنْ الْأَعْمَالِ وَالْأَفْعَال الْوَخِيمَة وَالْقَبِيحَة

ونستطيع أَن نستتر أَو نحجب أَو نخفي أَنْفُسِنَا عَنْ كُلَ شَيْءٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ فَنَحْن مَكْشُوفَيْن ظَاهِرِين لَه تَمَامًا فَهُو يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَلَسْنَا وَحْدَنَا تَحْتِ نَظَرِ اللَّهُ وَمَعْرِفَتِه بِأَحْوَالِنَا بَل أَصْغَرَ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ أَشْيَاءَ وَأَكْبرِهَا ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [سبأ : 3]

فَكَيفَ لَنَا نَحْن هَذِه الْكَائِنَات الْمَغْرُورَة تتجاهل هَذِهِ الْحَقِيقَةُ وننكرها أَوْ نَتَسَاهَا لِكَي نَفْعَل مانشاء .

أَن شعورنا الْمُسْتَمِرّ وَغَيْر الْمُنْقَطِع بِرُؤْيَةِ اللَّه لأفعالنا وَأَعْمَالِنَا هِي رَادِعٌ قَوِيٌّ لَنَا كَي نوزنها ونقيسها فنتوقف عَنْ أَفْعَالِ الشَّرَ والموبقات الَّتِي نفعلها متوهمين إِنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَنَّا ونستمر بِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَيَجِب

التَّنويه هُنَا أَنَّ الْمُرَاوَغَة وَالْخِدَاع وَالْمَكْر فِي ذَلِكَ لَا يُفِيدُ فيمكننا أَنْ نَعْمَلَ وَنَفْعَل أَشْيَاء وَأُمُور لنظهر إمَام الْآخَرِين بِمَظْهَر الخيريين والمصلحين وَالْكُلّ سيراها ذَلِكَ إذَا نَظَرَ لَهَا نَظَره سَطْحِيَّة لَكِن الْوَحِيد الْقَادِرُ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْمُرَادُ مِنْهَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَنَحْنُ نَعْرِفُ جَمِيعًا قِصّةِ أَصْحَابِ السَّبْتِ الَّتِي فَعَلَهَا جَمَاعَةً مِنْ الْيَهُودِ فَأَرَادُوا أَنْ يخدعو اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .

رَءُوفٌ رَحِيمٌ

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة : 143]

﴿ وَمِنَ النَاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة : 207]

الرؤوف فِي اللُّغَةِ شَدِيدُ الرَّحْمَةِ ، وَالرَّأْفَة أَشَدُّ مِنْ الرَّحْمَةِ ، أَوْ شِدَّةِ الرَّحْمَةِ ، ورأف بِهِ أَيْ أَشْفَقَ عَلَيْهِ مِنْ مَكْرُوهٍ يَحِلُّ بِهِ ، وَالرَّأْفَة فِي اللُّغَةِ نِهَايَةٌ الرَّحْمَة ، وَالرَّأْفَة مِنْ اللَّهِ دَفع السُّوء .

فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ؟ .

أَن حلّت الْمُصِيبَة فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحِيمٌ بِهَذَا الْإِنْسَان ، أَمَّا رَأْفَته تَقْتَضِي أَنَّ يَبْعُدَ عَنْهُ كُلُّ سُوءٍ قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ بِهِ الْمُصِيبَةُ ، وأحياناً فَاسْم الرؤوف مُتَعَلَّقٌ بالوقاية ، وَاسْم الرَّحِيم مُتَعَلَّقٌ بِالْعِلَاج ، وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِشِدَّة رَحْمَته رَؤُوف ، وَمِنْ لَوَازِمِ رَأْفَته أَنَّهُ يَحْمِلُ الْعَبْدِ عَلَى التَّوْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِي الْمَعْصِيَةِ ، وَحِينَمَا يَقَعُ فِي الْمَعْصِيَةِ يَسْتَوْجِب الْعِقَاب ، وَالْآن تَقْتَضِي رَحْمَته أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ الْعِقَابَ .

الرَّأْفَة شِدَّةِ الرَّحْمَةِ ، وَهِيَ أَشَدُّ مِنْ الرَّحْمَةِ ، ورأف به أَشْفَقَ عَلَيْهِ مِنْ مَكْرُوهٍ يَحِلُّ بِهِ ، وَالرَّأْفَة نِهَايَةٌ الرَّحْمَة ، وَالرَّأْفَة مِنْ اللَّهِ دَفع السُّوء ، لِذَلِك قِيل ، أَن الرؤوف مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ هُوَ المتعطف عَلَى الْمُذْنِبِينَ بِالتَّوْبَة .

وَتَقْرِيب آخَر ؛ فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَحْذَر وَيُبَيِّن وَيُنَبِّه وَيُرْسِل الْمَوَاعِظ ، ويسخر الدُّعَاة ، وَيَظْهَر الْآيَات لِئَلَّا تَعْصِيَة ، فَإِن عَصَيْتُه فَلَا بُدَّ مِنْ عِقَابِ رَادِعٌ وَالْعِقَاب الرَّادِع هُوَ الرَّحْمَةُ ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُك عَلَى التَّوْبَةِ ، لَكِنَّ اللَّهَ حَرِيصٍ عَلَى أَلَّا تَقَعُ فِي الْمَعْصِيَةِ وبالتالي إِلَّا تُسْتَوْجَب هَذِهِ الْعُقُوبَة ، وَالْآن لِعَلِيّ وَضَحت هَذَا الْمَعْنَى الدَّقِيق ، الرَّأْفَة قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْمُصَاب ، وَالرَّحْمَة بَعْدَ أَنْ يَقَعَ الْمُصَاب ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْطَى الْإِنْسَان حُرِّيَّةَ الاخْتِيَار ، فَلَوْ أَنَّ عبداً مؤمناً اخْتَار عملاً سيئاً فَاَللَّه جَلَّ جَلَالُهُ يُرْسَلُ لَهُ مِنْ يُحَذِّرُه وَمَن يُبَيِّنْ لَه ، وَيُقِيم العَقَبَات إِمَام عَمَله السُّوء ، فَإِذَا أَصَرَّ الْإِنْسَانِ عَلَى عَمَلِهِ وتعلّقت نَفْسَهُ بِهِ عِنْدَئِذ يُطْلِقُه اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيُؤَدِّبُه ، وبتأديبه يَرْحَمُه ، فالرأفة فِيهَا مَعْنَى الْوِقَايَة ، وَالرَّحْمَة فِيهَا مَعْنَى الْعِلَاجِ ، وَالْوِقَايَة رَأْفَة وَالْعِلَاج رَحِمَه ، وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَؤُوف رَحِيمٌ .

الصَّبْر والمصابرة

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : 153]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عِمْرَان : 200]

﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : 250]

يُعْرَف الْعُلَمَاء "الصبر" بِأَنَّه حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى مَا تَكْرَهُ ، وَذَلِكَ يَشْمَلُ الصَّبْرُ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَةِ ، وَلَو كَرِهْت ذَلِكَ نَفْسَ الصَّابِر ، مِثْل : الْقِيَام لِصَلَاةِ الْفَجْرِ فِي أَيَّامِ الْبَرْدِ القارص ، مَعَ شِدَّةِ ثَقُل النَّوْم وَرَغْبَة النَّفْسِ فِي الِاسْتِمْرَارِ عَلَى الرَّاحَةِ وَبَقَاء الْجِسْم متغطيا بِمَا يَقِيه الْبَرْد ،

يَشْمَل كَذَلِك الصَّبْرُ عَلَى تَرْكِ الْمَعْصِيَةِ ، مَعَ شِدَّةِ دواعيها ، وَرَغْبَة النَّفْسِ فِي اقْتِحَامِ أَبْوَابِهَا لِلتَّمَتُّع بِمَا تَهْوَاه مِنْهَا ، مَعَ إِمْكَانِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِسُهُولَة أَو بِمَشَقَّة ،

أَمَا الْمُصَابَرَة ، فَهِيَ أَنْ يُجَاهِدَ الْمُسْلِم نَفْسه مُجَاهَدَة لَا تَنْقَطِعُ ، حَتَّى يُحَقِّق الْمُجَاهِد رِضَا رَبِّهِ عَنْه ، بِفِعْل الطَّاعَةِ وَتَرْكُ الْمَعْصِيَة ،

هُنَالِك آيَات تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمُصَابَرَة لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ الشَّدَّةِ وَالضِّيْق اللَّذَيْنِ لَا يَثْبُتُ فِيهِمَا وَيَصْبِر عَلَيْهِمَا إِلَّا الأشداء مِنْ الرِجَال ،

فَإِنْ أُسِرَ الْقَلْب أَعْظَمُ مِنْ أُسِرَ الْبَدَن ، واسْتِعْباد الْقَلْب أَعْظَمُ مِنْ اسْتِعْبَاد الْبَدَن ، فَإِنَّ مَنْ استُعبد بَدَنِه واستُرِق ، لَا يُبَالِي إِذَا كَانَ قَلْبُهُ مُسْتَرِيحًا مِنْ ذَلِكَ مُطْمَئِنًّا بَل يُمْكِنُه الِاحْتِيَالُ فِي الْخَلَاص ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ القلب–الذي هُو الملك–رقيقا مُسْتَعْبَدَا لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَهَذَا هُوَ الذُّلُّ وَالْأَسْر الْمَحْض . . فَالْحُرِّيَّة حُرِّيَّة الْقَلْب ، وَالْعُبُودِيَّة عُبُودِيَّة الْقَلْب .

فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّبْرِ والتصبر والاصطبار والمصابرة .

الْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ بِحَسَبِ حَالِ الْعَبْدُ فِي نَفْسِهِ وَحَالَتْهُ مَعَ غَيْرِهِ :

فَإِنْ حَبَسَ نَفْسِهِ وَمَنَعَهَا عَنْ إِجَابَةِ دَاعِي مَا لَا يُحْسِنُ أَنْ كَانَ خُلُقا لَه ومَلكه سُمِّي "صبرا" .

وَإِنْ كَانَ بِتَكَلُّف وتمرن وتجرع لِمَرَارَته سُمِّي "تصبرا" . . .

وَإِذَا تَكَلَّفُه الْعَبْد وَاسْتَدْعَاه صَار سَجِيَّةً لَهُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ « وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ

وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ يَتَكَلَّف التَّعَفُّف حَتَّى يَصِيرَ التَّعَفُّف لَهُ سَجِيَّةً كَذَلِكَ سَائِرُ الْأَخْلَاق . . .

وَأَمَّا "الاصطبار" : فَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ التَّصَبُّر ، فَإِنَّه افْتِعَالٌ لِلصَّبْرِ بِمَنْزِلَة الِاكْتِسَاب ، فالتصبر مَبْدَأ الاصطبار ، كَمَا أَنَّ التَّكَسُّب مُقَدَّمَةٌ الِاكْتِسَاب فَلَا يَزَالُ التَّصَبُّر يَتَكَرَّر حَتَّى يَصِيرَ اصطبارا .

وَأَمَّا "المصابرة" فَهِي مُقَاوَمَة الْخَصْمُ فِي مَيْدَانِ الصَّبْر ، فَإِنَّهَا مُفَاعَلَةٌ تستدعى وُقُوعُهَا بَيْنَ اثْنَيْنِ كالمشاتمة وَالْمُضَارَبَة .

{ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا } [النساء : 36]

الْمُخْتَال مَنْ كَانَ ذَا خُيَلَاء .

وَأَمَّا الْفَخُور : فَهُوَ الْمُفْتَخِرُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ الْآيَةِ وَبَسَط لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَلَا يَحْمَدَه عَلَى مَا أَتَاهُ مِنْ طُولِهِ وَلَكِنَّه بِه مُخْتَال مُسْتَكْبِرٌ وَعَلَى غَيْرِهِ بِهِ مُسْتَطِيلٌ مُفْتَخِر .

وَنَرَى فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْكَثِيرِ مِنْ نَمَاذِج المختاين والفخورين . . .

وَاحِد يَفْتَخِر بِمَالِه وثروته

وَآخَر بِعِلْمِه وثقافته

وَثَالِث بعشيرته وَعَائِلَته

وَرَابِع بِمَذْهَبِه وَدِيَانَتِه

وَآخَرُونَ كَثِيرُونَ يَفْتَخِرُون بِمَا لَيْسَ لَدَى الْآخَرِين . . .

لَوْ يَعْلَمُ هَذَا الْفَخُور إِنَّ اللَّهَ قَالَ فِيهِ وَأَمْثَالِه أَنَّهُ لَا يُحِبُّ صنفكم فَأَنْتُم مكروهون عِنْد خَالِقِكُم فَقُولُوا لِي بِرَبك مَاذَا سيفيدكم فَخْرُكُم وكبرياءكم إِلَّا غُرُورًا . .

وَأَحْسَن مَثَلٌ يُضْرَبُ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْكَهْفِ

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ

اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحقَ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44) ﴾ [الكهف : 30 – 44]

أَكْثَرُنَا قَدْ قَرَأَ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَهِيَ لِرَجُلَيْن أَحدُهُم أَعْطَاهُ اللَّهُ الْمَالَ والبنون وَالْآخَرُ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ إِلَّا عِلْمًا وَإِيمَانًا أَرَادَ أَنْ يَتَفَاخَر بِنَفْسِهِ أَمَّا الْفَقِيرُ الْمَعْدُوم فَقَالَ لَهُ : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا

ثُمَّ زَادَ غُرُوره دَرَجَة وَقَالَ إِنَّ هَذَا الْعَطَاءِ لَن يَبِيد وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ ذَلِكَ بَلْ أَعْلَن كُفْره صَرَاحَة بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَقَالَ لَيْسَ هُنَاكَ قِيَامه وَحَتَّى إِذَا رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ سيجد قَدْ أَعَدَّ لَهُ أَفْضَلُ مِنْهَا .

وَكُلُّنَا يَعْرِفُ مَا آلَت إِلَه مَصِير هَذَا المتعجرف الَّذِي اِسْتَفَاق وَقَدْ وُجِدَ أَرْضِه وَمَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا إِذَا أَعْطَاك رَبّك فَانْتَبِه وَتَوَقَّف بُرْهَة وَقُل لِمَاذَا وَهَبَنِي اللَّهُ كُلَّ هَذَا الْمَالَ ؟

قَدْ يَكُونُ مُصِيبَةٌ لَك وطريقا يجرك نَحْو نِهَايَةٌ كارثية إِذَا لَمْ تَعْرِفْ سِرّ وَسَبَب عَطَاءُ رَبّك لَك فمقياس رَبّك عَادِلٌ لَا يَقِيس وَيَزِن الْأُمُور كَمَا تقيسها بميزانك و وتحسبها بحساباتك .

فَضْلِ اللَّهِ وَنِعْمَةً

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ [النمل آية : ٧٣]

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يُونُس : 58

الْفَضْل هُو الزِّيادة فِي الْخَيْرِ أَوْ الْآجُرُ ، فَضْلُ اللَّهِ أَيِّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ صَاحِبُ الْفَضْلِ وَالنِّعَم عَلَى عِبَادِهِ

أَنَّ أَوَّلَ فَضْلٍ لِلَّهِ عَلَيْنَا هُو خَلَقْنَا وايجادنا عَلَى هَذِهِ الْبَسِيطَةِ وَبِهَذَا الْخَلْقِ صِرْنَا شَيْئًا عَظِيمًا بَعْدَ أَنْ كُنَا وَلَا شَيْءَ تَصَوُّرِ نَفْسِك أَنَّك لَمْ تُخْلَقْ وَلَا وُجُودَ لَك فَتَكُون مِثْلَ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ الْعَدَمِ الَّتِي تُشَكِّلُ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ الْكَوْنِ كَمَا يَقُولُ الْعُلَمَاء .

وَلَا دَاعِيَ لِتَعْدَاد نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْك وَعَلَيْنَا فَلَا نَسْتَطِيع احصاءها وَعَدَّهَا

﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34]

وَالسُّؤَال هُنَا هَل حَقًّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعُدّ نِعَمَ اللَّهِ وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ كَالصِّحَّة وَالْعَافِيَة وَحُسْنُ الْخُلُقِ بِلَا عُيُوب وَالْعَقْل وَالْبَصِيرَة إلَى مَا هُنَاكَ مَنْ نِعَم ظَاهِرُهُ أَقُولُ هَذِهِ يُمْكِنُ عَدُّهَا لَكِنَّ اللَّهَ فَهَلْ هُنَاكَ إشْكَالٌ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى لَا تُحْصُوهَا وَبَيْن أَنَّنَا نَسْتَطِيع فِعْلًا حَصْرُهَا ؟

يَقُولُ اللَّهُ جَلا وَعَلَا (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)

أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ وَالْمُفَسِّرِين قَالُوا فِي تَفْسِيرِهَا بِأَنَّه أَعْطَانَا كُلَّ مَا سَأَلْنَاه وَالْوَاقِع يُنَاقِض هَذَا التَّفْسِير فَنَحْن مَثَلًا لَمْ نَطْلُب وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يخلقنا وَهُوَ أَكْبَرُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْنَا .

حَلُّ هَذِهِ الإشكالية وَجَدْته فِي تَفْسِيرِ هَذَا نَصُّهُ (وقرأ الْحَسَن " مِنْ كُلِّ " بِالتَّنْوِين (مَا) عَلَى النَّفْيِ يَعْنِي مِنْ كُلِّ مَا لَمْ تَسْأَلُوه ، يَعْنِي : أَعْطَاكُم أَشْيَاءَ مَا طلبتموها وَلَا سألتموها) .

فَإِذَا قَرَأْنَاهُ كَلِمَة (كل) مُنَوَّنَةً أَيْ بِوُجُودِ التَّنْوِين عل اللَّام فَإِنَّ حَرْفَ (ما) يَكُونَ قَبْلَهُ لِلنَّفْي فَيُصْبِح مَفْهُومِهَا مِنْ كُلِّ مَا لَمْ تَسْأَلُوه فَهُوَ قَدْ يُعْطِينَا كُلَّ أَوْ بَعْضَ الّذِي نَسْأَلُه لَكِنَّه أَعْطَانَا بِدُون أَنْ نَسْأَلَهُ أَو نَطْلُبُ مِنْهُ

أَشْيَاءَ وَنِعَمٍ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى وَحَتَّى نَفْهَم مَعْنَى (لَا تُحْصُوهَا) عَلَيْنَا أَنْ نَعُودَ لِفَهْم كَلِمَة (آتَاكُم)ولم يَقُل (أَعْطَاكُم) ولنرى مَاذَا تَقُولُ اللُّغَة هُنَا :

أَتَى الشَّيءُ تامًّا : صَار وَأَصْبَح تامًّا

أَتَى عَلَيْه : – أَتَمَّه وأنهاه ، نفَّذه وحقَّقه : .

الإِتْيَانُ بالعَمَلِ كَما يَجِبُ : القِيامُ بِهِ

فَكَلَّمَه أَتَى الشّي صَار وَأَصْبَح تَامًّا أَيْ الْقِيَامِ بِالْأَمْر عَلَى أَتَمّه وَكَمَا يَجِبُ الْقِيَامُ بِهِ

وَمِمَّا نَفْهَمُه مِنْ بَعْدِ كُلَ هَذِهِ التَّعَارِيفُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَتَمَّ وَأَعِد خَلَقْنَا وَسَخِر كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ لَنَا وَهَذِهِ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي لَا نَعْرِفُهَا لِذَلِكَ لَا يُمَكِّنَنَا حَصْرُهَا أَو احصاءها .

فَخَلَق الْإِنْسَان أَسْهَلُ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض عِنْدَ اللَّهِ لَكِنْ بِالنِسْبَةِ لِلْإِنْسَان نَفْسِه فَتُعَدُّ مِنْ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا لَمْ يَسْتَطِيع الْعِلْمِ الْحَدِيثِ أَنَّ يَعْرِفَ حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِ وَطَبِيعَةٌ تَكْوِينه وَخُلُقَه وَخَاصَّةٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَقْل والوعي وَكَيْف يَعْمَلَان وَيَقُول المفكر الْإِسْلَامِيّ الباكستاني الْمَرْحُومُ مُحَمَّدٌ إِقْبَال وَتُحْسَب نَفْسِك جَرَم صَغِيرٌ وَفِيك انْطَوَى الْعَالِم الْأَكْبر

تِلْكُم هِيَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي نَفْهَمُهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية : 4] أَنَّ مَسْأَلَةَ خَلَقْنَا آيَةٌ عَظِيمَةُ لِمَنْ لَا يُوقِنُ بِاَللَّه .

فَنِعْمَةُ اللَّهِ فِي خَلَقْنَا وَالْإِسْرَار الَّتِي أَوْدَعَنَا فِينَا احياءنا وموتنا ثُمّ احياءنا مِنْ جَدِيدٍ لنعيش مَرَّةً أُخْرَى فِي دُنْيَا جَدِيدَة وَعَالِمْ جَدِيد أَلَيْسَت مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الْعَظِيمَة .

اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَنَا نندم ونأسف إِنَّك خَلَقْتَنَا وَأَنْعَمْت عَلَيْنَا .

الْعَقْل هو سِرُّ اللَّهِ الذي أودعه فِينَا

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : 10]

أَنَّ كَلِمَةَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَو لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَرَدَت 24 مَرَّةً فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَهُنَاك كَلِمَات مُرَادِفَةٌ لَهَا مِثْلُ تَتَفَكَّرُون وَرَدَت 18 مَرَّةً فِي الْقُرْآنِ

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 44]

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : 13]

مَا مَعْنَى [يعقل ، يفكر] .

عَقْل الشَّيْئ : أَدْرَكه ، وَعَقْل الْمَسْأَلَة ، أَي : فَهِمهَا ، وَالْعَقْل مُرْتَبِطٌ بِالْحَوَاسّ ، أَيْ إِنْ الْعَقْل يُدْرِكُ عَنْ طَرِيقِ الْحَوَاسّ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُون" ، فَإِنْ فُقِدَ إِنْسَانٌ حوَاسَّه [السمع وَالنُّطْق والبصر] فَلَن يَعْقِل .

وفَكَرَ فِي الأمرِ : أَعْمَلَ العقْلَ فِيه ورتَّبَ بعضَ مَا يَعْلَمُ ليصَل بِهِ إِلَى مَجْهُولٍ .

وفكّر فِي الْأَمْرِ : تفكَّر فِيه ، تَأَمَّله ، أَعْمَلَ الْعَقْلَ فِيه لِيَصِلَ إِلَى نَتِيجَةٍ أَو حَلَّ أَوْ قَرَارٌ .

فَإِنَّ الْعَقْلَ يَعِي بِالْحَوَاسّ وَيُدْرِكُ الْمَعَارِف ويخزن الْمَعْرِفَة .

أَمَّا الْفِكْر فَإِنَّهُ يَكُونُ بِأَعْمَال الْعَقْلِ الَّذِي تخزنت فِيه الْمَعَارِف ، فيربط الْعَقْل بالتفكير وَالتَّأَمُّل بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَارِف والخبرات وَالْأَسْبَاب حَتَّى يَصِلَ إِلَى نَتَائِجَ وابتكارات واختراعات .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ : أُسْلُوب اسْتِفْهَامٌ غَرَضُه الْإِنْكَار وَالتَّوْبِيخ والتَّعْرِيض بـ [بغبائهم وحماقتهم] ، وَالْمَعْنَى الْمَقْصُودُ : كَأَنَّكُم لَا عَقْلَ لَكُم يُدْرِك ويعي وَيَتَعَرَّف آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ وَآيَات كِتَابِهِ الْعَزِيزِ .

أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ : أُسْلُوب اسْتِفْهَامٌ غَرَضُه الْإِنْكَار وَالتَّوْبِيخ وَالتَّعْرِيض بـ [عجز عُقُولِهم وقصورها عَن التفكر] ، أَيْ كَانَ عُقُولكُم عَاجِزَة قَاصِرَةٌ عَنْ الْوُقُوفِ عَلَى آيَاتٍ قُدْرَةِ الْخَالِقِ ، وَالْوُصُولُ إِلَى أَنْ هُنَاكَ إلهاً واحداً ورباً واحداً لِهَذَا الْكَوْن .

فكَان أَفَلَا تَعْقِلُونَ نَفْي لِلْعُقُول ، أَيْ لَا عَقْلَ لَهم .

وَكَان أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ تَعْرِيضٌ بِعَجْز عُقُولِهم وقصورها ، أَيْ لَهُمْ عُقُول لَكِنَّهَا عَاجِزَةً عَنْ التَّفْكِيرِ وَالْفَهْم .

الْعَقْلِ مِنْ أَكْبرِ النعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْإِنْسَانِ بَعْدَ نِعْمَةِ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِين وَبِه صَار بَشَرًا كَائِنًا لَا يَنْتَمِي إِلَى أَيِ مَخْلُوقٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَلَا يُشْبِهُهَا كَالْمَلَائِكَة وَالْجِنّ وَالْحَيَوَانَات وَالْعَقْلُ هُوَ الَّذِي يُقَرِر مَصِيرِ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةَ وبالتَالِي فِي الْحَيَاةِ الْأُخْرَى .

لِذَلِك يَقُولُ الَّذِي خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ) فَاعْتَرَف بِذَنْبِه الْخَطِير وَهُو

عَدَم اسْتِخْدَامٌ عَقْلِهِ إِلَّا فِي الاتِجَاهَات الْمُخَالَفَة والمعاكسة للاتجاه الصَّحِيحِ الَّذِي مِنْ الْوَاجِبِ وَالْمَفْرُوض أَن يُتَّجَه نَحْوِه وَهُوَ طَرِيقُ وَمَنْهَج اللَّهِ فَكَيْفَ كَانَ يَعِيشُ ؟

كَانَ يَعِيشُ و يُسْتَعْمَل عَقْلُه لِنَفْسِه لِذَاتِه وَلِخِدْمَة غرائزه وطموحاته وملذاته وأنانيته وَحَيَاتِه دُون سِوَاهَا مِنْ أُمُورِ وَشَيْئًا فَشَيْئًا يَتَحَوّل عَقْلِهِ مِنْ مَسِيرٍ لِلْأُمُور إِلَى مَسِيرِ مِنْ قِبَلِ الْمَلَذَّات .

وَالْأَهْوَاء لِذَلِك يَنْعَدِم فِيه السُّمُوّ والاتقاء وَالنَّظَر نَحْوَ الْأَعْلَى نَحْوَ رَبِه ليشكره عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْكَبِيرَة وَهَذَا هُوَ الانسلاخ الْمَقْصُودُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف : 175]

هَذَا النَّوْع الْإِنْسَانِيَ يَتَحَوّل تَدْرِيجِيًا إِلَى كِيان مَادَيٍّ منفعي لَا يُحِبُّ أَلَّا ذَاتِه وَمَنْفَعَتُه فَأَوّل دَرَجَةً مِنْ دَرَجَاتِ الْكُفْر يَقَعُ فِيهَا هِيَ الْغَفْلَة ثُمّ النكران وَالْجُحُود ثُمّ الْكُفْر لايؤمن بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا بِحِسَابٍ أَوْ عِقَابِ وَتُؤَدي بِهِ هَذِهِ كُلَّهَا إِلَى الْإِلْحَادِ وَهُنَا يُجَرِدُه اللَّهُ مِنْ صِفَتِهِ الْإِنْسَانِيَّة وَيُصْبِح عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى كَالْأَنْعَام (﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : 44] .

بَل أضل مِنْ الْأَنْعَامِ لِمَاذَا ؟

لِأَنَّ الْإِنْعَامَ مُنْذ أَن خَلَقَهَا اللَّهُ لَمْ تُغَيِّرْ سُبُل وَطُرُق عَيْشِهَا وَفْق الْغَرِيزَة الرَّبَّانِيَّة الْمَوْضُوعَة فِيهَا لِذَلِكَ هِيَ تَسِيرُ وَفْق الْمَنْهَج الْإِلَهِيّ الْمُخَطَّط لَهَا أَنْ صَحَّ هَذَا التَّعْبِير بَيْنَمَا صَاحِب الْعَقْل لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَ ذَلِكَ فَاخْتَلَطَت عَلَيْهِ الْأُمُورُ وتاه وَلَمْ يُعِدْ يَعْرِفُ سُلُوكه وَفِطْرَتُه الَّتِي فِطْرَةُ اللَّهِ عَلَيْهَا لِذَلِكَ ضَلّ ضَلَالًا يَفُوق بِكَثِير الضَّلَال الْحَيَوَانِيّ وَالَّذِي هُوَ صِفَةٌ مَخْلُوقَةٌ بِالْحَيَوَان وَلَيْسَت مُكْتَسَبَةٌ .

لِذَلِك يَسْأَلَ وَاحِدًا آخَرَ وَهُوَ يَنْتَمِي أَيْضًا إِلَى (جَمَاعَةٌ الأضل مِنْ الْأَنْعَام) ويستعطف رَبّه قَائِلًا : (﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ [طه 125 اسْتِعْطَاف يُشَمّ مِنْهُ رَائِحَةُ الِاعْتِرَاضُ أَيْضًا وَيُخَال نَفْسَهُ هُوَ فَقَطْ الَّذِي أَعْمَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْحِسَابِ وَيَقُول رَبَّنَا الْكَرِيمِ فِي ذَلِكَ (﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : 124] وَيَقُول أَيْضًا (﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : 72] فَيُعْرَف وَقْتِهَا أَنْ كُلَّ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ أَمْثَالِهِ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ سيلقون نَفْس الْمَصِير سَيَنْزِع اللَّهُ عَنْهُمْ أَبْصَارَهُم نَزْعًا كَمَا نزعوها أَوَّلَ مَرَّةٍ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِأَنْفُسِهِم .

لَن نَتْرُك سُدًى وَلَم نُخْلَق عَبَثًا

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : 36]

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115]

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى – أَي : مُعَطَّلًا ، لَا يُؤْمَرُ وَلَا يَنْهَى ، وَلَا يُثَابُ وَلَا يُعَاقَبُ ؟ هَذَا حُسْبَان بَاطِلٌ وَظَنّ بِاَللَّه بِغَيْرِ مَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِه .

وَقِيل السُّدَيّ : مَعْنَاه الْمُهْمَل وَإِبِل سُدًى إِذَا كَانَتْ تَرْعَى حَيْثُ شَاءَتْ بِلَا رَاع .

قَال : إِبِل سدّى ، أَي : مُهْمَلَة لَيْسَ لَهَا رَاع يحميها . . وَهُوَ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ « يُتْرَك » .

أَي : أَيَظُنّ هَذَا الْإِنْسَانُ الَّذِي أَنْكَرَ الْبَعْث وَالْجَزَاء ، أَن تَتْرُكه هَكَذَا مُهْمَلًا ، فَلَا نجازيه عَلَى أَعْمَالِهِ الَّتِي عَمِلَهَا فِي الدُّنْيَا ؟ إِنْ كَانَ يُحْسَبُ ذَلِكَ فَهُوَ فِي وَهْمٍ وَضَلَالٌ .

بَل أَكْبر وَهُم يَقَعُ بِهِ الْكَثِيرُ مِنْ خَلْقِ اللَّهُ إِنَّهُمْ سيتركون سُدًى أَي مُهْمَلِين لَن يَسْأَلُ عَنْهُمْ أَحَدٌ وَلَن يُسْأَلُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ وتصرفاتهم هُمْ يَعْتَقِدُونَ هَكَذَا جَاءُوا إِلَى الدُّنْيَا صَدَفَة وَهُم سَوْف يُرَدُّونَ إِلَى الْعَدَمِ وَالْفَنَاء هَذِه فلسفتهم وأوهامهم يُصَرِحُون بِهَا بِكُلَ بِسَاطِه واستهتار بِنَفْس الْوَقْتِ لِكِنْ الْحَقِيقَةَ وَالْوَاقِع غَيْرِ ذَلِكَ تَمَامًا فَنَحْن لَن نَتْرُك سُدًى لِاَنَّنَا لَمْ نُخْلَقْ هَكَذَا عَبَثًا وَلَيْسَت الطَّبِيعَة هِيَ الَّتِي خَلَقْتَنَا وجعلتنا جُزْءًا مِنْهَا بَلْ الَّذِي خَلَقْنَا وأوجدنا وَجَعَلْنَا خَلَائِفَ فِي أَرْضِهِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْمَطْلُوب مِنَّا أُمُورًا لَيْسَت تعجيزية لِحَمْد اللَّهَ وَشَكَرهُ الْمَطْلُوبُ أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ وبملائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وتتبع الْمَنْهَجِ الَّذِي وَضَعَهُ لَنَا لَنَسِير عَلَيْهِ فِي حَيَاتِنَا هَذِه ليوصلنا إِلَى بَرَ الْأَمَانِ إِلَى الدَّارِ الْأُخْرَى .

أَنَّ هَذَا الْكَلَامِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ نَظَرِيَّة أَو شِعَارٍ أَوْ تَنْظِيرٌ بَلْ كَلَامُ وَاقِعِيٌّ مَنْطِقِي حَقٌّ وَلَيْسَ بمعجز

وَلَا يَسْتَحِيلُ أَو يَصْعُب تَطْبِيقُه اللَّهُمَّ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ يَعِيشُون هَذَا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِاعْتِبَارِهَا لَعِب وَلَهْو (﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : 32] .

وَفِي الْوَاقِعِ أَنَّ الْحَيَاةَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هِي لَعِب وَلَهْو وَهُو تَوْصِيف رَبَّانِيّ عَظِيمٌ فَالَّذِي يَنْظُر اليَوْمِ إِلَى النَاسِ وَمَا يَشْغَلُهُمْ وَمَا يحركهم ويسيرهم هُو الرَّكْض وَاللَّعِب وَاللَّهْو وَالَّذِي يَعْنِي تَمْضِيَةُ الوَقْتِ أَوْ إِضَاعَةِ الْوَقْتِ هَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَنْ لَمْ نَجْعَلْ لَنَا هَدَفًا وَغَايَة وَمُطَّلَب إِذَا كَانَ همنا هَذِهِ الدُّنْيَا فَقَطْ فَهِيَ لِلَّعِب وللهو وَإِذَا أَرَدْنَا الْآخِرَة فَتَنْقَلِب هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَى جِسْر لِلْعُبُور إِلَيْهَا بِسَلَام ويتطلب ذَلِكَ أَنَّ نَعيش فِيهَا بجدية ومسؤولية لَا لنلعب ونلهو .

وَإِذَا كَانَ مَا يَشْغَلُنَا تفكرنا فِي مَسَائِلَ خَلَقْنَا وَالْغَايَة مِن وجودنا فسيتغير الهَدَف وَالْغَايَة وسنرى هَذِهِ الدُّنْيَا مُجَرَّد دَار عُبُور لِلْآخِرَة كَما ذَكَرْت وَالَّتِي هِيَ ضَالَّةُ الْمُؤْمِن .

وَيُبَيِّن حَدِيث مَرْوِيٌّ عَنْ النَبِيَ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُبَيِّنْ لَنَا ذَلِكَ (فقد رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : وَعَن عبدِاللَّه بنِ مَسْعُودٍ قَالَ : نَامَ رسولُ اللَّه ﷺ عَلَى حَصيرٍ ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّه ، لو اتَّخَذْنَا لكَ وِطَاءً ، فَقَال : مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

وَالسُّؤَال الْكَبِير هُنَا هَذَا الَّذِي وُصِفَ نَفْسَهُ كَرَاكِب اِسْتَظَلّ تَحْتَ شَجَرَةٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ الدُّنْيَا شَيْئًا لَكِنَّهُ تَرْكُ فِيهَا أَثَرًا عَظِيمًا خَالِدًا للبشرية جَمْعَاء .

اللَّهَ يَفْعَلُ مايريد وَمَا يَشَاء

﴿ ۙ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [الحج : 14] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج : 18]

هُنَاك الْكَثِيرِين مِنْ الَّذِينَ يَعْتَرِضُون أَوْ الَّذِينَ يتسائلون عَنْ إرَادَةِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ لِمَاذَا خَلَقْنَا اللَّه ؟ أَو لِمَاذَا خَلَقْنَا فُقَرَاء ؟ وَلِمَاذَا خَلَقَ الذُّبَابَة ؟ وماالفائدة مِنْ خَلْقِ كُلَّ هَذَا الْكَوْن الْهَائِل ؟ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْئِلَةِ .

فَاللهُ هُوَ الْخَالِقُ وَهُوَ الْمُصَوِّر لِذَلِك يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عِمْرَان : 6]

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [التغابن : 3]

فَلَمَّا الْغَرَابَةِ فِي ذَلِكَ تَخَيَّل نَفْسِك رساما أَو نحاتا فترسم لَوْحَة أَو تنحت شَكْلا وَفْق مَا تُرِيدُهُ وترغبه وَيَأْتِي مُتَطَفَل وَيَقُولُ لَك لِمَاذَا صَنْعَتِهِ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ ؟

الْقَضِيَّةِ هُنَا مُرْتَبِطَةٌ بِصَاحِبِ الْحَقِّ وَالْمِلْكِيَّة وَهُوَ وَحْدَهُ يَتَصَرَّف بِمِلْكِه كَيْفَمَا شَاءَ وَأَرَاد وَلَا يَجُوزُ لِلْمَخْلُوق أَنْ يُعْتَرَضَ أَو يُنَاقَش لَهُ حَقُّ الدُّعَاء وَالتَّوَسُّل وَالتَّلَطُّف إِلَى خَالِقِهِ عَسَى أَنْ يُغَيِّرَ مِنْ حَالَتِه وَأَحْوَالِه .

وَيَرْتَبِط بِهَذَا الْمَوْضُوع مَسْأَلَةٌ جِدّ مُهِمَّةٌ وَهِي الْقَنَاعَة وَالرِّضَى فَالَّذِي يرِضَى بِمَا قَدَرَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نَصِيبِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَيَعِيش مقتنعا بِهِ فَهُوَ قَدْ مَلَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِمَّا الصِّنْفُ الْآخَرُ الَّذِي يَبْقَى طِوَال حَيَاتُه وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِ وَإِشْكَالٌ النَّاسِ وَحَالَهُمْ وَمَا يَمْلِكُون وَمَا مَنْحُهُم اللَّهُ مِنْ خَيْرٍ فَهَذَا الصِّنْف لَيْس فَقَطْ غَيْرُ رَاضٍ عَلَى مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ بَلْ هُوَ غَيُورٌ حَسُودٌ لَا تَمْلَأَ عَيْنِه إِلَّا حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ .

وَاللَّه الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَلَا حُدُود ولاقيود فِي أَنَّ يَقُولَ لشئ إِذَا أَرَادَهُ كُنْ فَيَكُونُ

فَلَا تُفَكِّرْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُرِيدُ لَكَ خَيْرًا إِذَا لَمْ يُعْطِيك كُلّ ماتريد أَوْ بَعْضَ ماتريد وَهُوَ أَدْرَى بِعِبَادَة وَاعْلَم .

مَنْ هُمْ الْفَرِحِين

﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : 76]

أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ [القصص : 76] جَاءَ عَلَى لِسَانِ صَالِحِي قَوْمٌ قَارُون لَهُ عِنْدَمَا بَغَى عَلَى قَوْمِهِ ، وَامْتَلَأَ قَلْبه بِالْكِبَر والعُجب وَالْخُيَلَاء بِسَبَبِ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ الْمَالِ والكنوز قَالَ تَعَالَى : إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ الْقَصَص : 76

وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مِنْ أَتَاهُ اللَّهُ مالاً وجاهاً يُسَمَّى فَرِحًا وَنَحْوِ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَحْمِلْهُ مَالِهِ أَوْ جَاهِه عَلَى الْكِبرِ وَالْبَطَر وَالتَّعَالِي عَلَى الْآخَرِينَ .

وَيَقُول رَبَّنَا الْكَرِيمِ فِي تِبْيَانِ فَرِحِ الْإِنْسَانِ الْحَقِيقِيَّ الَّذِي يَنْبُعُ مِنْ نَفْسٍ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً وَلَيْسَ مِنْ مَظَاهِر وَهْمِيَّةٌ زَائِلَةٌ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58]

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عِمْرَان : 188]

وَهُنَاكَ نَوْعٌ آخَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْفَرِحِين الَّذِينَ لَا يُحِبُّهُمْ اللَّهُ الَّذِينَ (وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا

وَهَذَا النَّوْعُ يُحِبّ دَائِمًا إِنْ يُمْدَحَ وَيَشْكُر وَيُثْنَى عَلَى أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَإِنْ كَانَ كُلُّ الّذِي فِيهِ مِنْ خصائل هِيَ مَكْرُوهَةٌ تَسْتَحِقّ الذَّمّ وَلَيْس الثَّنَاء وَالْمَدْح لِكِن بمالهم أَو بمركزهم أَو صِفَتِهِم يَجْعَلُون النَاس يمدحونهم رِيَاء وَكَذِبًا وَنِفَاقًا .

اِبْتَغ الدَّارِ الْآخِرَةِ

لَا تَنْسَى نَصِيبَك مِنْ الدُّنْيَا

أَحْسَنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْك

لَا تَبْغ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ

إِنَّ اللَّهَ لايحب الْفَاسِدَيْن

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : 77]

انْظُرُوا إِلَى قُوَّةِ الْخَطَّاب الْإِلَهِيّ وَإِعْجَازِه وَبَلَاغَتِه فَإِنه وَاحِدَة تُعَادِل سَطْرًا وَنِصْف فِيهَا مِنْ الْحُكْمِ خَمْس حُكْمٌ وَفِي كُل حُكْمه يُسْتَطَاعُ أَنْ تُوَلّفَ كتيبا لِتَفْهَم مَعْنَاهَا وتفسره وتشرحه

وَابْتَغ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارِ الْآخِرَةِ

مَعْنَى ابْتَغَى الأجرَ وغيرَه : أَرَادَهُ وَطَلَبَهُ

فَكُلُّ مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنْ مَالِ وَعِلمَ وَصِحَّة وَعَافِيَة اجْعَلْه لحياتك الْآخِرَة وَاجْعَل أَكْثَرَهُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ وَأَقَلُّهُ لِتَعَيُّش بِهِ إِذَا أَرَدْت أَنْ تذكي وَتُسَاعِد فَقُل هَذِه حِصَّة آخِرَتِي وَإِذَا اعْتَدَى عَلَيْك شَخْصٌ وَسَامَحْتَه قُل وَهَذِه لِأَجْل آخِرَتِي وَكُلُّ تَصَرُّفٍ تتصرفه فِيهِ خَيْرٌ وَعَمِل وَتَقْوَى وَمُسَاعَدَة وَنَصَح ابْتُغِيَ بِهِ آخِرَتك اجْعَلْهُ مِنْ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ فَهِي وَحْدَهَا سَوْف تنقذك وتسعدك .

لا تَنْسَى نَصِيبَك مِنْ الدُّنْيَا

لَا تَظُنّ أَنّ نَصِيبَك مِنْ الدُّنْيَا هُوَ كُلُّ ماتملكه وَكُلُّ مَا حَصَلَتْ عَلَيْهِ بَلْ هُوَ مَا صَرَفْته فِعْلًا فِي حَيَاتِك فَالْمَالُ الَّذِي تَمَلُّكه لَيْسَ كُلُّهُ لَك حِصَّتَك هِي نَصِيبَك قسمتك الَّتِي تَأْكُلُ مِنْهَا وَتُلْبَس وَمَا تَصَرُّفِهِ عَلَى نَفْسِك فِي هَذِهِ الْحَيَاةَ أَمَّا الْبَاقِي فَقَسَم مِنْه تدخره لحياتك الْآخِرَةِ كَمَا ذَكَرْنَا وَالْقِسْم الْبَاقِي لِوَرَثْتُك .

لِذَلِك فَاللَّهُ تَعَالَى يحثنا أَنْ لَا تَبْخَلَ عَلَى أَنْفُسِنَا مِنْ نَاحِيَتَيْن الْأُولَى الْإِنْفَاقِ عَلَى النَّفْس وَمَن تعيل وَأَنْ يَكُونَ إِنْفَاقًا لَا تَقْتِير فِيهِ وَلَا إِسْرَافَ وَالثَّانِيَة الِادَخَار لحياتك الثَّانِيَة بِالصَّدَقَات وَالزَّكَاة والعطاءات فَتَكُونُ مِنْ الْمُحْسِنِينَ .

أَحْسَنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْك

عَلَيْنَا أَنْ لَا ننسى وَيَغِيبُ عَنْ بَالُنَا لِلَحْظِه وَاحِدَةٍ إِنْ الَّذِينَ بَيْنَ أَيْدِينَا مِنْ مَالٍ وجَاه وَثَرْوَة هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهُوَ بِذَلِكَ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا وبالمقابل عَلَيْنَا تَرُدّ الْإِحْسَان بِالْإِحْسَان ونحسن لِلَّه نُعْطِي لِلْفُقَرَاء والمحتاجين وَالْمَسَاكِين وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَطُلَّاب الْعُلُوم فلهؤلاء جَمِيعًا دَيْنٍ فِي رقبتنا وَهُوَ مِنْ مَالِ اللَّهِ وَرَدَ دِينه وَإِحْسَانِه عَلَيْنَا لَا تَقُولُ كَمَا قَالَ نُمْرُود إِنَّمَا أُوتِيتَه مِنْ عِنْدِي بِعَمَلِي وَجَهْدِي وذكاءي وحنكتي لَا أَنَّهُ إِحْسَان وَعَطِيَّة مِنْ اللَّهِ لَك .

وَلا تَبْغِ فِي الأَرْضِ فَسَادًا

وَهُنَا الطّامّة الْكُبْرَى وَالْمُصِيبَة الْفَظِيعَة حِينَمَا تَنْسَى حَقَ اللَّهِ فِي مَالِك وَتَمْنَعُه عَن مُسْتَحِقَيه ثُمّ تَبْتَغِي بِهَذَا الْمَالِ الْفَسَاد وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ فَتَصَرُّفُهُ فِي إِيذَاءِ النَاسِ أَوْ التَّسَلُّط عَلَيْهِمْ أَوْ فِي الْمَلَذَّات وَالْمُسْكِر وَالْحَرَام فَبَدَّل أَنْ تَكُونَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ تُصْبِح بفعلتك مِن الْفَاسِدَيْن والمنبوذين و (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) .

مَنْ هُمْ الْمُفْسِدِين فِي الأَرْضِ

قَدْ يَكُونُ الْمَرْءُ فَاسِدًا وَإِنْ فَسَادِه يَقَعُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ وَلَا يُطَالُ الْآخَرِين لَكِنْ الْمُفْسِدُ هُوَ أَشَدُّ خَطَرًا عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى النَاسِ وَالْمُفْسِد هُوَ فَاسِدٌ بِطَبْعِه لِذَلِك يُحِبُّ الْفَسَادَ ويمارس الْإِفْسَاد لِيَجْعَل النَاس كُلُّهَا مِثْلِه وَلَوْ اسْتَطَاعَ لِغَيْر الْمُجْتَمَع وَجَعَلَه فَاسِدًا وَمِثْلُ هَذَا الْفَاسِد الْمُفْسِد نَجِدُهُ فِي الْحُكَّام والمسؤولين

الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ تَقُومَ الدَّوْلَة وَالْمُجْتَمع عَلَى أَسَّس مِن الرشاوي وَالسَّرِقَات والوساطات وَبَيْع مُؤَسَّسات الدَّوْلَة وَنَهْب الْمَالِ الْعَامَ فَيَعُمّ الْفَسَاد وَيَضِيع الصَّالِح مَعَ الطالح .

والأدهى مِنْ هَؤُلَاءِ كُلِهِمْ جَمَاعَةٌ تَنْتَمِي لِصِنْف الْمُفْسِدِين تُعْتَبَر فَسَادُهَا إِصْلَاحًا وتسمي نَفْسِهَا المصلحون يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة : 11] هَذِهِ الْفِئَةُ مِن الْفَاسِدَيْن مُدَّعِي الْإِصْلَاح يمثلهم فِي وَقْتِنَا الرَّاهِن بَعْض الْمُتَفَقِهين وَأَصْحَاب العمامات الَّذِين تَرَاه صَبَاحَ مَسَاءَ يَدْعُو إِلَى تَرْسِيخ الِانْقِسَام بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَسْقِي بُذور الْفِتَن الْمَذْهَبِيَّة ثُمَّ يُسَمِي نَفْسَهُ الْمُصْلِح الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ .

﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا** ﴾ [النساء : 75]

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : 51]

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : 57]

أَنَّ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِم أَهْلِهَا هِيَ مَكَّةُ الْمُكَرَمَةِ هَذِهِ الْبَلَدِ الْأَمِينِ وَهِيَ قِبْلَةُ الْمُسْلِمِينَ فَكَيْفَ حَوْلَهَا الظَّالِمُون الْمُشْرِكُونَ إِلَى بَلَدٍ يَدْعُو الْمُسْتَضْعَفِين رَبَهم أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْهَا ؟

فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَبَر كَثِيرَةٌ وَمَعَانِي بَاقِيَةٌ خَالِدَة فَهِيَ دَلِيلُ إِلَهِي وتاريخي عَلَى قَسَاوَة مَا فَعَلَهُ وَيَفْعَلُه الظَّالِمُون بوطنهم وَأَهْلِهِم وشعوبهم مِمَّا يَدْفَعُ النَاسَ لِلدَّعْوَة وَالطَّلَب مِنْ اللَّهِ أَنْ ينقذهم وَيُخْرِجُهُم مِنْهَا .

أَنَّ مَنْ أَقْسَى أَنْوَاع الْجَرَائِمِ الَّتِي تُرْتَكَب بِحَقّ الْإِنْسَانُ هُوَ إِخْرَاجُهُ مِنْ وَطَنِهِ قَسْرًا

وَبِدُونِ أَنْ يُذْنِب يَرْتَكِبُه والجرم الْأَكْبَر مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ يُفْرَض وَيُجْبَرُ عَلَى الْخُرُوجِ فَقَطْ لِأَنَّهُ مُؤَمَّنٌ بِاَللّٰهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَهَذَا ماحدث عِنْدَمَا طَرْد مشركو مَكَّة الْمُسْلِمِينَ يَقُولُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج : 40]

وَالْإِخْرَاج الْقَسْرِيّ قَدْ تَكُونُ مُبَاشَرَة كَما حَدَّثَ لِلْمُسْلِمِين حِينَمَا طَرْدِهِم الْمُشْرِكِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ مُبَاشِرٍ بِأَنْ يَفْعَلَ الظَّالِمُون الْأَفْعَال الشَّنِيعَة فَيَهْرُب الْمَظْلُومِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ بِإِرَادَتِهِم خَوْفًا مِنْ بطشهم أَو لِاسْتِحَالَة الْعَيْشِ فِي تِلْكَ الْقُرَى الظَّالِم أَهْلِهَا .

لَقَدْ حَدَّثَ مَعِي هَذَا الْأَمْرِ أَنَا شَخْصِيًّا مَرَّتَيْن بَيْنَهُمَا عَقْدَيْن مِنْ الزَّمَنِ . . .

كُنْت أَعِيش فِي قَرْيَةٍ بِأَمَان وَاطْمِئْنَان مَسْتُورًا شَاءَت الْأَقْدَار أَنَّ تتكالب عَلِيّ مَجْمُوعِهِ مِنْ أَفْسَدَ خَلَقَ اللَّهُ هُمْ محامون مِثْلِي قَتْلِهِم الغَيْرَة وَالحَسَدِ وَأَعْمَى بَصِيرَتِهِم فحاكوا وَصَنَعُوا مَكَائِد جُعِلَت أَقْرَب الْمُقَرَّبِين يَفِرَّ مِنَي فَرَفَعْت يَدَاي إِلَى مَوْلَاي وَقُلْت اللَّهُمّ أَخْرَجَنِي وَأَهْلِ بَيْتِي مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِم أَهْلِهَا فَأَخْرَجَنِي اللَّه بِبَضْعَة أَسَابِيع واستقريت فِي مَكَان بَعِيدٍ وشكرت اللَّهَ كَثِيرًا بِأَنْ نَجَّانِي مِنْ الْقَوْم الظّالِمِينَ .

لَم تَمْضِي عِدَّةَ سَنَوَاتٍ إِلَّا وَصَار الظُّلْم عَادَة بَيْنٌ عِنْد أَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ الظَّالِم أَهْلِهَا وَانْتَشَر وَاتّخذ أَلْوَانًا وأصنافا وأشكالا مُخْتَلِفَةٌ فَعَمّ وَكَبَر وَكَثُر وَتَبِعَه مُبَاشَرَة جَفَاف الزَّرْع وَالضَرْع وسنين الْقَحْط والجفاف وَانْتَشَر الْفَقْر وَكَثُرت الْأَمْرَاض وتفاقمت الْأَوْضَاع لَم تَمْضِي سَنَوَات كَانَت النَتِيجَة هِجْرَة نِصْف مِلْيُون إِنْسَانٌ مِنْ تِلْكَ الْمِنْطَقَة الظَّالِم أَهْلِهَا تَرَكُوا دِيَارِهِم طَوْعًا غادرها الْمَظْلُومِين وَكَثِيرًا مِنْ الظَّالِمِينَ .

الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ كَانَتْ أَيْضًا بِسَبَبِ الظُّلْم لَكِنَّهُ كَانَ ظُلْمًا عَامًّا شَامِلًا حَلّ بوطني سُوريا الَّذِي تَحوَّلَ الْكَثِيرِ مِنْ الْمَظْلُومِينَ فِيهِ إِلَى ظَالِمِين أَيْضًا بِسَبَبِ دفاعهم عَنْ الْحَاكِمِ الظَّالِمِ فَوَقَعَتْ الْحَرْبُ وَقُتِلَ مِنَ قَتَلَ وغادر نِصْف السوريين وَطَنِهِم وَتَرَكُوا بُيُوتِهِم وَمَا يَمْلِكُون وَمَضَى أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ عَشْرَ عَامًا ولازالوا بِعِيدَيْنِ عَنْ دِيارِهِمْ ووطنهم وَنَحْن مِنْهُم .

لِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَنَحْمَدُ اللَّهَ كَثِيرًا عَلَى أَنَّنَا فِي صِنْفِ الْمَظْلُومِينَ وَ لَيْس الظَّالِمِين

﴿ **وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا** ﴾ [النساء : 108]

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة : 255]

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : 110]

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الِاعْتِقَاد : الْمُحِيط : هُوَ الَّذِي أَحَاطَتْ قُدْرَتُهُ بِجَمِيعِ الْمَقْدُورَات ، وَأَحَاط عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ ، وَالْقُدْرَة لَهُ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ ، وَالْعِلْم لَهُ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ .

قَالَ ابْنُ أَبِي الْعِزِّ فِي شَرْحِهِ : لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ إِحَاطَتُه بِخَلْقِه أَنَّه كَالْفَلَك ، وَإِن الْمَخْلُوقَات دَاخِلٌ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ : إِحَاطَة عَظْمُه وُسْعِه وَعِلْمٌ وَقُدْرَةٌ

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ أَنَّهُ الْمُحِيط بِكُلِ مَا كَانَ وَبِكُلِ مَا هُوَ كَائِنٌ عِلْمًا ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ .

وَأَفِض طَرِيقِهِ كَمَا فَهِمْنَا هِيَ أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآن بِالْقُرْآن وَعَلَيْهِ أَنْ هُنَاكَ نَصٌّ قُرْآنِيٌّ يُفَهِمُنَا مَعْنَى مُحِيط ويحيطون وَهِي : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس : 61]

تَصَوَّرُوا مَعِي قَدَّرَهُ اللَّهُ وَعِلْمُهُ وَإِحَاطَتِه بِكُلَ شَيْءٍ وَإِنْ فِي قَوْلِه (وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ) فِيهَا إِعْجَاز عِلْمِي وَاضِحٌ فَمَن الْمَعْرُوفِ أَنْ كُلَّ الْأَشْيَاءِ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ الذُّرَةِ لَكِنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةِ ذَكَرَت كَلِمَة أَصْغَر وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ أَشْيَاءَ أَصْغَر بِكَثِيرٍ مِنْ الذُّرَةِ كالفوتونات والالكترونات وَهَذَا الْأَمْرُ لَمْ يَكْتَشِفْ إِلَّا فِي عَصْرِنَا الْحَالِيّ فَسُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي أَحَاطَ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ كُلَ شَيْءٍ .

نَصْر وَنَاصِر ومناصرة

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ [الكهف : 43]

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : 40]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : 7]

﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عِمْرَان : 160]

﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : 150]

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا الْحَجّ : 38

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي

مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود : 63]

نصَر مظلومًا : أيّده وَأَعَانَه وَنَجْدَةٌ

نَاصِرٌ لَهُ : مُسَاعِدٌ ، مُؤَيِّدٌ لَهُ ، آلِ عِمْرَانَ آيَة 22 وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (قرآن)

كَثِيرَةٌ جِدًّا هِيَ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَتَحَدّث عَن النَصْر والمناصرة وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ وَأَفْعَال مُرَادِفَةٌ لَهُمَا وكعادة الْإِعْجَاز الْقُرْآنِيّ تَرَى أَنَّ كُلَّ لَفْظٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْكَثِيرَة يَدُلُّ عَلَى مَوْقِفٌ لِنَصْر وَمَعْنَى يَخْتَلِفُ عَنْ مَوْقِفِ آخر .

أَمَّا الْقَاعِدَةُ العَامَّةِ فِي ذَلِكَ فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ آلِ عِمْرَانَ

لِأَنَّ فِيهَا أَمْرًا قَطْعِيًّا وَحُكْمًا سَمَاوِيًّا غَيْرَ قَابِلٍ لِلطَّعْن أَوْ الْمُنَاقَشَةِ فَالَّذِي يُؤَيِّدُه اللَّه وَيُسَاعِدَه وَيَكُونُ مَعَهُ فَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ مَهْمَا أُوتِي مِنْ قُوَةٍ أَنْ يَغْلِبَهُ أَوْ يَنْتَصِر عَلَيْه (﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : 249]

(بِإِذْنِ اللَّهِ) تَعْنِي بِنَصْرِه وَمُسَاعَدَتُه ومؤازرته .

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ [الكهف : 43]

فَإِنَّ سَبَبَ اِنْدِحار وَخَسَارَتُه وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَنْصُرْهُ وَلَا تَسْتَطِيعُ أَيْ فِيهِ غَيْرُ اللَّهِ أَنْ تَنْصُرُه لِذَلِكَ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا أَي مَهْزوما .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ

وَالنَّبِيّ هُنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُنَبِه قَوْمِهِ إِلَى حَقِيقَةٍ يَجْهَلُهَا قَوْمِه فَيُخْبِرُهُم أَنَّهُ إِذَا سَمِعَ كَلَامِهِم وَاسْتَجَاب لطلبهم فَهَلْ هُمْ وآلهتهم قَادِرِينَ عَلَى إِنْقَاذِهِ وَنَصرَه إِذَا عَصَا اللَّهُ يَقُولُ لَا بَلْ أَنَّكُم ستزيدوني ضَلَالَةٌ وخسارة .

﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : 150]

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا الْحج : 38

عَلَيْنَا أَنْ نَتَيَقَّن مِنْ اللَّهِ هُوَ وَحْدَهُ مَوْلَانَا وَلَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ نركن إِلَى هَذَا أَوْ ذَاكَ نَطْلُبُ مِنْهُ الْمُؤَازَرَة وَالْمُسَاعَدَة وَالنَّصْر فَاَللَّه خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّاصِرِين الَّذِين نَطْلُب النَّصْر مِنْهُمْ هُوَ خَيْرٌ لِأَنَّهُ ينصرنا دُونَ مَنْ أَوْ أَذَى وَلِأَنَّه تكفّل بالدفاع عَنَّا وبنصرنا وَالدِفَاع عَنِ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ دِفَاع لَا يُمْكِنُ حَصْرُهُ بِمَكَان وَزَمَان مُعَيَّنٍ وَلَا يُمْكِنُنَا الْقَوْلُ بِأَنَّ اللَّهَ دَافَعَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَعَنْ الَّذِينَ مَعَهُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي فَتْرَةٍ مِنْ الْفَتَرَات الْزمْنِيه حِين تَعَرَّض الرَّسُول وَالْمُسْلِمِين لِلْعُدْوَان ؟

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مَوْجُودُونَ فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنْ الْعُصُور الَّتِي تَلَتْ وَفَاةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمُ وَهُم مَوْجُودِين ليومنا هَذَا وَإِنْ كَانُوا أَقَلَّ نُفَيْرًا وَأَقَلّ عَدَدَا وَقَدْ يُسْأَلُ سَائِلٌ وَلِمَاذَا لَم يُدَافِع عَنَّا اللَّه وينصرنا الْيَوْم وَنَحْن نُحَارِب الصهاينة المحتلين لِبُقْعَة طَاهِرَةً فِي فِلَسْطِينَ ؟

هَذَا السُّؤَالِ يَحْتَم عَلَيْنَا أَنْ نُفَرِّقُ بَيْنَ الْإِسْلَام وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ جِهَةِ وَبَيْنَ الْإِيمَانَ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ جِهَةِ ثَانِيَة فَإِذَا اعترفنا وَشَهِدْنَا فَرْضًا بِأَنَّا جَمِيعًا مُسْلِمَيْن وَلَوْ أَنَّ صِفَةَ الْمُسْلِمِين نَفْسِهَا لَا تَنْطَبِقُ عَلَى الْكَثِيرِين مِنَّا لَكِنْ نَحْنُ مُسْلِمُونَ عَلَى الْأَقَلَ بِأَضْعَف حَالَات الْإِسْلَام وَهِيَ أَنَّنَا ننطق الشَّهَادَتَيْن وَنُودِي الْفَرَائِض وتتميز عَن غَيْرِنَا بِذَلِكَ وَلَكِنَّ هَلْ نَحْن مُؤْمِنُون حَقًّا وَعَلَى قَلْب رَجُلٍ وَاحِدٍ ومعتصمون بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا هُنَا يَكْمُن سِرّ الْمُشْكِلَة وَاللَّهِ قَدْ قَالَ زَمَن كَانَ الْمُسْلِمُونَ مُسْلِمَيْن قَوْلًا وَحَقًّا قَالَ لَهُمْ لاتقولوا آمَنَّا (﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحجرات : 14]

وَرُبَّمَا قَائِلٍ يَقُولُ وَلَكِنَّ هَذَا النَّص قِيلَ فِي الْإِعْرَابِ وَارِدٌ عَلَيْهِ وَأَقُول لَهُ وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّ أغلبنا الْيَوْم هُمْ مِنْ الْإِعْرَابِ والمستعربين .

فقضية لِمَاذَا لَمْ ينصرنا اللَّه وَيُدَافِع عَنَّا جَوَابِهَا وَحَلُّهَا هُوَ عِنْدَنَا لِأَنَّ اللَّهَ مِنْ جِهَتِهِ وَعَدَنَا وَعْدًا خَالِدًا وَاللَّه لايخلف الْمِيعَاد .

نَصْرِ اللَّهِ ومؤازرته عَلَى الْمُسْتَوَى الفردي

هَل يَنْصُرُنِي اللَّه وَيُدَافِع عَنِي إِذا كُنت مُؤْمِنًا حَقًّا وَكَيف ؟

إذَا كُنت مُؤْمِنًا حَقًّا فَإِنَّك تَدْخُلُ حُكْمًا فِي قَائِمَةِ (الذين آمَنُوا) فَتَقَعُ فِي حُكْمِهِمْ وَهُوَ أَنْ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنْت وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَهُوَ سيدافع عَنْك بِدُون أَدْنَى رَيْب أَوْ شَكَّ لَكِنْ كَيْفَ ؟

اللَّه سيدافع عَنْكَ فِي مَوَاقِفِ كَثِيرَةٍ مِنْ حَيْثُ تَدْرِي أَوْ لَا تَدْرِي فِي وَجُودك وغيابك شَرِيطَةٌ أَنْ تَكُونَ مَظْلُومًا وَصَاحِب حَقٍّ وَعَلَى حَقٍّ لِذَلِك فَحِينَمَا نَقُول حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَهَذَا يَعْنِي تَسْلِيم أَمْرِنَا لِلَّه وَنَقُولُ لَهُ يَارَبِّ أَنْتَ مَوْلَانَا ووكيلنا وَلَيْسَ لَنَا سِوَاك بالدفاع عَنَّا ومساعدتنا ومؤازرتنا وَبِأَخْذ حُقُوقِنَا إذَا قُلْت ذَلِكَ بِقَلْب مَظْلُومٌ مَحْرُوق لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَك فَاعْلَمْ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ اللَّهَ ناصرك لَا مَحَالَةَ .

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عِمْرَان : 37]

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : 3]

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : 58]

﴿ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [المائدة : 114]

الرزقُ فِي اللُّغَةِ : مايُنتفع بِه ، يُقال رِزْقُ الخلقَ رَزقًا ورِزقًا

فالرَزقُ بِفَتْحِ الرَّاءِ هُوَ الْمَصْدَرُ مِنْ رَزْق . والرِزق بِكَسْرِ الرَّاءِ هُوَ اسْمٌ يُعبَّر بِهِ عَنْ الْمَصْدَرِ ،

ويُقال : رِزقًا اسْمُ الْمَصْدَرِ وَيَسْتَخْدِم أَحْيَانًا مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ الْأَصْلِيّ .

ويُجمع رِزق ورَزق عَلَى أَرْزَاق ، والرزاق مِنْ أَبْنِيَةِ الْمُبَالَغَةِ عَلَى صِيغَةِ فعَّال .

فالرزاق سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى تَنْفِيذ الْعَطَاء الَّذِي قدرهُ لِأَرْزَاق الْخَلَائِق لحظةً بِلَحْظَة ، فَهُو المفيضُ بالأرزاقِ رزقًا بَعْد رِزْقٌ ومبالغةً فِي هَذَا الْأَرْزَاق وَهَذَا الْإِنْفَاق ، وَلِذَلِكَ لَيْسَ مِنْ أحدٍ يُسمى بِهَذَا الِاسْمِ إِلَّا اللَّهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفَ بِهِ بَشَرٌ فَلَا يُقَالُ عَنْ أَحَدٍ أَنَّهُ رَزّاق أبدًا لِأَنَّ هَذِهِ صِفَةُ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَا لِنَفْسِهِ . وَهُنَاك عِدَّةَ آيَاتٍ تُفِيدُ هَذَا الْمَعْنَى مِنْهَا :

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : 22] وَقَالَ عَنْ تَنْفِيذِ ماقسمه لِكُلَ مَخْلُوقٍ ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت : 6] وَقَال ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود : 6]

-قال ابْنُ جَرِيرٍ :

هُو الْمُتَكَفل بأقواتهم ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 79-80]

- قَال الْخَطَّابِيّ :

هُو الْمُتَكَفل بِالرِّزْق الْقَائِم عَلَى كُلَ نَفْسٍ بِمَا يقيمُها مِنْ قُوتِهَا فَلَيْس يَخْتَصُّ بِذَلِكَ مؤمنًا دُون كَافِرٌ وَلَا ولياً دُون عَدُوّ .

-قال السَّعْدِيّ :

الرِّزْق نَوْعَان

رِزْقٌ عَامٌّ يَشْمَلُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ وَالْأَوَّلِيْن وَالْآخِرِين وَهَذَا رزقُ الْأَبْدَان ، وَرِزْق خَاصّ وَهُوَ رِزْقُ الْقُلُوب .

وَهَذَا مَعْنَى هَام جِدًّا فِي اسْمِ اللَّهِ الرَّزَّاق ، فَمَتَى تُحَدِّثنَا عَنْ "الرزاق" سُبْحَانَه تَجِد النَّاس انْصَرَفَت قُلُوبهم وَعُقُولهُم إِلَى رِزْقِ الْأَبْدَان فَقَطْ مِنْ الْمَالِ وَغَيْرِهِ . وَلَكِن أَعْظَم الرِّزْق هُوَ رِزْقٌ الْقَلْب ، وَهُوَ بِأَنْ يُغذيه اللَّهُ تَعَالَى بِالْعِلْم وَالْإِيمَان هَذَا هُوَ الرزقُ الْحَلَالِ الَّذِي يُعَيِّنُ عَلَى صَلَاحِ الدِّينِ وَهَذَا خاصٌ بِالْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِه .

يَقُولُ النَّبيّ : (إن اللَّهَ قَسَمَ بينكم أخلاقكم كَمَا قَسَمَ بينكم أرزاقكُم وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يعُطى الدُّنْيَا مِنْ يُحب وَمَن لايحب وَلَا يُعطى الْإِيمَانِ إِلَّا مِنْ أحب) [صححه الألباني] هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيّ

أَوَّلَ شَيْءٍ يَتَعَلَّمه الْعَبْدُ مِنْ اسْمِ اللَّهِ الرَّزَّاقِ أَنَّ يَزْدَاد ثقةً ويقينًا فِي رَبِهِ فَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ . مشكلتنا أَنَّنَا فِي مُجْتَمعِ مَادِيٍّ تَحْكُمُه فَلْسَفَة مَادِيَّة الْكُلّ مُتَعَلَقَ فِيهِ بِالْأَسْبَاب وَالنَّتَائِج ، فَمَن يُذَاكِر 3 سَاعَات سَيَحْصُل عَلَى تَقْدِيرِ جَيِد ، وَمَن يُذَاكِر 6 سَاعَات يَحْصُلُ عَلَى تَقْدِيرِ جَيِد جدًا ، وَهَكَذَا فِي كُلّ أُمُورنَا . وتناسينا دُور الْمَعَانِي الإيمانية وَتَقْوَى اللَّهُ فِي زِيَادَةِ الرِّزْق وَفِي التَّوْفِيق للمعالي . وتناسينا أَنّ الْأَسْبَابَ مَا هِيَ إِلَّا وَسَائِل وَإِن أَرْزَاقِنَا فِي السَّمَاءِ قَدْ قَدَرْت مِنْ قِبَلِ أَقْدَامِنَا عَلَى هَذَا السَّبَبُ أَوْ غَيْرِهِ وتناسينا أَنّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ نَفْسُهَا مَا هِيَ إِلَّا رُزِقَ يُسَاق إِلَيْنَا لِيَسُوق غَيْره وركنا إِلَيْهَا وَتَعَلَّقَت بِهَا قُلُوبنَا

فَأَوَّلُ شَيْءٍ لتحقيق الْإِيمَانِ بِمَعْنَى اسْمِ اللَّهِ الرَّزَّاق : التَّوَكُّل ، أَنْ تَسْعَى فِي اتَخَاذِ الْأَسْبَاب دُون اعْتِمَادٌ عَلَيْهَا و تَعْلَم تمامًا إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ شيئًا كَان .

وَإِذَا رُزِقْت فَأَنْفَق تَزْدَد رِزْقًا . وَلَا تَعْتَمِدُ عَلَى الِادَخَار سَبَبًا فِي حِفْظِ الرِّزْق . فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يُنَافِي التَّوَكُّل أَيْضًا

رَوَى الْبَزَّارُ وَصَحَّحَه الْأَلْبَانِيّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ (أن النَبِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى بِلَالٍ وَعِنْدَهُ صُبرة مِنْ تَمْرٍ فَقَالَ ماهذا يَا بِلَالُ ؟ قَال : شَيْءٌ ادَّخَرْته لِغَد أَوْ أُعِدَّ ذَلِكَ لأضيافك قَال : أَمَا تَخْشَى أَنْ يَفُور لَهُ بُخَارٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْفَق يَا بِلَالُ وَلَا تَخْشَى مِنْ ذِي الْعَرْشِ إقلالاً)

[صححه الألباني]

صُبْرَةً مِنْ تَمْرٍ : أَي حَفْنَةً مِنْ التَّمْرِ ، أَدَّخِرُهَا سَيِدنَا بِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأضياف النَبِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَوَجْهُه النَبِيُّ إِلَى الْإِنْفَاقِ .

وَهَذَا الْمَعْنَى يَكَادُ يَكُونُ مَفْقُودٌ فِي فِي زَمَانِنَا ، زَمَن الثلاجات . يَأْتِي الْوَاحِدُ مِنَّا باحتياجات الشَّهْرَ فِي بَيْتِهِ وَيَقُول اِدَّخَر لِلزَّمَن .

بَل أَنْفَق أَخِي وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إقلالاً ، وَاتْرُك أَهْلِ الْحِرْصِ وَحِرْصَهُم ، أَلَا تَرَى الطَّيْرِ لَا تُمْلَكُ خَزَائِن لقُوتها وَلَا تَمْلِكُ ثَلَّاجاتٌ وَلَا شَيْءَ وَلَكِنْ تَغْدُو خماصًا وَتَعُود بطانًا كَما قَالَ النَبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لو أَنَّكُم تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كَما يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَعُود بطانا)

[السلسلة الصَّحِيحَة : 620]

وَقَدْ وُكِّلَ اللَّهُ مَلَكَيْنِ يَنْزِلَانِ مِنْ السَّمَاءِ أَحَدُهُمَا يَدْعُو لِكُلّ مُنْفِق وَالْآخر يَدْعُو عَلَى كُلّ مُمْسِكٌ فَيَقُول النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (ما مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانَ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ منفقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أعطِ ممسكًا تلفا) [صحيح البخاري]

وَتَأَمَّلْ فِي سُورَةِ اللَّيْل كَيْف رَبَط اللَّهُ بَيْنَ الْبُخْلِ وَالِاسْتِغْنَاءَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ فَقَال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾ يَبْخَل حِين يُحِبُّ الْمَالَ وَيَصِفُه اللَّهُ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ فَإِنَّهُ بِهَذَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ ، لِأَنَّه يَرْكَنُ إِلَى مَالِهِ وَيَرَى فِيهِ الْأَمَان وَالْمُسْتَقْبَل وَالعِزَّة فَهَلْ وُجِدَ فِي مَالِهِ مَا يُرِيدُ . . كُلَّا ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [الليل : 5]

الْفَرْقُ بَيْنَ الرَّازِق والرزاق إنّ أَجَلَ الْعُلُومِ وَأَشْرَفَهَا مَعْرِفَةِ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَحَقِيقَةُ الْإِيمَانِ تَكْمُن فِي التَّعَرُّف عَلَى اللَّهِ –عز وجل– ، وَكُلَّمَا بَذْل الْمُؤْمِن جُهْدَهُ فِي مَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ ، كُلَّمَا ازْدَادَ حباً لِلَّه وقرباً مِنْه –سبحانه وتعالى– ، [١] وَمِمَّا جَاءَ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ الْجَلِيلَيْن : كَلِمَة (الرَّزَّاق) أَبْلَغُ مِنْ كَلِمَةِ (الرَّازِقِ) لِأَنّ (الرَّزَّاق) صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ تَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ الرَزْق ، وَعَلَى كَثْرَة الْمَرْزُوق ، أَيْ إِنْ اللَّهَ رِزْقِ اللَّهِ كَثِيرٌ بِاعْتِبَارِ كَثْرَةِ الْمَرْزُوقِين ، وَكَذَلِك كَثِير بِاعْتِبَارِ كَثْرَةِ الْمَرْزُوق . [٢] مِنْ حَيْثُ اقْتِرَانُ كُلَ اسْمٍ بِغَيْرِهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ لَمْ يَقْتَرِنْ اسْمُ اللَّهِ (الرَّازِقِ) بِغَيْرِهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ ، بَيْنَمَا اقْتَرَن (الرَّزَّاق) بِاسْمِه (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ كَمَالٌ زَائِدٍ فِي الْقُوَّةِ ، حَيْث التَّنَاهِي فِي الْقُدْرَةِ ، وَالتَّنَاهِي فِي شِدَّةِ الْقُوَّة ، [٣] وتجدر الْإِشَارَةِ هُنَا أَنَّ الْأَسْمَاءَ الَّتِي تَبْدَأُ بـ (ذو) لَيْسَتْ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى عَلَى الرَّاجِح ، فَمَعْنَى ذِي الْقُوَّةِ أَيْ صَاحِبُ الْقُوَّة . [٤] مِنْ حَيْثُ اللُّغَةُ (الرَّازِقِ) فِي اللُّغَةِ اسْمٌ فَاعِلٍ ، وَهُوَ الَّذِي قدّر الْأَرْزَاق قَبْلَ خَلْقِ الْعَالَمِين وَتَكَفَّل بِهَا ، [٥]أما (الرَّزَّاق)

فَفِي اللُّغَةِ مِنْ صِيَغِ الْمُبَالَغَةِ عَلَى وَزْنِ فعّال مِنْ اسْمِ الْفَاعِلِ (الرازق) ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى تَنْفِيذ المقدّر فِي عَطَاءِ الرِّزْق . [٦] مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى قَالَ الْحَلِيمِيُّ : "الرازق مَعْنَاه الْمُفِيض عَلَى عِبَادِهِ بالأرزق الَّتِي بِهَا قوامهم ، فَلَوْلَا الْمُنْعِم – سُبْحَانَه لتنغصت لَذَّة الْحَيَاة بِتَأَخُّر الْأَرْزَاق مِنْه – عَزّ وجل– ،وَأَمَّا الرَّزَّاق : فَهُو الرَّزَّاق رِزْقًا بَعْد رِزْقٌ والمُكْثِر الْوَاسِع لها" . [٧] قَالَ الْخَطَّابِيُّ : "الرزاق هُو الْمُتَكَفل بِالرِّزْق ، وَالْقَائِم عَلَى كُلَ نَفْسٍ بِمَا يُقِيمُهَا مِنْ قُوتِهَا ، وُسْعِ الْخَلْقِ كُلُّهُمْ رِزْقه وَرَحْمَتِه ، يَسُوْقُهُ إِلَى الضعِيْفِ الذِي لَا حَيْلَ لَهُ وَلَا مُتَكَسَّب فِيْهِ كما يَسُوْقُهُ إِلَى الجَلْدِ القَوِي ذِيْ المِرَّةِ السَّوِي" . [٨] وَالرَّازِق والرزاق مِنْ أَسْمَائِهِ –سبحانه– الدَّالَّةِ عَلَى صِفَاتِ الْأَفْعَال ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ صِفَاتِ الْأَفْعَال وَصِفَات الذَّات ؛ أَنَّ صِفَاتِ الذَّاتِ لَازِمَةٌ لَهُ أبداً وأزلاً ، بَيْنَمَا صِفَاتِ الْأَفْعَال مُتَعَلَقَةٌ بِالْمَشِيئَة إِنْ شَاءَ فَعَلَهَا ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَفْعَلْهَا . [٩]

الْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ

الْحُكْم الدُّنْيَوِيَّ الْفِقْهِيّ وَالْحُكْم النَّافِذ الْعَاجِل وَالْحُكْم الْأُخْرَوِيّ الْمُؤَجَّل .

يَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَاسِ لَقَدْ كَثُرَ الْفَسَادُ وَتَحَوَّلَت الشَّرَائِعِ بَيْنَ النَاسِ إِلَى شَرِيعَة الغاب فَأَيْن اللَّهُ مِنْ كُلَ الّذِي يَحْدُثُ وَهُوَ قَدْ عَاقَب كَثِيرٍ مِنْ الْقُرَى الْفَاسِدَة وَفْق ماذكر فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ؟

فَمَن يُحْكَم الْأَرْضِ بِالْفِعْلِ اللَّهِ أَمْ البَشَرِ أَنْفُسِهم ؟

عَلَيْنَا قَبْلَ الإِجَابَةِ عَلَى هَذَيْنِ السؤالين أَنْ نَعْرِفَ مَا الْحِكْمَةُ مَنْ وُجُودِ الْبَشَرِ عَلَى الْأَرْضِ

وَمَا الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ هَلْ هُمَا معاقبين أَم مستخلفين ؟

إِنْ أَرَادَهُ اللَّهِ لِاسْتِخْلَاف بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ هِي سَابِقَةٌ لخطيئة آدَمَ وَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ الْأَرْضَ لِذَلِكَ وبالشكل الَّذِي يُمْكِنُ الْعَيْش عَلَيْهَا بِاطْمِئْنَان وَسَلَام يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30]

فَالْمَلَائِكَة تَتَحدّث هُنَا عَنْ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ وَلَمْ تَتَحَدَّثْ عَن خَطِيئَةِ آدَمَ وَمَعْصِيَتَه لِلَّه

وَهَذَا يُسْتَدَلُّ مِنْهُ أَنَّ الِاسْتِخْلَافَ سَبَق الْمَعْصِيَة وَلِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ عِلْمًا مُطْلَقًا بِأَنْ آدَمَ سَيَقَعُ فِي الْمَعْصِيَةِ وسيفشل فِي التَّجْرِبَة فَأَرَاد رَبَنَا إِنْ يَجْعَلَهَا يَقِينًا لَهُ وَصَارَتْ الْأُمُورِ إِلَى إِخْرَاجِ آدَم مِنْ الْجَنَّةِ وهبوطه لِلْأَرْض بِصِفَتِه خَلِيفَة لِلَّهِ فِيهَا .

أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْخَلِيفَة هُوَ خَلِيفَةُ اللّه و نَائِبُه عَلَى ظَهْرِ الْأَرْض ، كَما ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُحَقِقِينَ . ثُمَ إِنَّ الْأَمْرَ الْمُسْلِم بِهِ بَيْنَ الْمُفَسرِينَ و الْمُحَقِقِين هُوَ خِلَافُهُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ وَ الَّذِي أَكَّدْتُه الْآيَات و الرَوَايَات الْكَثِيرَة ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : "هُوَ الَّذي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْض .

فَبَنُو آدَم هُم خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسُوا منفيين مِنْ الْجَنَّةِ إِلَيْهَا بِسَبَبِ خَطِيئَةِ أَبَاهُم آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

مَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ وَكَيّ لَا يُنْسَى بَنِي آدَمَ حَقِيقَة وُجُودِهِم وَخَالِقُهُم أَرْسَلَ اللَّهُ لَهُمْ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ليبينوا لَهُم والتبرير لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : 165]

ثُمَّ أَرْسَلَ لَهُمْ اللَّهُ الشَّرَائِع والمناهج لِتَحْكُم بَيْنَهُم ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ ﴾ [المائدة : 48] وَجَعَلَ لَهُمْ دَيْنًا وَاحِدًا هُوَ الْإِسْلَامُ : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : 85]

ثُمَّ أَرْسَلَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ لتوضح لِلنَّاس مَنْهَج اللَّه وَشَرِيعَته وَجَعَلَهَا فِي ثَلَاثٍ كُتُب سَمَاوِيَّة

التَّوْرَاة لِلْيَهُود وَالْإِنْجِيل لِلنَّصَارَى وَالْقُرْآن لِلْإِسْلَام وَلِلْجَمِيع مُصَحَّحًا وَمُهَيْمِنًا ومحفوظا لِأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا كِتَاب بَعْدَ الْقُرْآنِ فأكتمل بِذَلِك دِينِ اللَّهِ لِلنَّاسِ .

الْآن أَصْبَح جَوَابُنَا عَلَى سُؤَالِ مَنْ يَحْكُمُ الْأَرْضِ بِالْفِعْلِ اللَّهِ أَمْ البَشَرِ أَنْفُسِهِم مُمْكِنًا وَمُفَصَّلًا

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُحْكَمُ بَيْنَ الْعِبَادِ وَلَيْس الْبَشَر قَوْلًا وَفِعْلًا وَفَرْضٌ عَلَى النَّاسِ عَلَيْهِمْ هَذَا الْحُكْمِ لِيَعْمَلُوا بِهِ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا بِهِ وسنرى أَسْبَابِ ذَلِكَ .

حُكْمُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا

وَيُقْسَم إِلَى فَرَعَيْن حُكْمُه بِشَرَائِعِه ومنهجه وَحُكْمُه النَّافِذ بِبَعْض الْأَقْوَام

حُكْمُ اللَّهِ بِشَرَائِعِه ومنهجه

الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾

[البقرة : 213]

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : 44]

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

[المائدة : 45]

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : 47]

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء : 105]

وَهَذِهِ الْآيَاتُ تُفِيدُ أَنَّ لِلْيَهُود وَلِلنَّصَارَى وَالْمُسْلِمِين لِكُلٍّ مِنْهُمْ كِتَابًا خَاصًّا بِهِم لِيَحْكُمُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَهُوَ فِيهِ أَحْكَامُ اللَّهِ مُفَصَّلَة تَفْصِيلًا وَهُم مُلْزَمُون بِالرُّجُوع و التَّحَاكُم بِهَا بَلْ الَّذِي لَا يُحْكَمُ بِهَا هُمْ الْفَاسِقُونَ وَالْكَافِرُون وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكُلّ ماذكر أَعْلَاه يَتَعَلَّقُ بِالْحُكْمِ الْفِقْهِيّ القضائي .

الْحُكْم النَّافِذ الْعَاجِل

وَهُنَاك حُكْمُ اللَّهِ النَّافِذ الْعَاجِل فِي عَدَدٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ فِي أَقْوَامْ وَقُرَى وممالك فَاسِدَةٌ مُضِلَّة كَافِرَة فَاسِقَة وَقَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْكَثِيرِ مِنْ هَذِهِ الْقُرَى وَمَنْ ذَلِكَ :

الْأَقْوَام البائدة الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ السُّوُرِ وَالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّة هُم :

قَوْم نُوحٍ وَكَانَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ هُوَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قَوْمٌ عَاد وَالنَّبِيّ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ هُوَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قَوْمٌ ثَمُود وَالنَّبِيّ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ هُوَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قَوْمٌ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قَوْمٌ سَيِّدِنَا لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قَوْمٌ مُدَّيْن وَالنَّبِيّ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ هُوَ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قَوْم فِرْعَوْنَ .

قَوْمٌ تَبِعٍ

وَكَذَلِك حَلّ الْعِقَاب بِالَّذِين قَال عَنْهُم اللَّه أَكَابِر الْمُجْرِمِين وَلَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا) [سورة الْإِنْعَام : 123]

قَالَ تَعَالَى : وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا الْآيَة [سورة الْإِسْرَاء : 16

حُكْمُ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ

أَوْ الْحُكْمُ الْأُخْرَوِيُّ الْمُؤَجَّل

وَهُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ يَوْمَئِذ يُحَاكِم وَيُحَاسَب اللَّهُ الْعِبَادَ وَيَقُولُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : 42]

﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [الأعراف : 87]

﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة : 3]

وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ جِدًّا الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيم .

الْحُكْم الرَّبَّانِيّ الْفَوْرِيّ

أَمَّا الَّذِي يُرِيدُ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَصْدُرَ أَحْكَامًا فَوْرِيًّا عَلَى الْبَشَرِ فَيُحَاسَب الْمُسِي وَيُعَاقَب الْمُجْرِم الشَرِير فَهَذَا أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُهُ لِعِدَّة أَسْبَاب مِنْهَا :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثَ هُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ .

أَن محاسبو كُلَ مُذْنِبٍ وَكُلّ مَسّي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَعَلَى الْفَوْر تَنْفِي حُرِيَّةَ الاخْتِيَارِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ إِذْ أَنَّهُ سَيَقَعُ الخَوْف وَالرُّعْبِ فِي قُلُوبِ النَاسِ خَوْفًا مِنْ الْعِقَابِ مِمَّا يَدْفَعُهُم لِلْإِيمَان قَسْرًا وَلَيْس يقناعة وَرِضَا

يَقُول الْمَوْلَى الْقَدِير :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : 61]

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف : 58]

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر : 45]

﴿ ثُمَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام : 62]

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة : 6]

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : 24]

أَن " الْحَوْل بَيْنَ الشَّيْءِ وَالشَّيْءِ " ، إِنَّمَا هُوَ الْحَجْزُ بَيْنَهُمَا , وَإِذَا حَجَز جَلَّ ثَنَاؤُهُ بَيْنَ عَبْدٍ وَقَلْبُهُ فِي شَيْءٍ إِنْ يُدْرِكَهُ أَوْ يَفْهَمَهُ , لَمْ يَكُنْ لِلْعَبْد إِلَى إِدْرَاكِ مَا قَدْ مُنِعَ اللَّهُ قلبَه إدراكَه سبيلٌ .

مَا رَوَاهُ أَنَسٌ قَالَ : كَانَ النَبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك ، قَالَ أَنَسٌ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِك ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَهَل تَخَاف عَلَيْنَا ؟ - فَقَال : نَعَم ، أَنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّه يُقَلِّبُهَا [رواه التِّرْمِذِيّ : 2140 ، وَأَحْمَد : 12128 ، وَصَحَّحه الْأَلْبَانِيّ فِي مِشْكَاةِ الْمَصَابِيح : 102] .

وَهُنَاك آيَة كَرِيمَة تُفِيد نَفْس الْمَعْنَى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عِمْرَان : 8]

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْله : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ .

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : أَنّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ : آمَنَّا بِمَا تَشَابَهَ مِنَ أَيِّ كِتَابُ اللَّهِ ، وَأَنَّه وَالْمُحْكَم مِنْ آيَةٍ مِنْ تنزيل رَبَّنَا وَوَحْيُه . وَيَقُولُون أيضًا : " رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا " ، يَعْنِي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ = رغبةً مِنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ فِي أَنَّ يَصْرِفَ عَنْهُمْ مَا ابْتَلَى بِهِ الَّذِينَ زَاغَت قُلُوبِهِمْ مِنْ اتِّبَاعِ مُتَشَابِه أَيْ الْقُرْآن ، ابتغاءَ الْفِتْنَة وابتغاءَ تَأْوِيلِه الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غيرُ اللَّه = : يَا رَبَّنَا ، لَا تَجْعَلَنَا مِثْلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَاغَت قُلُوبُهُمْ عَنِ الْحَقِّ فصدوا عَنْ سَبِيلِك =" لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا " ، لَا تملها فتصرفها عَن هُدَاك بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا لَهُ ، فوفقتنا لِلْإِيمَان بِمُحْكَم كِتَابِك وَمُتَشَابِهُه =" وَهَبْ لَنَا " يَا رَبَّنَا =" مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً " ، يَعْنِي : مِنْ عِنْدِكَ رَحِمَه ، يَعْنِي بِذَلِكَ : هَبْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ توفيقًا وثباتًا لِلَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِقْرَارِ

بِمُحْكَم كِتَابِك وَمُتَشَابِهُه =" إِنَّك أنتَ الْوَهَّاب " ، يَعْنِي : إِنَّك أَنْتَ الْمُعْطِي عِبَادِك التوفيقَ والسدادَ لِلثَّبَات عَلَى دِينِك ، وَتَصْدِيق كِتَابِك ورسلك .

الْقَلْب الْمُؤْمِن يُدْرِك قِيمَة الِاهْتِدَاء بَعْدَ الضَّلَال . قِيمَة الرُّؤْيَة الْوَاضِحَة بَعْد الْغَبَش . قِيمَة الِاسْتِقَامَة عَلَى الدَّرْب بَعْد الْحِيرَة . قِيمَة الطُّمَأْنِينَة لِلْحَقّ بَعْد الأرجحة . قِيمَة التَّحَرُّر مِنْ الْعُبُودِيَّة لِلْعَبِيد بِالْعُبُودِيَّة لِلَّهِ وَحْدَهُ .

قِيمَة الاهتمامات الرَّفِيعَة الْكَبِيرَة بَعْد اللَّهْو بالاهتمامات الصَّغِيرَة الْحَقِيرَة . . وَيُدْرِك إِنَّ اللَّهَ مَنَحَه بِالْإِيمَان كُلُّ هَذَا الزَّاد . . وَمِنْ ثَمَّ يُشْفَق مِن الْعَوْدَة إِلَى الضَّلَال ، كَما يُشْفَق السَّائِر فِي الدَّرْب الْمُسْتَقِيم الْمُنِير أَنْ يَعُودَ إِلَى التَّخَبُّط فِي المنعرجات الْمُظْلِمَة . وَكَما يُشْفَق مِن ذَاق نِدَاؤُه الظَّلَال أَنْ يَعُودَ إِلَى الْهَجِير القائظ والشواظ ! وَفِي بَشَاشَة الْإِيمَان حَلَاوَة لَا يُدْرِكُها إِلَّا مِنْ ذَاق جَفَاف الْإِلْحَاد وشقاوته المريرة . وَفِي طُمَأْنِينَة الْإِيمَان حَلَاوَة لَا يُدْرِكُها إِلَّا مِنْ ذَاق شِقْوَة الشُّرُود وَالضَّلَال وَمِنْ ثَمَّ يُتَّجه الْمُؤْمِنُون إِلَى رَبِّهِمْ بِذَلِكَ الدُّعَاءُ الْخَاشِع : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا . .

كِتَابٍ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : 14]

﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 29] ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ الْكَهف 49

﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس : 21]

مِنْ أَقْوَى وَأَغْرَب وَأَصْعُب الْمَوَاقِفُ الَّتِي سيراها الْإِنْسَان هِي مَوْقِفه يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ذَلِكَ الْمَشْهَد الْعَظِيم تَرَى كُلّ إِنْسَانٍ مَشْغُولٌ بِنَفْسِه حَيْرَان فَيُنَادَى عَلَيْهِ وَيَسْلَمُ كِتَابًا وَيُقُولُوا لَهُ هَذَا كِتَابك اِنْتَظِرْ دَوْرَكَ لِلْحِسَاب .

الْمُفَاجَأَة الصَّاعِقَة لَهُ حِينَمَا يَتَصَفَّح كِتَابه فَيَصْعَق (وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) .

وَوَجَد كُلّ حَيَاتِه مُسَجَّلَة عَلَى شَرِيط فِيدْيُو مِنْ يَوْمِ خَلَقَ إِلَى يَوْمِ وَفَاتِهِ حَاضِرًا أَمَامَ عَيْنَيْهِ

(وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) .

يَقُولُوا لَهُ : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

وَإِن رُسُلُ اللَّهِ كَانُوا (إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

وَتَكُون الضَّرْبَة الْقَاضِيَة حِينَمَا يُسْمِعُهُم وَهُمْ يَقُولُونَ (﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وَسَبَبُ هَذِهِ الصَّدْمَة الْعَنِيفَة الَّتِي تُصِيبُ النَّاس هِي غَفْلَتِهِم وَاعْتِقَادِهِم ونسيانهم إِنَّ اللَّهَ جَلا وَعَلَا كَانَ حَقًّا يَرَاهُم وَكَانَ حَقًّا يستنسخ أَعْمَالِهِم وَأَفْعَالِهِم ويراقبهم وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِقْدَارُ ذَرَّةٍ فِي الْكَوْنِ كُلُّه .

فَكُلّ الَّذِي فَعَلُوهُ وعملوه مُثْبِتٌ بِالصَّوْت وَالصُّورَة وَالْحَرَكَات لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ بَلْ هُنَاكَ مُفَاجَأَة أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ فِي انْتِظَارِهِمْ وَهِي الشُّهُود وَمِنْ هَؤُلَاءِ الشُّهُودَ (﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24]

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَالسَّاعَة حَتَّى اللِّسَان وَالْأَيْدِي وَالْأَرْجُل سَتَكُون شَاهِدًا عَلَيْنَا وستبرأ مِنَّا وَتَبَرَّأ نَفْسِهَا بَلْ حَتَّى إِبْلِيسُ اللَّعِينُ نَفْسِه سيتبرأ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وأشركوا (﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 22]

تَصَوَّرُوا إِنَّ الشَّيْطَانَ نَفْسه يَقُولُ لَهُمْ الْحَقِيقَة وَاضِحَةٌ بِأَنَّهُم يَسْتَحِقُّوا الْعَذَابَ وَإِنَّ الظَّالِمِين لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . . ومتر سيعلن اعْتِرَافِه لَهُمْ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ وَانْتَهَى كُلَ شَيْءٍ .

هَذِه الْمُشَاهَد وَالْأَحْدَاث لَيْسَتْ مِنْ مَسْرَحِيَّة أَو فِيلْم أَو ابْتَدَعَهَا خَيَالٌ كَاتِب بَلْ هِيَ مُشَاهَدٌ وَاقِعَةٌ وَحَادِثَة فِي عِلْمِ اللَّهِ الْمُطْلَق وَيُخْبِرُنَا بِهَا وَكَأَنَّهَا نَقَل مُبَاشِرٌ لِحَدَث وَقَع الْيَوْم .

لَكِنْ فِي زَمَنٍ مَا لَا بُدَّ أَنْ نَرَاهَا مجسدة كَمَا سَمِعْنَا بِهَا وَأَخْبَرَنَا عَنْهَا مَوْلَانَا الْقَدِير .

إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ

﴿ يَا أَيُّهَا النَاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : 1] ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : 2]

أَنَّ فِي هَذَا الْخِطَابُ الْإِلَهِيّ لِلنَّاسِ فِيهِ الْكَثِيرُ وَالْكَثِيرُ مِنْ الرَّأْفِةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحِلْم الرَّبَّانِيّ خِطَابَ فِيهِ تَنْبِيهٌ لِلنَّاس وَخَوْفًا عَلَيْهِمْ فِيهِ تَحْذِير وَتَنْبِيهٌ وتوعية وَأَخَذَ عِلْمَ وَاطَلَاع فَالْأَمْر عَظِيمٌ وجلل لَا يَتَخَيَّلُه عَقْل إِنْسَانٌ وَلَا يَتَصَوَّرَه كَائِنٌ مِنْ كَانَ .

يُعْطِينِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصْفًا حَيًّا لِمَا سَيَحْدُث وَمَا سنراه وَهُوَ فِي عِلْمِ اللَّهِ كَائِنٌ وَحَاضِرٌ يَوْمَ تَقَعُ الْوَاقِعَة سَيَكُون هُنَاك ذُهُولًا صاعقا لِدَرَجَة أَنْ تَتْرُكَ كُلُّ مُرْضِعَةٍ سَوَاءٌ أَكَانَتْ مِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ أَوْ الْحَيَوَانِ ستترك رَضِيعَهَا وَنَفَر لَا تَدْرِي إِلَى أَيْنَ وستضع كُلّ ذَاتِ حَمْلٍ إِنْسِيّةٌ أَم جُنَيْه أَم حَيَوَانِيَّةٌ حَمْلَهَا وَتَرَى النَاسَ يَهِيمُون يَمْنَة وَشِمَالًا كالسكارى لَكِنَّهُم سُكَارَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْرَبُوا مُسْكِرًا يسكرهم كُلُّ ذَلِكَ سَبَبُهُ أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدُ وَقَدْ وَقَعَتْ الْوَاقِعَة وَوَصَل التَّارِيخ اليشري إِلَى نِهَايَتِه وَانْتَهَت مُدَّة خِلَافَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَالْحُكْمُ الْيَوْمَ لِلَّهِ وَالْبَقَاءُ وَالْمِلْك لِلْوَاحِد الْقَهَّار .

مُشَاهَدْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ

عِبَادِ اللَّهِ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلًا قَال : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! كَيف يُحْشَر الْكَافِر عَلَى وَجْهِهِ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قادرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ، قَالَ قَتَادَةُ وَهُوَ أَحَدُ رُوَاةِ الْحَدِيثِ : بَلَى وَعِزَّةِ رَبَنَا " . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . إِنَّ شَرَّ

مِنْ يُحْشَر يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ مِنْ يُحْشَر عَلَى وَجْهِهِ ، ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ .

وَالْعِبَاد يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُبْعَثُونَ عَلَى مَا مَاتُوا عَلَيْهِ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (يبعث كُلّ عبدٍ عَلَى مَا مَاتَ عليه) رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، أَي : عَلَى الْحَالِ الَّتِي مَاتَ عَلَيْهَا مِنْ إيمانٍ أَو كفرٍ أَو يقينٍ أَو شكٍ أَو عملٍ صالحٍ أَوْ فَاسِدٌ ، فَالَّذِي يَمُوتُ وَهُوَ مُحْرِمٌ ، يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُحْرِمًا ، وَمَنْ قُتِلَ أَوْ مَاتَ شهيدًا يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ جرحٌ يَثْعَب دمًا ، عَلَامَةٌ اِفْتِخَارٌ بَيْن الْخَلَائِق ، اللَّوْنُ لَوْنُ دمٍ وَالرِيحُ رِيحُ مِسْكٍ .

فَالنَاس يَوْمَ الْقِيَامَةِ يجنون مَا قَدَّمُوهُ لاسيما مَا يَكُونُ فِي آخِرِ أَعْمَارَهُم كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيم » .

وَمَنْ أَحَبَّ قومًا حُشِرَ مَعَهُمْ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَهْلِ الضَّلالَةِ وَالْفَسَاد حُشِرَ مَعَهُمْ ، وَمَنْ أَحَبَّ الْعُلَمَاءَ وَالْأَتْقِيَاء حُشِرَ مَعَهُمْ . ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ ، يَعْنِي : أَتْبَاعِهِم ، وَأَشْبَاهِهِم ، وَالَّذِين عَمِلُوا بِأَعْمَالِهِم الْبَاطِلَة . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ . تَفْسِيرِ الطَّبَرِيَ 19/519

عِبَادِ اللَّهِ : مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ اللَّهَ الْقَوِيّ يُكَلِم عَبْدِه الضَّعِيف ، وَالْعَزِيز يُكَلِم عَبْدِه الذَّلِيل ، وَالْغَنِيّ يُكَلِم عَبْدِه الْفَقِير ، يَقُولُ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "ما مِنْكُم مِنْ أحدٍ إِلَّا سَيُكَلِمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُر أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ ،

وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طيبة" . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

وَمِنْ الْأُمُورِ الَّتِي يهول لَهَا الْإِنْسَان ، وَيَشْتَدّ الْأَمْر عَلَيْهِ بِهَا إِنْ مَنْ الْعِبَادِ مِنْ لَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَيُعَذِّبُهُم بِأَنْ يَصْرِفَ وَجْهَهُ الْكَرِيم عَنْهُم : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ فَعَنْ أَبِي ذَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عذابٌ عَظِيمٌ ، قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَنْ هُمْ خَابُوا وَخَسِرُوا ؟ قَال : فَأَعَادَهَا رَسُولُ اللَّهِ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ : الْمُسْبِل ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ ، وَالْمَنَّان ﴾ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَتَدْنُو الشَّمْسُ مِنْ الْخَلَائِقِ قَدْرَ مِيلٍ فَفِي حَدِيثِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ﴿ أَنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ ، قَال سُلِيم بْنِ عَامِرٍ – وَهُوَ الَّذِي يَرْوِي عَنْ المقداد– وَاَللَّهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ : أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ ؟ أَوْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْحَلُ بِهِ الْعَيْنُ ؟ قَال : فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَرَقُهُ إِلَى كَعْبَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَرَقُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَرَقُهُ إِلَى حقويه– أَي : مِشَدّ الْإِزَارِ عِنْدَ الخصر– وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلجامًا ، وَأَشَارَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ إِلَى فِيه ﴾ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَيَقِف النَّاس ويحشرون حفاةً عراةً غرلًا ، حَتَّى مَا قُطِعَ مِنْ الْإِنْسَانِ فِي خِتَانُه سَيَعُود عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى ، فَعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ يُحْشَرُ النَّاسُ حفاةً عراةً غرلًا ، فَقُلْت : الرِّجَال وَالنِّسَاءِ جميعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟ ! فَقَال : الْأَمْر أشدُّ مِنْ أَنَّ يُهِمَّهُمْ ذَلِكَ ﴾ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ، والأغرل هُو : الْأَقْلَف .

وَالنَّاسُ فِي الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَقْسَام فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ حِسَابه بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ عسيرًا ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْكَفَرَة الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاَللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سلطانًا ، وَكَذَبُوا الْمُرْسَلِين ، وَكَذَلِك عَصَاه الْمُوَحدِين قَدْ يَطُولُ حِسَابُهُم وَيَعْسُر بِسَبَب ظُلْمِهِم وعِظم ذُنُوبِهِم .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلا سَابِقَةَ عَذَابٍ ، أَسْأَلُ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَفَضْلِه الَّذِي لَا يَضِيقُ بِه ذُنُوب خَلْقِه ، أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُم .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُحَاسَب حسابًا يسيرًا ، وَهَؤُلَاءِ لَا يناقشون الْحِسَاب وَلَا يُدَقّق مَعَهُمْ وَلَا يُحَقّق مَعَهُم ، وَإِنَّمَا تَعَرَّضَ ذُنُوبِهِم عرضًا ، ثُمّ يَتَجَاوَز الْجَبَّارَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ ، فَعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لَيْس أحدٌ يُحَاسَب يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضَ ، وَلَيْس أحدٌ يُنَاقَش الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هلك" . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْرِض ذُنُوب الْعَبْدِ عَلَيْهِ ، فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " إِنَّ اللَّهَ يُدني الْمُؤْمِن فَيَضَع عَلَيْه كَنَفه وَيَسْتُرُه ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِعَبْدِه الْمُؤْمِن : أَتَعْرِف ذَنْب كَذَا ؟ أَتَعْرِف ذَنْب كَذَا ؟ فَيَقُول : نَعَمْ أَيْ رَبَ ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَه بِذُنُوبِه ، وَرَأَى الْعَبْدُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، قَال : سَتَرْتُهَا عَلَيْك فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَك الْيَوْمَ ، فَيُعْطَى كِتَاب حَسَنَاتِه ، وَأَمَّا الْكَافِرُون وَالْمُنَافِقُون فَيَقُول الْإِشْهَاد : ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ . كَنَفه : سُتْرَةٌ وَرَحْمَتِه .

وَيَبْلُغ الْأَمْر أَشُدَّه ، وَالْمُخَاصَمَة ذِرْوَتِهَا عِنْدَمَا يُخَاصِم الْعَبْد وَيَشْهَدُ عَلَيْهِ أَعْضَاؤُه ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

الأَمَان وَالاِطْمِئْنَان ثُمّ الْكُفْر وَالْحِرْمَان

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112]

تَأَمَّلْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فكفرت بِأَنْعُم اللَّه فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] .

1/ هَذَا مُجَرَّدُ مِثَالٍ كَمَا لَا نَفْهَمُ أَنَّهَا مَكَّةَ كَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْمُفَسِرِينَ أَوْ غَيْرِهَا فَهَذَا مُجَرَّد مِثَال فلنتنبه ، وَلَوْ كَانَتْ لِقَرْيَة مُعَيَّنَة فَلَيْسَتْ هِيَ مَكَّةُ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَصَفْت بِأَنَّهَا كَافِرَة إذ كَفَّرَت بِأَنْعَم اللَّه ، وَمَكَّة

أَحبّ أَرْض اللهِ إِلَى اللَّهِ لَمْ يَصِفْهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِصِفَة مشينة ، أَلَا تَرَى كَيْفَ نَزِّهْ مَكَّةَ عَنْ وَصْفِهَا بِالظُّلْم فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَان الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا . . . ﴾ فَلَمْ يَأْتِ النَّصّ "ربنا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظالمة" .

2/ ﴿ قَرْيَة ﴾ بَدَلٌ مِنْ (مثلا) ، وَهِيَ مَكَانُ اجْتِمَاعِ النَّاسِ ، (دولة أَوْ مَدِينَةٍ أَوْ ضاحية) كُلُّهَا بِمَعْنَى قَرْيَة .

3/ هَذِهِ الْآيَةِ تَمر بِثَلَاثِ مَرَاحِلَ : الْمَرْحَلَةِ الأولَى مِنْ اللَّهِ – الثَّانِيَةِ مِنْ إِنْسَانِ الْقَرْيَة – الثَّالِثَةِ مِنْ اللَّهِ .

الْمَرْحَلَةِ الأولَى : ثَلَاث نَعَمْ مَنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْقَرْيَةِ 1/ آمِنَة 2/ مُطْمَئِنَّةٌ 3/ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَان .

4/ [الأمن خَارِجِيّ – وَالطُّمَأْنِينَة داخلية] فَجَمَعَ بَيْنَ نِعْمَتَيْنِ فِي الْأَمْنِ : النِّعْمَة الْخَارِجِيَّة وَالنِّعْمَة الدَّاخِلِيَّة .

5/ ﴿ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾ لِمَاذَا قَدَّمَ ذِكْر الْأَمْنِ عَلَى الطُّمَأْنِينَة ؟ ؛ لِأَنَّهُ لَا طُمَأْنِينَةٌ دُونَ الْأَمْنِ ، فَالْأَمْن أَوَّلًا ثُمَّ الطُّمَأْنِينَةُ .

6/ لَوْ ذَكَرْتْ الطُّمَأْنِينَة وَحْدَهَا لتضمنت مَعْنَى الْأَمْن ، فَلِمَاذَا ذَكَر الْأَمْنُ أَيْضًا ؟

ذَكَر الْأَمْنُ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ تَفْصِيلٌ لِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَلَيْسَ مَقَامَ اخْتِصَار .

7/ ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ لِلْفِعْل الْمُضَارِع ﴿ يَأْتِيهَا ﴾ الرِّزْق يَأْتِيهَا دُونَ أَنْ تَمْشِيَ إِلَيْه ، وَحَال هَذِهِ الْقَرْيَةِ مِثْلَ حَالِ مَكَّة ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ . . . أَوَلَم نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلَ شَيْءٍ ﴾ .

8/ جَاء التَّعْبِيرُ فِي وَصْفِ حَالَةِ الْأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَة بِالِاسْم ﴿ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾ وَلَمْ يَأْتِ النَص بِالْفِعْل "أمنت واطمأنت" ؛ لِأَنَّ الِاسْمَ يَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ الْأَمْن وَالطُّمَأْنِينَة فَهُوَ لَيْسَ أَمِنْ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ بَلْ عَلَى الدَّوَامِ

9/ جَاء التَّعْبِيرِ عَنْ الرِّزْق بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿ يَأْتِيهَا ﴾ لِدَلَالَة الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ عَلَى التَّجَدُّدِ ؛ لِأَنَّ إِتْيَانَ الْحُصُولِ عَلَى الرِّزْقِ مُتَجَدِّدٌ فِي كُلَ يَوْمٍ وَكُلّ سَاعَة .

10/ ﴿ رِزْقُهَا ﴾ وَلَمْ يَأْتِ النَص "يأتيها رِزْقٌ الله" ؟ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ وَصْفٌ للامتيازات والاختصاصات الَّتِي وَقَعَتْ لِهَذِه الْقَرْيَة ، فَهُو رِزْقٌ مُحَدَّد فِي تِلْكَ الْبِلَادِ قَبْلَ وُصُولِهِ لِتِلْك الْقَرْيَة ، مَعَ التَّنْبِيهِ إِلَّا أَنْ الرِّزْقَ يُجَهَز فِي تِلْكَ الْبِلَادِ لِتِلْك الْقَرْيَة .

11/ ﴿ رغدًا ﴾ وَاسِعَة وَطِيبه , فَلَيْس رِزْقًا كَثِيرًا وَحَسَب ، بَل رِزْقٌ طَيِّب يُرْسِل لِتِلْك الْقَرْيَة الرَّغِيد وَيَبْقَى لِأَوْلَادِهِم الْمُعَفَّن .

12/ ﴿ كُلَ مَكَان ﴾ عُمُوم مَخْصُوص .

الْمَرْحَلَة الثَّانِيَة : ﴿ فكفرت بِأَنْعُم اللَّه ﴾ ولكفر النِّعْمَة صُوَرٍ شَتَّى مِنْهَا الشِّرْك وَالْمَعَاصِي , وَالظُّلْم , وَالتَّبْذِير .

13/ ﴿ أَنْعَم ﴾ جَمْعُ قِلَّةٍ ، وَلَكِن لِمَاذَا جَاء التَّعْبِير بِجَمْعِ الْقِلَّةِ ، أَلَيْس التَّعْبِير بِجِنْس النَعَم أَعْظَمُ فِي بَيَانِ جَرَم هَذِهِ الْقَرْيَةِ ؟ لِلتَّنْبِيه بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى ، فَإِذَا كَانَ كُفْرَانُ النَعَم الْقَلِيلَة مُوجِبًا لِلْعَذَاب ، فكفران النَعَم الْكَثِيرَة أَوْلَى بِإِيجَاب الْعَذَاب , وَهَذِه الْقَرْيَة عَلَى مَا أُوتِيت مِنْ نِعَم فَإِنَّهَا لَمْ تُوت إِلَّا جَزَاءً يَسِيرًا مِنْ نِعَم اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، لِأَنَّ الْأَمْنَ وَالطُّمَأْنِينَة وَرَغَد الْعَيْش بَعْض نِعَم اللَّهِ .

الْمَرْحَلَة الثَّالِثَة : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ جَازَى اللَّه – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – هَذِهِ الْقَرْيَة عَلَى كُفْرِهَا بِأنعمه بِأَن عذبها فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِالْجُوع بَعْد رَغَدَ الْعَيْش ، وبالخوف بَعْد الْأَمْن وَالطُّمَأْنِينَة .

14/ ﴿ فَأَذَاقَهَا ﴾ الذَّوْق وُجُود الطَّعْم بِالْفَم ، وَاسْتَعْمَلَ فِي الْعَذَاب بِكَثْرَة ، وَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَال قَوْله تَعَالَى ﴿ ذُقْ إِنَّك أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ ، وَاسْتَعْمَلَ فِي الرَّحْمَةِ أَيْضًا ﴿ وَلَئِن أذقناه نَعْمَاء بَعْد ضَرَّاء مَسَّتْه . . . ﴾ .

15/ فِي النَعَم قَدِم الْأَمْن لِأَنَّهُ أَهَمُّ وَهُنَا قَدِم الْجُوع , وَعَلَى التَّرْتِيب الْعَادِي يُقَدَّم الْخَوْفِ عَلَى الْجُوعِ فَلِمَاذَا قَدِم الْجُوع ؟ ﴿ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ ؛ لِأَنّ الْجُوع أَعْظَمُ عَذَابًا ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعِيشُ فِي خَوْفِ الْحُرُوب سِنِين وَلَكِنَّه بَل يَصْنَع الْخَوْفِ مِنْهُ شُجَاعًا , وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ دُونَ طَعَامٍ أَكْثَر مِنْ بِضْعَةَ أَيَّامٍ ، وَلِذَا مَنْ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ بِالْإِطْعَام أَوَّلًا ثُمَّ بِالْأَمَان ثَانِيًا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ .

16/ لَوْ قَدَّرْنَا بِالْعَقْل لَقُلْنَا صَاحِبُ الْمَالِ يَخَافُ عَلَى مَالِه فَهُنَاك شَيْءٌ يَخَافُ عَلَيْهِ , أَمَّا الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ فَلَا يَخَافُ عَلَى شَيْءٍ , وَالسُّؤَال أَنَّ فِي الْآيَةِ أَنَّ صَاحِبَ الْأَرْزَاق لَا يَخَافُ , بَل آمَن مُطْمَئِنٌّ ,

وَصَاحِب الْفَقْر وَالْجُوع الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ خَائِفٌ جَائِع ؟ وَالْجَوَاب : أَنَّ الْوَاقِعَ فِي الدُّوَلِ الْمُجَاوِرَة لَنَا يَشْهَدُ بِمَا فِي الْآيَةِ , ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ عُقُوبَة وَهَذِهِ نِعْمَة فَتَأَمَّل .

/ وَجَاء التَّعْبِير بِالذَّوْق عَنِ الإِحْسَاسِ بِالْعَذَاب مِنْ بَابِ التَّعْبِيرِ عَنْ شِدَّة مَا يَجِدُونَ مِنْ الْأَلَم ؛ فالتذوق لِلنِّعْمَة زِيَادَةً فِي التَّنَعُّم ، والتذوق لِلْعَذَاب زِيَادَةً فِي الْأَلَم .

18/ ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ مَا أَصَابَ الْقَرْيَةِ مِنْ جُوعٍ وَخَوْف كَانَ مُلَازِمًا لَهَا فِي كُلِّ أَوْقَاتِهَا ، فَلَيْس الْجُوعِ وَالْخَوْفِ فِي أَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ ثُمَّ يَذْهَبَان ثُمّ يَعُودَان ، بَلْ هُوَ جُوع وَخَوْف مُلَازِمَان لُزُوم اللِّبَاس لِلَابِسِه .

كَمَا بَدَأَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ مِنْ شدتهما يَظْهَرَان عَلَى الْوُجُوهِ وَالْأَجْسَام ، وَكُلُّنَا يُعْرَف عَلَامَات الْجُوع مِنْ الشُّحُوبِ والنحول ، وَعَلَامَات الْخَوْفِ مِنْ الذُّهُول وَضَعْف الْبَدَن وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الْعَلَامَاتِ الَّتِي تَظْهَرُ عَلَى الْخَائِفِ وَالْجَائِع ، وَجَاء التَّعْبِير عَنْ ظُهُور هَذِهِ الْعَلَامَاتُ بِاللِّبَاس لِأَنَّ هَذِهِ الْعَلَامَاتُ أَصْبَحْت ظَاهِرَةٌ عَلَيْهِمْ ظُهُور اللِّبَاس , وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا الْخَوْفُ وَالْجُوعِ مُحِيط بِهِم مُتَمَكِّنٌ مِنْ أَجْسَادُهُم إِحَاطَة اللِّبَاس بِاللَّابِس .

19/ قَد يَسْأَلْ سَائِلٌ هَل يُذَاق اللِّبَاس ، وَلِمَاذَا لَمْ يَأْتِ النَصّ : "فأذاقها اللَّه طَعْمٌ الْجُوع والخوف" أَو "فكساها اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ والخوف" ؟ ! كَلِمَة اللِّبَاس فِي الْآيَةِ تَعْنِي الْجُوعِ وَالْخَوْفِ الشَّدِيدَيْن , وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ الرَّاوَنْدِيَ الْمُلْحِد أَرَادَ الطَّعْنَ بِالْقُرْآنِ فَقَالَ لِابْن الْأَعْرَابِيّ الْأَدِيب : هَل يُذَاق اللِّبَاس ؟ فَقَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيَ : هَب إِنَّكَ تَشُكُّ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَبِيّا أَوْ مَا كَانَ عَرَبِيًّا ؟

20/ جَاء التَّعْبِير بـ ﴿ يَصْنَعُون ﴾ وَلَيْس "يعملون" ؛ لِأَنّ الصُّنْع هُوَ عَمَلُ وَزِيَادَةٌ ، وَالزِّيَادَة هِي الإجادة والتفنن فِي الْعَمَلِ ، فَهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا فِي كُفْرِهِمْ بِالنِّعْمَة عَمَلًا بَلْ صَنَعُوه صِنَاعَة ، فَهُمْ أَصْحَابُ حَذاقَةٌ وَخَبَرُه ، يتفننون فِي أَلْوَان كَفَرَ النِّعْمَةَ تَفَنُّنًا ، ويخترعون صُوَرًا لِذَلِكَ لَا تَخْطُر عَلَى بَال .

أَهْلَ الْبَيْتِ وَآل الْبَيْت وَالذّرّيّة

بالعودة إِلَى كُتُب اللُّغَةِ وَالْبَلَاغَة ، نَجِد أنّ كَلِمَة (أهل) تَعْنِي فِيمَا لَوْ أُضِيفَتْ إِلَى الرَّجُلِ : وَأَهْل كلّ نبيّ : أَهْلِ بَيْتِهِ أَيْ زَوْجَتُهُ وَأَوْلَادَهُ .

وإنّ كَلِمَة (آل) – وَالَّتِي أَصْلِهَا (أهل) قُلِبَتْ الْهَاءُ هَمْزَةً بِدَلِيلِ أُهَيْل ، فإنّ التَّصْغِير يَرُدُّ الْأَشْيَاءَ إِلَى أُصُولِهَا – فِيمَا لَوْ أُضِيفَتْ إِلَى شَخْصٍ ، فَيُقَال : (آل فلان) أَي ذُرِّيَّتُهُ هُمْ النَاسُ الَّذِينَ يَنْتَسِبُون أَوْ يَرْجِعُ نَسَبُهُمْ إِلَى فُلَانٍ ، وَمِنْه الأوّل : أَيْ الرُّجُوعِ ، فَنَقُول : (آل إبراهيم) مثلاً ، هُم : إِسْمَاعِيل ، وَإِسْحَاق ، وَأَوْلَادُهُمَا ، وَآلِ عِمْرَانَ ، هُم : مُوسَى ، وَهَارُون ابْنَا عِمْرَانَ بْنِ يَصْهَرُ . التَّفْرِيقُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ وَآل الْبَيْت لُغَوِيًّا

فِي سِيَاحَة لُغَوِيَّةٌ قَصِيرَة نَسْتَطِيع فَهُم الْفَرْقُ بَيْنَ اللَّفْظَتَيْن (أَهْل ، آل) ، فَكَلَّمَه أَهْل مُشْتَقَّةٌ مِنْ الْفِعْلِ أَهْل " بِتَشْدِيدِ الْهَاءِ " فَيُقَال أهّله يُؤَهِلُه تأهيلاً حَتَّى يَصِيرَ مؤهلاً وأهلاً لِشَيْءٍ مَا . فَكَان (أَهْلَ الْبَيْتِ) قَد تَأَهَّلُوا لِأَنّ يَصِيرُوا سكاناً أَصْلِيَّيْن لِلْبَيْت وأفراداً عَلَى عِلاقَة وَثِيقَة وَخَاصَّةٌ جداً بِرَبّ

الْبَيْت ، فَهُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ وَهُمْ أَهْلُ رَبُّ الْبَيْتِ أيضاً ، وَقَدْ وَرَدَ تَعْبِير الْأَهْلِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيم فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَة بَعْضِهَا نُسِب اللَّفْظَة إِلَى الْبَيْتِ ، وَبَعْضُهَا الْآخَر نُسِب اللَّفْظَة إلى أَشْخَاص أَوْ أَشْيَاءَ أَوْ أَمَاكِن ، فَأَمَّا مَا نُسِبَ اللَّفْظَة إِلَى الْبَيْتِ فَفِي :

(قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهُ رَحْمَتَ اللهِ وَبَرَكَتِه عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ أَنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) هُود : 73

(وحرمنا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قِبَلِ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يكفلونه لكُم وَهُمْ لَهُ نصحون) الْقَصَص : 12 .

(وقرن فِى بُيُوتِكُنّ وَلَا تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الجهلية الْأُولَى وَأَقَمْن الصَّلَوة وَآتِيْن الزكوة وَأَطْعَن اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) الْأَحْزَاب : 33 .

نستكمل مَعًا السَيَاحَة اللُّغَوِيَّة

وَأَمَّا مَا نُسِبَ اللَّفْظَة إِلَى أَشْخَاص أَوْ أَشْيَاءَ أَوْ أَمَاكِن فَفِي مِثْلِ :

(اذ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِي أَنِسَت نَارًا لَعَلِي آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَس أَو أَجِدُ عَلَى النَارِ هُدًى) طَه : 10 .

(وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلك إِلَّا رِجَالًا نوحي إِلَيْهِم فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) النَحْل : 43 .

(وجاء أَهْلِ الْمَدِينَةِ يستبشرون) الْحَجَر : 67 .

مِمَّا سَبَقَ نَفْهَم أَن (الْأَهْل) هُم الْمُقَرَّبُون والملاصقون لِشَخْص أَوْ لِشَيْءٍ أَوْ لِمَكَانٍ . وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ يَعِيشُونَ فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ وَزَمَن وَاحِد .

وَعَلَيْهِ فَإِنْ (أَهْلَ الْبَيْتِ) هُم خَاصَّة الرَّجُل الْمُكَوَنَةُ مِنْ نِسَائِهِ وَأَبْنَائِه وَبَنَاتِه .

أَمَّا لَفْظُه (آل) فمشتقة مِنْ الْفِعْلِ آل يُؤَوِّل أَيْ رَجَعَ يَرْجِعُ أَصْلِهِ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٌ ، وَمِنْه (تَأْوِيل) الْأَحْلَام والرؤى أَي إِرْجَاع الْحُلُم أَوْ الرُّؤْيَا إِلَى مَعْنَى ثَابِت . وَلِذَلِك نَجِد أَنَّ اللَّفْظَة فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَمْ تُنْسَبْ إِلَّا إِلَى أَشْخَاص فَقَط ، وَلَم تُنْسَبُ إِلَى أَمَاكِن أَوْ أَشْيَاءَ . وَالْأَمْثِلَةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ حَيْث نَجِد (آلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ لُوط وَآلِ دَاوُد وَآلِ عِمْرَانَ وَآلِ يَعْقُوب وَآلِ مُوسَى وَآلِ هَارُون وَآلُ فِرْعَوْنَ) . وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ لَفْظَةَ (آل) تَعْنِي سِلْسِلَة الذُّرِّيَّة الَّتِي تَرْجِعُ جَمِيعُهَا إِلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ مَهْمَا عَاش أَفْرَادِهَا فِي عصور مُتَبَاعِدَة أَو أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ . وَهُنَاك آيَتَان كريمتان توضحان لَنَا هَذَا الْمَعْنَى بِأَوْضَح صُورَة :

(إِن اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إبرهيم وَآلِ عِمْرَانَ عَلَى الْعِلْمَيْن ، ذُرِّيَّة بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) آلِ عِمْرَانَ : 33 ، 34 .

ونلاحظ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ أَنَّه رَغِم كَوْن نُوحٌ مَنْ ذُرِّيَّة آدَم وَكَوْن إِبْرَاهِيمَ مِنْ ذُرِّيَّة نُوح إِلَّا أَنْ الْآيَة ذَكَرَت آدَم وَذَكَرَت نُوحًا باسميهما كشخصين ، بَيْنَمَا ذَكَرَت بَاقِي الْأَسْمَاء مَسْبُوقَة بِلَفْظِه (آل) . لِمَاذَا ؟ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمُنَاسِبِ أَنْ يُقَالَ (آل آدَم) لِأَنَّ ذَلِكَ سيعني النَّاسَ جَمِيعًا دُون اسْتِثْنَاءَ لِأَنَّ آدَمَ هُوَ أَبُو النَّاسَ جَمِيعًا وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اصْطَفَاه هُو شَخْصِيًّا مِنْ بَيْنِ الْمَخْلُوقَات الْأُخْرَى لِيَكُون خَلِيفَة ، فَلَوْ قَالَ (آل آدَم) لَشَمِل مَعْنَى الاصطفاء النَّاسَ جَمِيعًا مُؤْمِنُهُم وَالْكَافِر بَيْنَمَا اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَصْطَفّ كُفَّارًا . وَنُوح كَذَلِك اصْطَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ شَخْصِيًّا وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْصَرِفَ الاصطفاء إِلَى آلِهِ لِأَنّ الْإِنْسَانِيَّة جَمْعَاء هُم

بَنُوه وَبَنُو الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ نَجَّاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ حَيْث غَرَق الْبَاقُون . أَمَّا (آلِ إبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ) فذرية مِنْ بَيْنِ العَدِيدِ مِنَ الذّرَارِي الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي عَصْرِ إبْرَاهِيمَ وَفِي عَصْرِ عِمْرَان وَقَدْ حَصَلَ الاصطفاء مِنْ الذُّرِّيَّةِ نَفْسِهَا فاصطفى اللَّهُ تَعَالَى إسْمَاعِيل وَإِسْحَق مِنْ ذُرِّيَّةِ إبْرَاهِيمَ ثُمَّ تَوَالَى الاصطفاء فِي ذريتهما حَيْث اصْطَفَى يَعْقُوب وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَدَاوُد وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إسْحَق ، وَاصْطَفَى مَرْيَم وَعِيسَى مِنْ ذُرِّيَّةِ عِمْرَان ، وَاصْطَفَى مُحَمَّدًا مِنْ ذُرِّيَّةِ إسْمَاعِيل عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَمِيعًا .

مِنْ هُنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَم الْفَرْقَ فِي الْمَعْنَى بَيْنَ اللَّفْظَتَيْن (أَهْلَ الْبَيْتِ ، آلِ الْبَيْتِ) حَيْث أَهْلُ بَيْتٍ الرَّجُلِ هُمْ نِسَاؤُه وَبَنُوه وَبَنَاتِه الَّذِين يَعِيشُونَ فِي بَيْتِهِ وَتَحْت رِعَايَتِه وَهُمْ جَمِيعًا يَعِيشُونَ فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ أَمَّا تَعْبِير آلِ الْبَيْتِ فَخَطَأٌ شَائِعٌ لِأَنَّ الْبَيْتَ لَيْسَ لَهُ ذُرِّيَّة ، وَالصَّوَابُ أَنْ نَقُولَ (آلِ مُحَمَّدٍ) عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَهُم الذُّرِّيَّةِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي يَرْجِعُ أَصْلِهَا إلَى النَّبِيَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَحَيْثُ إنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ أَبَا لِأَحَدٍ مِنْ الرِجَالِ كَما تَقُولُ الْآيَة

(ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النبين . .) الْأَحْزَاب : 40

فَإِن ذُرِّيَّتِه لَيْسَ فِيهَا ذُكُور فَهُم بَنَاتِه فَقَط .

أَنَّ هَذَا التَّوْضِيحِ وَالتَّفْرِيق بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ وَآلِ الْبَيْت مُفِيدٌ جِدًّا فَلَقَدْ قَامَتْ الْكَثِيرِ مِنْ الْفَرْقِ الصُّوفِيَّة والشيعية بِتَعْمِيم وَتَوْسِيع مَفْهُوم آلِ الْبَيْتِ بِقَصْد وَبَنِيه تَحْقِيق مأربها الأيديولوجية الْقَائِمَةُ عَلَى مفهوم الْإِمَامَة وَالْجَمِيع يَعْلَمُ ذَلِكَ أَمَّا الصُّوفِيَّة فَلَقَد اُتُّخِذَتْ مِنْ هَذَا الْخَلْط وَسِيلَةٌ لِإِنْشَاء مَذْهَب بَاطِنِيٌّ

عرفاني يَقُومُ عَلَى الِاسْتِيثَار بِمَعْرِفَة أَسْرَار وَكُنُوز الْقُرْآن المخفية كَمَا يَدْعُون وَمِنْ ثَمَّ اِخْتَرَعَت لِنَفْسِهَا بَعْض الْحَرَكَات والايماءات الَّتِي توحي بِذَلِك .

الْعَيْش وَالْحَيَاة مَعَ كِتَابِ اللَّهِ

شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ وَهُدًى وَمَوْعِظَة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 57]

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : 82]

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2]

الْعَيْش مَعَ الْقُرْآنِ الْكَرِيم

أَنَّ أَوَّلَ مَا تعلمته بَعْد الْحُرُوف وَالْقِرَاءَة وَالْكِتَابَة قِرَاءَةُ بَعْضِ السُّوَرِ الْقَصِيرَة الَّتِي جَمَعَتْ (بجزء عَمّ) وَفِيهَا الْمُعَوِّذَات وَسُؤْر الْإِخْلَاص وَالْكَوْثَر وَغَيْرِهَا .

لقدكان لِهَذِه الْقِرَاءَات أَثَرًا كَبِيرًا فِي ذِهْنِي وَقَلْبِي مُنْذُ سِنِينَ الطُّفُولَة وَحِين بَلَغَت الْمَرْحَلَة الثَّانَوِيَّة ثُمّ الجَامِعِيَّة كَانَ الْقُرْآنُ رَفِيقِي وَصَدِيقِي وَقَد اقْتَنَيْت مُصْحَفًا مَحْفُوظٌ فِي حَقِيبَةٍ صَغِيرَةٍ أَوْ مَا نُسَمِّيهَا (جزدان) أَحْمِلُه مَعِي وَخَاصَّةً فِي أسفاري الْبَعِيدَة الَّتِي كَانَتْ تَسْتَغْرِق سَاعَات طَوِيلَةٌ جِدًّا وَيَعُود

الْفَصْل الْأَوَّل لِكِتَاب اللَّهِ فِي تَعْزِيز قُدْرَتِي وأسلوبي فِي الْكِتَابَةِ وَالنَّقَّاش وَالْجِدَال وَالْمَنْطِق كُنْتُ أَشْعُرُ وَأَحسّ بِأَنِّي أَحْمِل شَيْئًا مُخْتَلِفًا جِدًّا وَمُهِمًا جِدًّا يُمِدَّنِي بِالْقُوَّة وبالأطمئنان وَالثِّقَة بِالنَّفْس وَعَدَم الْخَوْف أَنّ كِتَابَ اللَّهِ جَوْهَرَةُ دِينِنَا واسلامنا الْخَالِدَة فِيهِ كُلُّ مانحتاج وَكَمَا قَالَ رَبّنَا الْكَرِيم :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : 54]

هُدًى وَمَوْعِظَة

لاجدال وَلَا نَقّاش فِي أَنّ كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ مِنْ الْهُدَى وَالْمَوَاعِظ الشّي الْكَثِير وَالْجَمِيل والمبهر

فإنَّ المَوعظَةَ الحَسنةَ هِيَ إحْدَى أهَمّ الرَّكائِزِ الموقِظَةِ للقُلوبِ ، والمُنبّهةِ مِن الغَفلةِ ، وإحْدَى أهَمّ عوامِلِ صَلاحِ القُلوبِ وعِلاجِ أمْراضِها . وَهِي مِن شَعيرةِ الأمْرِ بالمَعْروفِ والنّهيِ عَن المُنكَرِ ؛ المَصحوبِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ ، والدّعوةِ إلَى اللهِ والنّصيحةِ النّافِعةِ الّتي تُثمِرُ رِقّةَ القَلبِ ولِينَه ، فيَتحرّكُ للعَملِ طَلبًا للنّجاةِ والخَلاصِ مِن المَخوفِ والمَرهوبِ ، ورَغبةً فِي الحُصولِ عَلَى المَرجُوّ والمَرغوبِ .

وتكونُ بالمَسموعِ ، وَهُو الانْتِفاعُ بِمَا يُسمَعُ ويُقرأُ ويُتلى مِن الهُدى والرُّشدِ والنّصائِحِ الّتي جاءَت عَلَى ألسِنةِ الرُّسلِ وَمَا أُوحِيَ إلَيْهِم مِن ربّهم ، وَكَذَلِك الانْتِفاعُ مِن كلّ ناصِحٍ ومُرشِدٍ فِي مَصالِحِ الدّينِ والدُّنْيا

كَمَا تكونُ بالاعْتِبارِ بالمَشهودِ ، وَهُو الاقْتِناعُ بِمَا يَراه ويَشهَدُه فِي العالَمِ مِن مَواقِعِ العِبَرِ والحَوادِثِ والمَواقِفِ والتّجارِبِ ، وأحْكامِ القَدَرِ ومَجاريه وسُنَنِ اللهِ فِي الكَونِ ؛ تَدبُّرًا وتَفكُّرًا واعْتبارًا .

وحاجةُ القُلوبِ إِلَى المَوعظةِ لَا تَقِلُّ أَهمِّيَّةً عَن الحاجةِ إِلَى العِلمِ والمَعرفةِ ، بَلْ هُوَ الطَّرِيقُ المُمهِّدُ لَهَا ، فَإِذَا لانَ القَلبُ انْفَتَحَتْ قابِليَّةُ بَصيرتِه لتَلقِّي العِلمِ النَّافعِ ، فارْتاحَتْ الرُّوحُ وسَكَنت النَّفسُ واغْتذى العَقلُ واطْمأنَّ القَلبُ ؛ ولِذا جاءَ وَصفُ القُرآنِ الكَريمِ بأنَّه (مَوعِظةٌ) قالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُم آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور : 34] وقالَ تَعالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 57] .
وَكَذَلِكَ كانَتِ الكُتُبُ السَّابقةُ ، فقالَ تَعَالَى عَنْ الإِنْجيلِ : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيْهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : 46] ، وقالَ تَعالَى عَنْ الألْواحِ المُنزَّلةِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 145] .

ووَعَظَ اللهُ تَعَالَى عِبادَه فِي كِتابِه العَزيزِ فِي مَواضِعَ كَثيرةٍ ، مِثْلُ قَولِه تَعَالَى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : 17] .

والوَعْظُ بالقُرآنِ هُو أَعْظَمُ السُّبُلِ لِلينِ القَلبِ ، وأَسْهَلُها وأقْرَبُها وأَشَدُّها تَأْثِيرًا ، وأَقْواها نَفْعًا وتَنْبيهًا ، فالقُرآنُ كلُّه مَوعِظةٌ .

وَقَد جَعلَ اللهُ تَعَالَى المَوعِظَةَ الحَسنةَ إِحْدَى وَسائِلِ الدَّعوةِ النَّبويَّةِ ، فقالَ تَعَالَى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : 125] ، وَذَلِكَ حسَبَ حاجةِ المَدعوِّ ؛ فإمَّا أَن يكونَ طالِبًا للحقِّ راغِبًا فِيه ، فَهَذَا يُدْعى بالحِكمةِ ، وإمَّا أَن يكونَ مُعرِضًا غافِلًا مُنشغِلًا بضدِّ الحقِّ ، فَهَذَا يَحتاجُ مَعَ الحِكمةِ

إِلَى المَوعِظةِ الحَسنةِ ، وإمَّا أَن يكونَ مُعانِدًا مُعارِضًا ، فَهَذَا يُجادَلُ بالَّتي هِي أحسَنُ ، إضافةً إِلَى مَا تَقدَّمَ ، وقدْ يَحتاجُ إِلَى شيءٍ مِن الاخْشيشانِ بعْدَ اسْتِنفادِ مَا سبَقَ معَ إصرارِه عَلَى الظُّلمِ ، كَما قالَ تَبارَكَ وتَعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت : 46] .

والوَعْظُ هُو سَبيلُ المُصلِحينَ فِي كلَ زَمانٍ ومَكانٍ ؛ قالَ تَعالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] ، وقالَ تَعالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 164] .

ومعَ أَنَّه قَد دَخَلَ عَلَى بعضِ الوُعَّاظِ والخِطابِ الوَعْظيِّ بعضُ الخُرافاتِ والمَناماتِ والإسْرائيليَّاتِ والمُسْتَحيلاتِ والقِصَصِ المُخْتَلقةِ والأحاجيِّ ، فإنَّ هَذَا لَا يُسوِّغُ التَّقليلَ مِن شأنِه ، بَل يَقْتضي ضَرورةَ تَصْحيحِ مَسارِه وتَنْقيةِ مُحْتواه ، والتَّشديدَ فِي شأنِ حِراستِه مِن الإحْداثِ والكَذِبِ حتَّى يَعودَ إِلَيْه رَوْنَقُه وصَفاؤُه ونَقاؤُه ، وَعَلَى الواعِظِ الْتزامُ شُروطِ الوَعْظِ وآدابِه مُراعِيًا صحَّةَ الخَبَرِ دَليلًا كانَ أَو قِصَّةً ، وصِدْقَ النِّيَّةِ ، ومُراعاةَ الحالِ والزَّمانِ والمَكانِ ونَحْوِها ؛ ليُؤتِيَ أُكُلَه بإذْنِ اللهِ .

وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ

أَي شِفَاء جَمِيعِ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ أَدْوَاءِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ، وَسَائِرِ الْأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يُشْعِرِ صَاحِبَهَا ذُو الضَّمِيرِ الْحَيِّ بِضِيقِ الصَّدْرِ ، مَنْ شَكَّ فِي الْإِيمَانِ ، وَمُخَالَفَةِ لِلْوِجْدَانِ ، وَإِضْمَارِ للحقد وَالْحَسَدُ وَالْبَغْيُ وَالْعُدْوَانِ ، وَحُبِّ لِلْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالشَّرِّ ، وَبُغْضِ لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ .

ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنْ الشِّفَاءَ فِي الْآيَةِ يَشْمَل شِفَاء الْأَمْرَاضِ الْبَدَنِيَّةِ ، وَاسْتَدَلُّوا بِمَا أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَال : أَنِي أَشْتَكِي صَدْرِي فَقَالَ : ((أَقْرَأَ الْقُرْآنَ ؛ يَقُولُ اللَّهُ : (وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) وَفِيهِ أَنَّ ضَيَّقَ الصَّدْرِ فِي الْغَالِبِ أَلَم نَفْسِي لَا بَدَنِي ، قَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ دِينِيًّا وَقَدْ يَكُونُ دُنْيَوِيًّا كَالْخَوْف وَالْحَاجَة ، وَقِرَاءَة الْمُؤْمِن لِلْقُرْآن تَنْفَعُ فِي كُلّ مِنْهُمَا ، وَمِنْ الْأَوَّل قَوْلُهُ : (فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ) (6 : 125) وَقَوْلُهُ فِي آخِرِ سُورَةِ الْحِجْر : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّك يَضِيق صَدْرك بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبّك وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ وَاعْبُد رَبَّك حَتَّى يَأْتِيَك الْيَقِين) (15 : 97 – 99) وَالتَّسْبِيح بِحَمْدِ اللَّهِ وَالسُّجُودِ لَهُ وَعِبَادَته بِالصَّلَاة وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ أَعْظَم أَسْبَابِ انْشِرَاحِ الصَّدْرِ ، كَمَا قَالَ : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) (39 : 22) الْآيَة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : 29] ، يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّم : "ومن الْفُرْقَان : النّورُ الّذِي يُفَرِّقُ بِهِ الْعَبْدُ بَيْنَ الْحَقّ وَالْبَاطِلِ ، وَكُلَّمَا كَانَ قَلْبُهُ أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ كَانَ فُرْقَانه أَتَمّ ، وَبِاَللَّه التوفيق" .

وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف : 28] فُرُطًا : ضَيَاعًا وندما

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : 28]

يَحْوِي هَذَا النَصَ الْقُرْآنِيِّ تَوْجِيهَات إِلَهِيَّة عَظِيمَةٌ كَيْفَ لَا وَهِيَ قَدْ وُجِّهْتُ لِرَسُولِنَا الْكَرِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَنْ بَعْدَهُ إِلَيْنَا وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ يُرِيدُ أَنْ يَعِيشَ هَذِهِ الدُّنْيَا وَفْق الْمَنْهَجِ الْإِلَهِيِّ

بَعْضُ النَاسِ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ابْتَدَأَت بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ فَالْأَمْرُ هُنَا يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ وَالثَّبَاتِ عَلَى مَنْهَجِ اللَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مُصَابَرَة وَجِهَادٌ النَفْسِ وَلَيْسَ أَمْرًا سَهْلًا أَنْ تَرَى كُلّ مُغْرِيات الْحَيَاة إِمَامِكُم وتضغط عَلَى نَفْسِك وتصبر كَيْ لَا تَلْحَقُ بِهَا بَلْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الصَّبْر .

هَؤُلَاء الصَّابِرُون (الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) لايريدون شَيْئًا سِوَى وَجْهَ اللَّهِ

لِذَلِك فَهُم يَقُومُون بِأَفْضَل عَمَلٌ وَهُوَ ذِكْرُ اللَّهِ وَطَلَب الْمَغْفِرَة وَالْعَفْو مِنْهُ لِذَلِكَ لَا تَلْتَفِتُ لسواهم

فَهُم وَأَنْتَ لَا تُرِيدُ وَلَا تهمكم زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَلَهَا أَصْحَابِهَا وعشاقها ومريديها هَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ أَغْفَل اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَصَار يَتَحَدَّثُون بمفاخر الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وجاه وَوَلَد وَنُسب وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْكَلَامِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ سَمِعَهُ دُنْيَوِيَّةٌ فَارِغَة لِذَلِكَ كَانَ أَمَرَهُمْ ووضعهم فِي ضَيَاع وَنَدِم وحسرات .

وَفِي نَص آخَرُ يُعَزِّز هَذِه الْمَقُولَة يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : 28]

اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَر أَنَّ مَنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ إِذَا ذُكِرَ اللَّهِ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . هَذَا مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَمَن صِفَاتِهِم أَنَّهُم تَطْمَئِنّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، تُوَّجَل يَعْنِي تَخَافُ مِنْ اللَّهِ وأَيضًا تَرْغَب فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ وَتَطْمَئِنّ ، فَهِي تَجْمَعُ بَيْنَ الْوَجَلِ وَالطُّمَأْنِينَة ، هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ ، الْمُؤْمِن يَأْنَس بِذِكْرِ اللَّهِ ، بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرُ ، ذِكْرِ اللَّهِ بِاللِسَانِ وَتِلاوَةُ الْقُرْآنِ ، وأَيضًا يَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ بِذِكْرِ اللَّهِ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، بِالصَّلَاة وَالصِيَامِ وَالْحَجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فتنشرح صُدُورِهِم وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وتستوحش مِنْ الْغَفْلَةِ وَعَدَمِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) ، الصَّلَاة تَبْعُد الْإِنْسَانُ عَنْ الْفَحْشَاءِ وَعَن الْمُنْكَر ، وتقربه مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، وتحببه إِلَى اللَّهِ ، وأَيضًا تطمئنه ، وَيَأْنس بِهَا ، وَلِهَذَا كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَنَهُ أَمْرٌ فَزِع إِلَى الصَّلَاةِ ، وَقَالَ لِبلَالٍ : أَقِمْ الصَّلَاةَ ، أَرِحْنَا بِهَا ، فَيَسْتَرِيح إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ يَسْتَرِيحُ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَمِنْ المكدرات لِأَنَّه يُنَاجِي رَبَّهُ ويتلوا كِتَابِه فينشرح صَدْرِه وَتَطْمَئِنّ نَفْسِه ، وَهَكَذَا الْمُؤْمِنُون مَعَ الصَّلَاةِ ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) ، فَالْمُؤْمِن يَعِيش مَعَ ذِكْرِ اللَّهِ وَيَطْمَئِنّ وَيَنْشَرِح صَدْرِه وَيَأْنس بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْوَاعِ الذِّكْرِ الْقَوْلِيَّة وَالْفِعْلِيَّة والقلبية أيضًا ، فَذِكْرَ اللَّهَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ، دائمًا وأَبدًا ، وَلِهَذَا يَجِدُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ اللَّهِ ، إِذَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَجِدِ رَاحَةً وَيَجِد لَذَّة وَيَجِد انْشِرَاح صَدْر ، هَذَا شَيْءٌ

يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ الْمُسْلِم ، شَيْءٌ وَاضِحٌ ، حِينَمَا يَتْلُو الْقُرْآنَ يَتَلَذَّذْ بِهِ وَيَأْنَسُ بِهِ ويألفه لِأَنَّه يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ، لِأَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ يَطْرُدُ عَنْهُ الشَّيْطَانُ ، وَقَدْ وَصَفَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يُذْكَرُ وَالَّذِي لَا يُذْكَرُ اللَّهَ قَالَ : مِثْلِ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ ، الَّذِي يُذْكَرُ اللَّهَ مِثْلَ الْحَيّ وَالَّذِي لَا يُذْكَرُ اللَّهَ مِثْلَ الْمَيِّت ، يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُكْثِرَ مِنَ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ وَبِالْقَلْب وبالتفكر وَبِذَلِك يَعِيشُ فِي حَيَاتِهِ مطمئنًا .

دفاعا عَن عَقِيدَتِهِم وَأَيْمَانِهِم

الفِتْيَةُ الَّذِين آمَنُوا بِرَبِّهِمْ

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : 10]

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : 13]

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف : 14]

﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف : 15]

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴾ [الكهف : 16] .

قِصّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَالرّقِيمِ مِنْ الْقِصَصِ المعبرة فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَهِي تَتَحدّث مَجْمُوعِهِ مِنْ الْفِتْيَةِ (الشَّبَاب) الَّذِينَ اجْتَمَعُوا عَلَى مَبْدَأ وَاعْتِقَاد وَاحِدٍ وَلَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى رَأْيِ سِيَاسِيّ أَوْ هَدَفٍ مَذْهَبِي أَو أَيْدِيُولُوجِي أَوْ شَكَلُوا عِصَابَة أَوْ مَجْمُوعَةً إرهابية أَوْ حِزْبٍ أَوْ حَرَكَةٍ بَل اجْتَمَعُوا عَلَى عَقِيدَة الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَلَدِ .

الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَزِيَادَةٌ الْهُدَى مِنْه

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾

عِنْدَمَا اجْتَمَع هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ عَلَى عَقِيدَة الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ فَتَلَقَّاهُم رَبِهِم وَزَادَهُم هُدًى وَثَبت الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ وتيقنوا أَنَّهُم يَسِيرُون فِي الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَخْتَلِفُ عَنْ مَسْلَكِ قَوْمِهِم .

طَلَبِ الرَّحْمَةِ وَالرُّشْد

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : 10]

فَفِرُّوا بِدِينِهِم وعقيدتهم قَبلَ أَنْ يَفِرُّوا بِأَرْوَاحِهِم وَطَلَبُوا مِنْ رَبِهِمْ أَن يَرْحَمُهُم وَيُهَيِئ لَهُمْ مَخْرَجًا وطريقا يُرْشِدُهُم وَيَدُلُّهُم لِكَي يَنْجُو مِنْ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِين .

يُخْبِرُون اللَّه ويشكوهم قَوْمِهِم وَاَللَّهُ أَعْلَمُ مِنْهُمْ بِذَلِكَ (﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف : 15]

فَالْقَضِيَّة إذْن ايمانية وعقائدية فقومهم قَد عَبْدُو غَيْرِ اللَّهِ الْوَاحِدُ وَاتَّخِذُوا آلِهَةٌ مُتَعَدِدِين بِدُون أَيِّ دَلِيلٍ أَوْ سُلْطَانٍ أَوْ حِجَّةَ عَلَى مَا يَدَّعُونَ فَهُم بِذَلِكَ مِنْ أَظْلَمُ النَاسِ افتراءا وَكَذِبًا عَلَى اللَّهِ وَهَذَا مِنْ أَشَدَ أَنْوَاع الظُّلْم وأخطره .

وَهَكَذَا اعْتَزَلُوا قَوْمِهم وَنَجَوْا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ ظُلْمِهم وَكُفْرِهِم وَعَاشُوا فِي كَهْفِ هَيَّئُوا اللَّهُ لَهُمْ

لِيَكُون مَرْفِقًا يَسْتَطِيعُون الْعَيْش بِأَمَان ويقيهم مِنْ شُرُورِ الْإِنْسَان وَغَضَب الطَّبِيعَة .

وَكُلُّنَا يَعْلَمُ كَيفَ انْتَهَت قِصَّة هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ الَّتِي نَامُوا ثَلَاثَمِائَةِ عَامٍ وَنَيْفٌ وأستفاقوا وَاسْتَدَلّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لِيَكُون عِبْرَة وَشَاهِدَا عَلَى حِفْظِ اللَّهِ لَهُمْ وَقُدْرَتُهُ فِي احياءهم لِيَدُلَّ عَلَى صِدْقهمْ لِمَا عَاهَدُوا رَبَهم عَلِيّ

مِنْ صُوَرِ الأَمْثِال فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) .

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِثَال وَاضِحٌ لِلْإِنْسَان الَّذِي يَنْحَرِفْ عَنْ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّة ، وَيَنْقُض عَهْدَ اللَّهِ ، وينكص عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ رُؤْيَتِهَا وَالْعِلْمِ بِهَا . . . ذَلِكَ الإِنْسَانِ آتَاهُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَخَلَع عَلَيْهِ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْطَاه

الْفُرْصَة كَامِلَة لِلْهُدَى وَالِاتِصَال وَالِارْتِفَاع ، وَلَكِنَّه انْسَلَخ مِنْ هَذَا كُلُّه ، وَانْحَرَفَ عَنْ الْهُدَى لِيَتْبَع الْهَوَى ، وَالْتَصَق بِالْأَرْض وأغراضها فاستولى عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، وَطَرَد مِنْ حُمَى اللَّهِ ، وَأَصْبَح ممسوخا كَالْكَلْب يَلْهَث أَن طورد ، ويلهث إِنْ لَمْ يُطَارِد .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيم :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَها مِنْ قَرارٍ (٢٦) .

يَضْرِب اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِثْل الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ ، وَالْكَلِمَة الْخَبِيثَة ، لِتَصْوِير سُنَّتِه الْجَارِيَةِ فِي الطَيِب وَالْخَبِيث فِي هَذِهِ الْحَيَاةَ .

فَالْكَلِمَة الطيبة- كَلِمَة الحق- كَالشَّجَرَة الطَّيِّبَة ثَابِتَةٌ سامقة مُثْمِرَة ، ثَابِتَةٍ لَا تزعزعها الأعاصير ، وَلَا تَعْصِف بِهَا رِيَاح الْبَاطِل ، سامقة متعالية تَطُل عَلَى الشَّرَ وَالظُّلْمُ مِنْ عَلِ ، مُثْمِرَةٌ لَا يَنْقَطِعُ ثَمَرَهَا ، لِأَنّ بُذُورُها تَثْبُتُ فِي النُّفُوسِ الْمُتَكاثِرَة أَنَا بَعْدُ أَنْ وَالْكَلِمَة الخبيثة- كَلِمَة الباطل- كَالشَّجَرَة الْخَبِيثَة ، قَد تَهَيَّج وتتعالى ، وَيُخَيَل إِلَى بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهَا أَضْخَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَة وَأَقْوَى ، وَلَكِنَّهَا تَظَل نافشة هشة ، وَتَظَل جُذُورَها فِي التُّرْبَة قَرِيبَهُ حَتَّى لكأنها عَلَى وَجْهِ الْأَرْض ، وَمَا هِيَ إِلَّا فَتْرَة ثُمّ تَجْتَثّ مِنْ فَوْقِ الْأَرْض ، فَلَا قَرَارَ لَهَا وَلَا بَقَاءَ .

وَفُسِرَت الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ : بِكَلِمَةِ التَّوْحِيد ، وَدَعْوَة الْإِسْلَام ، وَالْقُرْآن .

وَالشَّجَرَة الطَّيِّبَة : بالنخلة ، وبشجرة فِي الْجَنَّةِ .

أَمَّا الْكَلِمَةِ الْخَبِيثَةِ : فَهِي الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالدُّعَاءِ إِلَى الْكُفْرِ ، وَتكْذِيب الْحَقّ .

وَالشَّجَرَة الْخَبِيثَة : بالحنظلة . وَلَعَلَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ جَمِيعَ الْمَعَانِي الْمُتَقَدِّمَةِ .

وَالْعِبْرَة ظَاهِرُه وَمِقْنَعَة فِي هَذِهِ التَّمَاذِجِ الثَّلَاثَة ، وَهِي قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَمْثَالٍ هادفة ورائعة .

كَلِمَة الْعَهْدُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَمَعْنَاهَا

وَرَدَت لَفْظُه (عهد) وَمَا اُشْتُقَّ مِنْهَا (٤٦) مَرَّةً فِي (٣٦) آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي (١٧) سُورَةٍ مِنْ سُؤْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ [٤] وَسَأَذْكُر الْمَعَانِي الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا مَعَ ذِكْرِ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي كُلَ مَعْنَى مِنْ الْمَعَانِي ، مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنْ الْمُفَسرِينَ اخْتَلَفُوا حَوْل بَعْضِ مَعَانِي الكَلِماتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْآيَاتِ .

وَرَد الْعَهْد بِمَعْنَى الْوَصِيَّة وَالْأَمْرُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ :

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) (البقرة : مِن الآية٢٧)

وَهُنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَأْت بِمَعْنَى أَوْحَيْنَا وَأَمَرنَا وَفِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ) (آل عِمْرَان : مِن الآية١٨٣) .

وَوَرَد الْعَهْد بِمَعْنَى الْوَعْدِ وَالِالْتِزَام وَالْيَمِين :

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) (البقرة : مِن الآية٤٠)

وَمِمَّا جَاءَ بِلَفْظِ الْعَهْد وَهُوَ بِمَعْنَى الِالْتِزَامِ وَالْيَمِين قَوْله تَعَالَى فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ : (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) (التوبة : ٧٥)

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ : (الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) (الأنفال : ٥٦) . فَهِيَ هُنَا بِمَعْنَى الْعَقْد وَالْمِيثَاق .

وَقَد تَفَرَّع عَنْ هَذِهِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّة تَشْرِيعَات خَاصَّة بِالْعُقُود كَعَقْد الزَّوَاج وَالَّذِي وَهُوَ عَقْدُ يَقُومُ عَلَى الْإِيجَابِ وَالْقَبُولِ وَالرِّضَا فَهُو بِنَفْس الْوَقْت عَهْد يَقْطَعُه كُلّ طَرَف لِلْآخَر وَكَذَلِكَ فِي الْعُقُودِ الْمَدَنِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى الْقَبُولِ وَالرِّضَا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : 29]

وَالْعُقُود تَأْتِي بِمَعْنَى الْمِيثَاق وَهُو عَهْد يَقْطَعُه الْفُرْقَان فِيمَا بَيْنَهُمْ لِلْعَمَل وَالِالْتِزَام بِهِ وَعَدَمُ نَقْضِهِ وَقَدْ بَيَّنَ النَّص الْقُرْآنِيَ جَرِيمَة مِن يَنْقُضُون الْعُهُود وَالْمَوَاثِيق

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (أَوَكُلَّمَا عَهدُوا عَهْداً نَبذَهُ فريقٌ منْهُمْ) (الأحزاب : مِن الآية١٠٠)

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ : (الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) (الأنفال : ٥٦)

وَالْقَاعِدَة الْعَامّة والحاكمة فِي كُلّ ذَلِكَ هِيَ (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا) (البقرة : مِن الآية١٧٧) .

وَهِيَ الْعُقُودُ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ فالموفون بِعُهُودِهِم فُهِم مِنْ الْمُتَّقِينَ وَالصَّادِقِين

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ

﴿ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ الشُّورَى : ١١

أَنّ أَوّل مايتبادر لِلذَهْن الْبَشَرِيّ مِنْ أَسْئِلَةٍ مُعْجِزَةٌ تِلْكَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِاَللَّه كَيْف صَار وَمَن أَوْجَدَه أَوْ خُلُقِهِ وَكَيْف شَكْلِه وَهَلْ لَهُ شَبِيهٌ ؟

هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ كَانَت مُقَدِمَات لِظُهُور الفلسفات الْإِلَهِيَّة وَلَا عَجَبَ إنْ يَطْرَحَ الْمَخْلُوقِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ الْعَقْلَ والوعي لاعْجَب أَنْ يَسْأَلَ ويتسأل وَهُوَ قَدْ طَلَبَ مِنْهُ الله ذَلِكَ التَّفَكُّرِ بِاَللَّه وَخُلُقَه .

وَرَدَ فِي مُعْجَمِ الطَّبَرَانِيّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللَّهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ . وَقَدْ تَتَابَعَتْ نُصُوص أَهْلِ الْعِلْمِ فِي النَّهْيِ عَنْ التَّفَكُّرِ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْحَثَ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّة الْمَرْئِيَّة ، وَآيَاته الشَّرْعِيَّة الْمَقْرُوءَة ، وَنِعْمَة الَّتِي تَغْمُر الْإِنْسَان وتحيط بِه . قَالَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ الْقَيْرَوَانِيَ الْمَالِكِيُ فِي "الرسالة" : لَا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الْوَاصِفُونَ ، وَلَا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرونَ . . يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرونَ بِآيَاتِهِ ، وَلَا يَتَفَكَّرونَ فِي مَاهِيَّةِ ذَاتِهِ . . وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ : لاَ تَبْلُغُهُ الْأَوْهَام ، وَلَا تُدْرِكُه الْأَفْهَام ، وَلَا يُشْبِهُ الْأَنَام . . وَذَلِكَ لِأَنَّ طُرُقَ مَعْرِفَةِ

الشَّيْءِ وَالْحُكْمُ عَلَيْهِ ، تكُون بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ : الْأَوَّل : مُعَايَنَتُه وَمُشَاهَدَته ، وَهَذِه دَلَّت النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُ وَاقِعَةٍ فِي حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدُّنْيَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الأنعام : 103] .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَصَحَّحه الْأَلْبَانِيّ .

أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ تُقْطَع الطَّرِيقِ أَمَّا الْعَقْلُ الْبَشَرِيّ لِتَصَوُّر الذَّاتِ الإِلَهِيَّةِ أَوْ تَخَيَّلَهَا وَهِي بِنَفْس الْوَقْت تريحه مِنْ إِطَالَةِ التَّفْكِيرُ فِي ذَلِكَ وَجَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : 103] ليدعم عِنْدَنَا هَذِه الِاعْتِقَادِ بِأَنْ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَبِذَلِك تَنْتَهِي الْقَضِيَّة و لايمكن لِلْبَصَر الْإِنْسَانِيّ إِدْرَاكِه وَمَعْرِفَتِه لِأَنّ تكْوِينه الْخِلْقِيّ لاَ يَرْقَى إِلَى اسْتِطَاعَةِ رُؤْيَةُ الذَّاتِ الإِلَهِيَّةِ وَلَا إِدْرَاكِه الْعَقْلِيّ يَصِلْ إِلَيْهَا وَهُنَاك قِصَّة لِلنَّبِيّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَهَا النَص الْقُرْآنِيّ تفيدنا كَثِيرًا إِلَى لِلْوُصُولِ إِلَى يَقِينِ مُطْلَق بأننا لَن نَرَى اللَّهَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 143]

فَالنَبِيّ مُوسَى هُوَ بِشْر كَلِمَةِ اللَّهِ تكْلِيمًا فَطَمَع عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ لِرَبه أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْك فَاللَّه عَلِم قَصَدَه وَقَال لَنْ تَرَانِي تأملوا معي أسلوب الخالق القدير في الرد والتخاطب مَعَ أَنْبِيَاءَه وَمَع النَّاسِ كَافَّةً أسلوب تمتزج فيه الرِّقَّةِ وَالْحِلْم وَالتَّهْذِيب وَالْعَطْف وَالرَّأْفَة وسنجد ذَلِكَ فِي مَوَاقِعِ كَثِيرَةً وَكَانَ الْمَوْلَى الْقَدِير

يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَوَقَّفَ عِنْدَ هَذَا الْحَدَ وَيَقُول لِمُوسَى لَنْ تَرَانِي وَكَفَى لكن الله يستحي أن يخجل عبده فكيف بنبي لذلك صنع له هذه التجربة ليطمئن قلب موسى عليه السلام .

فَلَمَّا خَرَّ مُوسَى صَعْقا وأستفاق مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ والصدمة والصعقة قَالَ سُبْحَانَك تَبَت إِلَيْك وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين الْمُؤْمِنِينَ أَيْ أَوَّلَ الَّذِين تيقَّنُوا عَيْنَ الْيَقِينِ بِأَنْ اللَّهَ عُصِي عَلَى الْبَشَرِ رُؤْيَتَهُ وَإِنْ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْئًا .

وسنقوم بِإِعْطَاء مِثَال واقعي سيفيدنا فِي فَهْمِ مَعْنَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فَلَوْ تَخَيَّلْنَا أَنْفُسِنَا طُلَّابًا فِي الْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّة وَطَلَبَ مِنَّا مُدَرِّس مَادَّةُ الْفُنُون أَن نرسم شَكْلا مُبْتَكِرا لَا شِبْهَ لَهُ وَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ

فَإِذَا رسمنا مثلا (.) النُّقْطَة باعتقادنا أَنَّهَا لَا تُعَبِّرُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ سيفاجئنا الْمُدَرِّس بِقَوْلِهِ بِأَنْ النُّقْطَة أَوْ أَيُّ شيء خَطّ بِهِ الْقَلَمُ إِنَّمَا هُوَ تَعْبِيرٌ عَنِ شَكْلٍ هَنْدَسِيٍّ حِينِهَا سنعرف أَنَّنَا عَاجِزِين تَمَامًا عَلَى رَسْمِ أَيْ شَيْءٍ لَا شَبِيهَ لَهُ فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ .

أَنَّ عِبَارَةَ أَوْ جُمْلَةَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ستجعلنا نَفْتَح سُؤَالًا آخَرَ وبالتالي مَوْضُوعًا آخَرَ وَهُوَ إِذَا كُنَّا لانستطيع أَن نَتَصَوَّر شَكْل اللَّه لِاسْتِحَالَة ذَلِكَ كَمَا ذَكَرْنَا فَمَن أَيِّ شَيْءٍ هُوَ هَلْ اللَّه مَادَّةٌ أَم نُور ؟

أَنَّ عَلَيْنَا اقْتِلَاعُ فكرة أَنْ اللَّهَ هُوَ مَادَّةٍ مِنْ جُذُورِهَا فالمادة أي مَادَّةٌ تَخْضَع لقوانين الزمكان كَمَا قَالَ انشتاين وَهِيَ حَادِثَةٌ قَابِلَة لِلتَّحَوُّل يَبْقَى لَدَيْنَا تَصَوُّرًا وحيدا لِلذَّات الْإِلَهِيَّة وَهُوَ أَنَّهُ نُورُ وَقَدْ يَجْهَل الْكَثِيرُون أَنَّ النُورَ بِمَعْنَى الضَّوْء ذَاتِه مَادَّةٌ أَي مُكَوَّنٌ مِنْ فوتونات تَتَحَرَّك وتُشَكِل طَاقَة وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ

الْأُمُورِ الفيزيائية الَّتِي تَطْرَأُ عَلَى النُورِ لكِن وُرُودُ هَذَا الْكَلِمَة كَصِفَة مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ أَوْحَى لَنَا ذَلِكَ بِهَذَا الظَّنّ .

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ النُورِ :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : 35]

مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هو النورُ الّذِي فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّهُ مِنْ نُورِهِ سُبْحَانَه . وَالنُور نوران :

نُور مَخْلُوقٍ وَهُوَ مَا يُوجَدُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَفِي الْجَنَّةِ وَبَيْنَ النَّاسِ الأنَ مِنْ نُورٍ الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ وَالنُجُوم . وَهَكَذَا نُور الكَهْرَباء وَالنَّار كُلُّهُ مَخْلُوقٌ ، وَهُوَ مِنْ خَلْقِهِ .

أَمَّا النُور الثَّانِي : فَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، بَلْ هُوَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ هُوَ الْخَالِقُ وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ ، فَنُور وَجْهه وَنُوَر ذَاته كِلاهُمَا غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، بَلْ هُمَا صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا كَسَمعِه وَبَصَره وَيَدِه وَقَدَّمه وغير ذلك مما ذكره الله عن نفسه وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ الْعَظِيمَة ويتوضح لَنَا هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ يَدَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ مِثْل نُورِه وَعَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ النَصَ الْقُرَآنِيَ لَيْس كَمِثَل شَيْءٌ بِمَعْنَاه الْمُطْلَق هُنَا وَهُوَ أَنْ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثَل شَيْءٌ لَا بِالشّكْل أَو الصُورَةِ أَوْ الذَّاتُ أَوِ أَيَ شَيْءٍ آخَرُ فَهُوَ اللَّهِ الذَّاتُ الَّذِي لَيْسَ كمثلها ذَات وَبِذَلِك نَقْطَع

الطَّرِيق أَيْضًا عَلَى محاولاتنا الْعَقْلِيَة الَّتِي تُحَاوِل الْبَحْثُ فِي كُنْهِ هَذِه الذَّات وينتج عَنْهَا آرَاءٍ كَثِيرَةٍ بَلْ فلسفات أَن قناعتنا رَاسِخَةٌ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَارِج حُدُود الْقَوَانِين وَالْمَخْلُوقَات الَّتِي خَلَقَهَا وأوجدها فَكَيْفَ لَنَا أَنْ نبحث عَنْهُ ضَمِنَ دَائِرَتِهَا وَهُوَ خَارِجٌ هَذِه الدَّائِرَة بِكَمَالِه وَتَمَامُه .

لِذَلِك تَيَقَّن أَكْثَر الْفَلَاسِفَة المثاليين مِنْهُم والماديين مِنْ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَى الْعَقْلِ الْبَشَرِيّ إِدْرَاك اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنَّ الْبَحْثَ فِي الْمُسْتَحِيلَاتِ هُوَ ضَرْبٌ مِنْ الْجُنُونِ .

وَهُنَاك نَصّ قُرْآنِيٌّ يفيدنا أَكْثَرَ فِي الْوُصُولِ إِلَى هَذَا الِاسْتِنْتَاج الْأَخِير

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد : 13]

وَ المِحَالُ لُغَة الكَيْدُ

المِحَالُ القُوَّةُ

المِحَالُ : التَّدبيرُ

سنستثني التَّعْرِيفِ الْأَوَّل لِأَنَّهُ لَا يَتَطَابَق مَعَ تَعْرِيف الْمُحَالَ فِي النَص أَعْلَاه فَيُصْبِح الْمَفْهُومُ مِنْ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ يُجَادِلُون فِي حَقِيقَةِ قُوَّته وَعِلْمِه وَقُدْرَتِه وَهُوَ هُوَ أَمْرٌ يَسْتَحِيلُ أَنْ يُصَلُّوا إِلَيْهِ لِأَنَّهُ شَدِيدُ الْقُوَّةِ وَالتَّدْبِير ولايمكن لعقل بِشَرِّي الْوُصُولِ إِلَى مَاهِيَّته وَتَصَوُّر قُدْرَته وَقُوَّته .

الأوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الحديد : 3

أَنَّ من صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَرَدَت مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ التي ذكرناه أعلاه .

هَذِهِ الْآيَةِ فِيهَا إثْبَاتِ صِفَةِ الْأَوَّلِيَةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصْفِه الْآخِرِيَّة ، وَالظَّاهِرِيَّة وَالْبَاطِنِيَّة ، وَهَذِهِ أَرْبَعٌ صِفَات فَسَّرَهَا النَّبِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفسيراً يُبَيِّنْ مَعْنَاهَا ، وَذَلِكَ فِيمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللهمّ : أنتَ الأوّلُ الذي ليسَ قبلكَ شيء ، وأنتَ الآخرُ الذي ليسَ بعدكَ شيء ، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقكَ شيء ، وأنت الباطنُ فليسَ دونكَ شيء .

أَغْلَب التَّفْسِيرَات الْمَعْرُوفَة اتَّفَقَتْ عَلَى رَأْيِ وَاحِدٍ يَقُولُ :

فَالْأَوَّلُ هُوَ السَّابِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْس قَبْلَه شَيْءٌ ، قول الرسول الكريم : (اللهم أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَك شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَك شيء) ، فَهُو الْآخَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَلَه الْآخِرِيَّة الْمُطْلَقَة ؛ لِأَنَّه الدَّائِم بِلَا انْتِهَاءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَهُوَ الظَّاهِرُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ ، وَالْبَاطِنُ الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ ، وَكُلّ اثْنَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْأَرْبَعَة مرتبطان ، فَالْأَوَّل وَالْآخَر مرتبطان وَبِهِمَا يَحْصُلُ كَمَالِ الْمَعْنَى ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ مرتبطان وَبِهِمَا يَحْصُلُ كَمَالِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ إثْبَاتُهُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَالْأَوَّل وَالْآخَر فِيهِمَا

إِثْبَات الْإِحَاطَة الزَّمَانِيَّة لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ فِيهِمَا إِثْبَات الْإِحَاطَة الْمَكَانِيَّة له جَلَّ وَعَلَا .

وَيَدُلّ مَعْنَى الْأَوَّلِ وَالْآخِرُ هُنَا عَلَى مَفْهُومٍ أَوَجدْته الْفَلْسَفَة وَهُوَ الْقِدَمُ والأزلية فَالْأَوَّل الْقَدِيمُ هُوَ الْمَوْجُودُ الَّذِي لَا ابْتِدَاءُ لِوُجُودِهِ ، والأزلي مَا لَا أَوَّلَ له عَدَمِيًّا أَو وُجُودِيًّا فكلّ قَدِيمٍ أَزَلِيّ وَلَا عَكْسَ .

وَبِهَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا هُنَاكَ حَدِيثًا نَبَوِيًّا وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ بِلَفْظ : "كان اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلّ شيء" .

فَالْأَوَّلُ هُوَ الَّذِي أَوْجَد كُلَ شَيْءٍ بَعْدَهُ فَهُوَ الْخَالِقُ وَكُلّ الْأَشْيَاء لَمْ تكُنْ مَذْكُورًا ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم : 67] ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم : 9] ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ [الإنسان .

الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ

لَقَد وُجِدَت تَفْسِيرًا مهما ومقبولا وَأَنَا ابْحَثُ عَنْ تَعْرِيفِ السَّلَف لِلظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ هُوَ :

فَالظَّاهِر بِوُجُودِه لِكَثْرَة دَلَائِله ، وَهُوَ الْبَادِئُ بِالْأَدِلَّة عَلَيْهِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْحَدَ وُجُودِه ، وَهُوَ الظَّاهِرُ بِحُجَجِه الْبَاهِرَة ، وَبَرَاهِينِه النَّيِرَة ، وَشَوَاهِد إِعْلَامُه الدَّالَّةِ عَلَى ثُبُوتِ رُبُوبِيَّته وَصِحَّة وَحْدَانِيَته ، وَقِيل : هُوَ الظَّاهِرُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلَ شَيْءٍ ، وَالظَّاهِر لِكُلَ شَيْءٍ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ والكونية ، فَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ كُلَّ الْكَائِنَات الْمَوْجُودَات لِتَظْهَر آثَار قُدْرَتِه فِيهَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ ظَاهِر عَلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ "فأينما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله"فالكون كُلِه بِمَا فِيهِ وَمِنْ فِيهِ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِر أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَعَلَامَاته

وَقِيل : هُو المتجلي بِأَنْوَار هِدَايَته وَآيَاته ، الْمُتَنَزّه بِمَعَانِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَلَا تَرَى ذَرَّةٍ فِي الْوُجُودِ إِلَّا وَهِيَ نَاطِقَةٌ بِوَحْدَانِيَّة الْمَعْبُود ، وَلَا تَرَى فاضلاً متخلقاً بِصِفَات الرِجَالُ إِلَّا وَتَشَهَّد عَلَيْه أَنْوَار صِفَات الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ . هُوَ الظَّاهِرُ فَلَا يَخْفَى عَلَى كُلّ مُتَأَمل ، وَهُوَ الظَّاهِرُ لِعُيُون الْأَرْوَاح ، المتجلي بِأَنْوَار الْفَتَّاح ، فالكون مَمْلُوءٌ بِالْجَمَال مُحَلًّى بِالْكَمَال .

وَأَمَّا "الباطن"سُبْحَانَه فَمَعْنَاه المحتجب عَنْ عُيُون خَلْقه لِشِدَّة ظُهُوره وَالْبَاطِن بِكُنْهِ ذَاتِهِ عَنْ إِدْرَاكِ الْعُقُول وَالْإِفْهَام وَذَكَر الرَّازِي عِدَّة تَعْرِيفَات لِلْبَاطِن : الْأَوَّل ، أَنَّهُ تَعَالَى بَاطِنٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّ كُنْه حَقِيقَتِه غَيْرُ مَعْلُومٍ لِلْخَلْق . الثَّانِي ، أَنَّهُ بَاطِنٌ بِمَعْنَى أَنَّ الْأَبْصَارَ لَا تُحِيطُ بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَام : "لا تُدْرِكُه الأبصار" . الثَّالِث ، أَنَّهُ بَاطِنٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا بَطَنَ . الرَّابِع ، أَنَّهُ بَاطِنٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ حَجَب الْكَافِرِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَرُؤْيَتِه ، وَحَجَب الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا عَنْ رُؤْيَتِهِ .

هُنَاكَ نَصٌّ قُرْآنِيٌّ يفيدنا فِي إِعْطَاءِ صِفَتَي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ حَقَهمَا فِي التَّفْسِيرِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ [لقمان : 20]

فَالنَعَم الظَّاهِرَة كَثِيرَةٌ جِدًّا لَكِنَّنَا نجهل النَعَم الْبَاطِنَة لِأَنَّهَا غَيْرُ ظَاهِرَةٍ أَيْ بَاطِنِه مِنْ هُنَا نَسْتَطِيع الْقَوْل وَنَحْن مطمئنين أَنَّ صِفَةَ الظَّاهِر تَعْنِي أَنَّ مَنْ يُرِيدُ مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَالْإِيمَانُ بِهِ فَهُوَ ظَاهِرٌ لِلْعِيَان بِما خُلِقَ فَكُلّ ماحولنا مِنْ خَلْق هُوَ ظَاهِرُ وَيَدُلّ بِوُضُوح عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الظَّاهِرُ فِي خَلْقِهِ .

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سبأ :47] أَيْ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدٌ وَشَاهِد عَلَى اللَّهِ .

لَكِنْ لَيْسَ كُلُّ مانراه ونعرفه وندركه مِنْ الظَّاهِرِ أَوْ الظَّوَاهِرِ هُو مِرْآة لِلَّهِ أَوْ لِخَلْقِه بَلْ إِنْ هُنَاكَ أُمُور لَم تَرَاهَا أَعْيُنِنَا أَوْ لَمْ تُسْمَعْ بِهَا أَذَانُنَا أَوْ تَخْطُرَ عَلَى بَال بِشْر فَهِي مُخْفِيه بَاطِنِه عَنَّا وَاَللَّه وَحْدَه يَعْلَمْ بِهَا وَيَعْلَم الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي يَعْلَمُهَا اللَّهِ مَا تُخْفِيهِ الْأَنْفُس وماتوسوس بِه وَخَلْقُ اللَّهَ الَّذِي لَا نَعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا وَمِثْلَهَا قَوْله تَعَالَى ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه :7]

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 8]

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عِمْرَان : 5]

﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عِمْرَان : 29]

فَالْخَلْق الَّذِي لَا نَعْلَمُهُ هُوَ بَاطِنٌ عِلْمِ اللَّهِ وَالْبَاطِن مَخْفِيّ تَمَامًا عَنَّا يَتَقَارَب مَعْنَاهُ هُنَا مَعَ مَعْنَى الْغَيْب

فالباطن أَمَر غَائِبٌ عَنّا فَهُوَ مَخْفِيّ وَكَذَلِك الْغَيْب وَمَا أَكْثَرُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَذَكَّرْنَا بأننا لَا نَعْلَمُ الْغَيْب وَاَللَّه وَحْدَه يَعْلَمُ ذَلِكَ .

وَهُنَاكَ مَنْ وَسَّعَ كَلِمَة الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَأَلْصَق بِهَا النُّصُوص الْقُرْآنِيَّة الَّتِي صَيَّرُوا مَعَانِيهَا إِلَى ظَاهِرِه مَكْشُوفَة لِأَغْلَبِ النَاسِ وَبَاطِنُه مَسْتُورَةٌ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهَا إِلّا اللَّهُ لَكِنَّهُمْ يضيفون أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهُم الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ وَمُنْذ تِلْكَ اللَّحْظَةَ صَنَعُوا مَا يُسَمَّى بِالْمَذْهَب الْبَاطِنِيّ .

الْوَاحِد

﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾غافر : 16

وَالْوَاحِدُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْفَرْدِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَحْدَهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ آخَرُ .

وَرَد اسْمُ الْوَاحِدِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ (الواحد) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي 22موضعًا ، حَيْثُ ذَكَرَ بِلَفْظٍ (الواحد) فِي 6مَوَاضِع ، وَبِلَفْظ (واحد) فِي 12موضعًا ، وَبِلَفْظ (واحدًا) فِي 3مَوَاضِع ، وَبِلَفْظ (لواحد) فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَأَكْثَرُ مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ صِفَةُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

قِيل : الْقَهَّار لَا يَكُونُ إِلَّا وَاحِدًا ، وَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ ، بَل الْقَهْر وَالْوَحْدَة مُتَلَازِمَان ، فَالْمِلْك وَالْقُدْرَة وَالْقُوَّة وَالعِزَّة كُلُّهَا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَمَنْ سِوَاهُ مَخْلُوقٌ مقهور" . وَقَالَ السَّعْدِيُّ : "كل مَخْلُوقٌ فَوْقَه مَخْلُوقٌ يَقْهَرَه ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْقَاهِر قَاهِرٌ أَعْلَى مِنْهُ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ القهْر لِلْوَاحِد القهَّار ، فالقهْر وَالتَّوْحِيد مُتَلَازِمَان متعينان لِلَّه وحده" .

و"القهار"هُوَ الَّذِي يدبّر خَلْقه بِمَا يُرِيدُ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ ردّ تَدْبِيره وَالْخُرُوج مِنْ تَحْتِ قَهْرِهِ وَتَقْدِيرُه ، وَهُوَ الَّذِي أَسْلَمَ وَخَضَع لَهُ كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عِمْرَان : 83) .

. "القهار"عَزَّ وَجَلَّ : يَقْهَر وَلَا يُقهَر ، وَهُوَ الَّذِي قَهَر الْخَلْقُ كُلُّهُمْ بِالْمَوْت ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ رَدِّهِ أَوْ دَفْعَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء

أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ (الأنعام : 61–62) .

أَحَدٌ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ (الأحد) بِلَفْظ (أحد) فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وهو سورة الأخلاص.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالْأَحَدِ أَن الْأَحَد بَنِي لِنَفْيِ مَا يُذْكَرُ مَعَهُ مِنْ الْعَدَدِ ، تَقُول : مَا جَاءَنِي أَحَدٌ ، وَالْوَاحِد اسْم بَنِي لمفتتح الْعَدَد ، تَقُول : جَاءَنِي وَاحِدٍ مِنْ النَاسِ وَلَا تَقُولُ : جَاءَنِي أَحَدٌ ، فَالْوَاحِد مُنْفَرِدٌ بِالذَّاتِ فِي عَدَمِ الْمِثْل وَالنَظِير ، وَالْأَحَد مُنْفَرِدٌ بِالْمَعْنَى .

وَقِيل : الْوَاحِد هُوَ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ وَلَا يُثَنَى وَلَا يُقْبَلُ الِانْقِسَامَ وَلَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا يُجْمَعُ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى .

يَقُول البوطي رَحِمَهُ اللَّهُ : الْأَحَد أَن لايكون مُؤَلَّفًا مِنْ أَجْزَاءِ لِأَنَّ لَيْسَ مُرَكَّبًا مِنْ أَجْزَاءِ لِأَنَّ كُلَّ مُرَكَّبٍ يَحْتَاجُ إِلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ أَمَّا غَيْرُ الْمُرَكَّب فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى أَيَ شَيْءٍ فَهُوَ يَكْفِي نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ .

الصَّمَد : الَّذِي يَحْتَاجُهُ كُلَ شَيْءٍ وَهُوَ لَا يَحْتَاجُ أَيَ شَيْءٍ

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاحِدٍ أَحَدَ وَعَرَفْنَا مَا تعنيه كَلِمَةُ أَحَدٍ وَهُوَ الَّذِي لايحتاج إِلَى شَيْءٍ وَهُوَ يَكْفِي نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ لِذَلِكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ يُولَدْ مِنْ شَيْءٍ أَيْ وُجُودَهُ كَما قُلْنَا قَائِمٌ بِذَاتِهِ

وَهَذَا لايعني أَنَّ صِفَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ تَنْطَبِقُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصِفَات الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ هِي

عِبَارَةٌ عَنْ جَوْهَرٌ لَا يَقْبَلُ التجزى لَا بِالْفِعْلِ وَلَا بِالْقُوَّةِ .

لِأَنَّ اللَّهَ منزَّهٌ عَن الحدّ هَذَا مَعْنَاهُ لأَنَّ اللَّهِ لَوْ كَانَ جوهرًا فَردًا لكانَ الجوهرُ الفردُ مِثلًا لَه ، وَلَو كانَ زائِدًا عَلَى ذَلِكَ إِلَى حَدّ أكبرِ الأجرامِ وَهُو العرشُ أَو أَزيَدَ إِلَى قَدر يتناهَى أَوْ إِلَى قَدرٍ يُفتَرَضُ أَنَّهُ لَا يَتَنَاهَى لَلزِمَ كونُه مؤلفًا أَي مركَّبًا والمؤلَّفُ يحتاجُ إِلَى المؤلّفِ والمحتاجُ إِلَى غيرِهِ حادِثٌ لَا بُدَّ ، وَهَذَا قولُ عليّ بنِ أَبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّه عنهُ : "مَن زَعَمَ أَن إلهنَا محدودٌ فَقَد جَهِلَ الخالقَ المعبودَ"رَوَاهُ أَبُو نُعيم ، وقولُ عليّ بْن الحسينِ بنِ عليّ بْنِ أَبِي طالبٍ رضيَ اللَّه عنهُم : "إِنَّ اللَّه ليسَ بمحدودٍ"سلامةَ الطحاويّ : "تعالى – أَيْ اللَّهُ – عَن الحدودِ"، وَلِذَلِك استحالَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يكونَ متَّصلا بالعالمِ أَوْ حَالًا فِيهِ أَوْ مباينًا لَه بالمَسافةِ ، وَهَذَا هُوَ الحقُّ الَّذِي لَا يَصِحُّ غيرُهُ ، وَذَلِك لأَنَّ المخلوقاتِ إِمَّا أَنْ تكونَ متَّصِلَةً ببعضِها أَو منفصلةً بعضُها عَن بعضٍ وكِلا الوجهينِ مستحيلٌ وصفُ اللَّه بِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَلزمُ مِنْه إثباتُ المِثلِ لِلَّه ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نفَى عَن نفسِهِ المثلَ عَلَى الإطلاقِ .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَيْ لَيْسَ لَهُ مَثِيلٌ وَلَا شَبِيهَ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

. كُفُؤًا : مكافئاً و نظيراً .

الْحَيُّ الْقَيُّومُ

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (سورة البقرة)

وَقَالَ تَعَالَى : الَم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (سورة آل عمران)

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (سورة طه) .

وَمَعْنَى الْقَيُّوم : الْبَالِغ النِّهَايَة فِي الْقِيَام بِتَدْبِير مِلْكه ، الْقَائِم بِذَاتِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، الْغَنِيُّ عَنْ غَيْرِهِ ، الْمُسْتَنِدِ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ ، فَهُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ، سببٌ وقوامٌ لِكُلِّ مَا عَدَاهُ ، وَلِهَذَا بُولِغَ فِي وَصْفِهِ بِالْقِيَام ، فَقِيل : (قيوم) سُبْحَانَه : قَائِمٌ بِذَاتِهِ ، مقوّم لِسِوَاه ، مستغني عَنْ غَيْرِهِ ، وَلَا غِنَى لِغَيْرِه عَنْه ، إِذْ لَا قِوَامَ لِلْأَشْيَاء إِلَّا بِهِ ، فَهُو موجدها ومُقوّمها وَقَائِمٌ عَلَيْهَا ، ومؤثر فِيهَا . لَهُ صِفَاتُ التَّقْدِيس وَالْكَمَال ، وَالسُّمُوّ وَالْجَلَال .

جَاءَ فِي تَفْسِيرِ النُّكَت وَالْعُيُون لِلْمَاوَرْدِيّ أَنَّ اسْمَ اللَّهِ الْقَيُّوم فِيهِ سِتَّةُ تَأْوِيلَات :

أَحَدُهَا : الْقَائِم بِتَدْبِير خَلْقِه ، قَالَهُ قَتَادَةُ .

وَالثَّانِي : يَعْنِي الْقَائِم عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، حَتَّى يجازيها بِعَمَلِهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ عَالِمٌ بِهِ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، قَالَهُ الْحَسَنُ .

وَالثَّالِث : مَعْنَى الْقَائِم الْوُجُود ، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ .

وَالرَّابِع : أَنَّهُ الَّذِي لَا يَزُولُ وَلَا يُحَوَّلُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

وَالْخَامِس : أَنَّه الْعَالِم بِالْأُمُور ، مِنْ قَوْلِهِمْ : فَلَانٌ يَقُومَ بِهَذَا الْكِتَابِ ، أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِهِ .

وَالسَّادِس : أَنَّهُ اسْمُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ ، مَأْخُوذٌ مِنْ الِاسْتِقَامَة ،

و(الحي القيوم) جَمْعُهَا فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ كَمَا جَمَعَهَا اللَّهُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ فِي كِتَابِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا محتويان عَلَى جَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ ، فالقيوم هُوَ كَامِلٌ القيومية وَلَه مَعْنَيَان :

هُوَ الَّذِي قَامَ بِنَفْسِهِ ، وَعَظُمَت صِفَاتِه ، وَاسْتَغْنَى عَنْ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِه .

وَقَامَتْ بِهِ الْأَرْضُ والسماوات وَمَا فِيهِمَا مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَهُوَ الَّذِي أَوْجَدَهَا وَأَمَدُهَا وأعدها لِكُلَ مَا فِيهِ بَقَاؤُهَا وَصَلَاحُهَا وَقِيَامُهَا ، فَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْهَا مِنْ كُلَ وَجْهٍ وَهِيَ الَّتِي افْتَقَرَت إلَيْهِ مِنْ كُلَ وَجْهٍ ، فَالْحَيّ وَالْقَيُّوم مَنْ لَهُ صِفَةٌ كُلَّ كَمَالٍ وَهُو الْفَعَّالِ لِمَا يُرِيدُ .

القَيُّومُ – قَيُّومُ : صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ مِنْ قيَم بِمَعْنَى دَيْمُومَة الْقِيَام بِشَأْنِه وَشَأْن غَيْرِه فالقيم هُوَ الْقَائِمُ بِأَعْمَال كِيان مَا ، وَالْقَيُّوم صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ مِنْهَا بِمَعْنَى دَيْمُومَة القِيَام بِأَعْمَالِ هَذَا الكِيان وَالْإِمْعَانُ فِي ذَلِكَ . وَالْقَيم هُوَ السَّيِدُ ، وَالْقَيم هُو الْمُدِير ، قَيم الْمُؤَسَّسَة أمِينُهَا وَسَيِدِهَا وَمَن بِيَدِه أَمْرِهَا ، وَالْقَيُّوم مُبَالَغَةٍ مِنْ ذَلِكَ ، فمثلاً قَدْ يَكُونُ مَحَبَّة عَمَلِه تَغَلْغَلَت فِي أَعْمَاقِه فَهَيَّأ فِي مَكْتَبِهِ سريراً لَيَعْمَل عَلَى مَدَار الْيَوْم وَاللَّيْلَة ، يُتَابِع كُلَ قَضِيَّةٍ ، يَسْأَلُ عَنْ كُلَ جُزْئِيَّة ، يُعَالِج آيَةٌ مُشْكِلَةٌ ، يُتَابِع أَي مُوَظَّف ، يُدِير شُؤُون هَذِه الْمُؤَسَّسَة بِرِعَايَة وَعُلُوّ وَحُكْمه وَاخْتِصَاص وَرَحْمَة ، أَيْ إنْ مَحَبَّة هَذَا الْعَمَلِ سَارِيَةٍ فِي دَمِهِ ، هَذَا لَا يُقَالُ لَهُ قَائِمٍ أَوْ قَيِمٍ عَلَى هَذِهِ الْمُؤَسَّسَة بَلْ يُقَالُ لَهُ قَيُّوم عَلَيْهَا .

القَيُّومُ : القائمُ الحافظُ لِكُلَ شَيْءٍ . والقَيُّومُ اسمُ مِن أَسماء اللَّه الحسنَى .

القيّوم : الدّائم الْقِيَام بِتَدْبِير الْخَلْق .

الْقَيُّوم : الدَّائِم الْقِيَام بِتَدْبِير خَلْقِه وَحِفْظِهِم .

الْقَيُّوم : مَنْ لَا تَقُومُ الْأَشْيَاءِ إِلَّا بِهِ ، وَلَو سَلَبَهَا وُجُودِهَا لتلاشت ، فتيار الْوُجُود يجيئها مَدَدًا بَعْدَ مَدَدٌ مِنْ الْحَيّ الْقَيُّومُ ، فَمِنْه الْإِيجَاد وَالْإِمْدَاد جَمِيعًا ، سُبْحَانَهُ هُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِه وَالْمُقِيم لِغَيْرِه ، فَهُو الْقَيُّوم الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .

الْخَالِق الْبَارِئ الْمُصَوِّر

اسْمُ اللَّهِ الْمُصَوِّر هُوَ أَحَدُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى ، وَمَعْنَاه : الَّذِي خَلَقَ خَلْقَهُ كَيفَ شَاءَ ، وَصُوَر جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ وَرَتَّبَهَا فَأَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا صُورَةٌ خَاصَّة وَهَيْئَة مُفْرَدَةٌ يَتَمَيَّزُ بِهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا وَكَثْرَتِهَا ، وصوّر كُلَ صُورَةٍ لَا عَلَى مِثَالٍ احْتَذَاه وَلَا رَسْمَ ارتسمه .

وذُكر فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَي : هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَجَاءَ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ مَرَّاتٍ فَقَالَ تَعَالَيْ : « هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيفَ يَشَاءُ » « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ » « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ »

الْفَرْقُ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْبَارِئ وَالْمُصَوِّر

الْخَالِق أَي الْمُبْدِع لِلْخَلْق الْمُخْتَرِع لَهُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ .

الْبَارِي أَيْ الْمُنْشِئ لِلْأَعْيَان مِنْ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ وَالْبَرْء هُو الفري وَهُو التَّنفِيذ وَإِبْرَاز مَا قَدَّرَهُ وَقَرَّرَه إِلَى الْوُجُودِ .

الْمُصَوّر أَيْ الَّذِي يَنْفُذُ مَا يُرِيدُ إِيجَادُهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا .

قَوْله تَعَالَى : (الخالق الْبَارِي المصور) أَيْ الَّذِي إِذَا أَرَادَ شيئاً قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُ ، وَالصُّورَةِ الَّتِي يَخْتَارُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ٨﴾[الانفطار : 8] وَلِهَذَا قَالَ : الْمُصَوِّر ، أَيْ الَّذِي يَنْفُذُ مَا يُرِيدُ إِيجَادُهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا .

الْمُبدئ : الَّذِي بَدَأَ الْخَلْق وأوجده مِنْ الْعَدَمِ .

الْمُعِيد : الَّذِي يُعِيدُ الْخَلْقِ إِلَى الْمَوْتِ وَالْكَوْن إِلَى ماكان عَلَيْهِ قَبْلَ خَلْقِه .

قولُه تعالَى : إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ [يونس : 4] .

قولُه : اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [الروم : 11] .

قَولُه : إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ [البروج : 13] .

كَمَا قَالَ تَعَالَى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم : 27]

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء : 104

الْقَادِر : الْمُتَفَرّد باختراع الْمَوْجُودَات .

الْمُقْتَدِر : الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ

الْمَلِك : المتصرّف فِي مِلْكِهِ كَمَا يَشَاءُ

الْقُدُّوس : الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلَ وَصْفٍ يُدْرِكُه حسٌ أَو خَيَالٌ .

السَّلَام : السَّالِمُ مِنْ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ والناشر سَلَامَتِه عَلَى خَلْقِهِ .

الْمُؤْمِن : الْمُصَدَق نَفْسِه وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ فِيمَا يَقُولُونَهُ عَنْه .

الْمُهَيْمِن : المسيطر عَلَى كُلَ شَيْءٍ بِكَمَالِه وَقُوَّتِه .

الْعَزِيز : الْغَالِبَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ .

الْجَبَّار : الْمُنْفَذ مَشِيئَتِه عَلَى سَبِيلِ الْإِجْبَار وَالْجَبْر .

المتكبر : الْمُتَفَرّد بِصِفَات الْعَظَمَة وَالْكِبرِيَاءَ

الْحَقّ : خَالِقُ كُلَ شَيْءٍ بِحُكْمِه

الْمَلِك : المتصرّف فِي مِلْكِهِ كَمَا يَشَاءُ .

الْقُدُّوس : الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلَ وَصْفٍ يُدْرِكُه حسٌ أَو خَيَالٌ .

الْعَقْل وَالْقَلْب

مَا هُوَ الْعَقْلُ وَكَيف يَعْمَل وَهَل الْقَلْبِ أَيْضًا لَهُ عَقْلٌ أَوْ فَهْمٍ وَإِذَا كَانَ لَهُ ذَلِكَ فَلِمَاذَا يَخْتَلِفَان ؟

الْعَقْل وَاحِدٍ مِنْ الْمَجَالات الْمُثِيرَة وَالْمُهِمَّة والشائكة الَّتِي يَتَنَاوَلُهَا الْبَاحِثُون بِالدَّرْس وَالْفَحْص وَالنَّقْدُ فِي الْفَلْسَفَةِ ، عِلْمِ النَّفْسِ ، عَلِم الْأَعْصَاب ، الذَّكَاء الِاصْطِنَاعِي ، وَالْعِلْم الإدراكي ، وَالْحَقُّ أَنَّ التَّفَلْسُف حَوْل الْعَقْل قَدِيمٌ قَدِم الْفَلْسَفَة ، وَلَكِن فَلْسَفَة الْعَقْل بِوَصْفِهَا فَرْعًا فلسفيا وَاضِحٌ الْمَوْضُوعَات وَالْمُشْكَلَات والمناهج وَالنَظَرِيَّات لَمْ تَعْرِفْ إلَّا فِي النَصْفِ الثَّانِي مِنْ الْقَرْنِ العِشْرِينَ ، و يُمْكِن لِكُلَ شَخْصٍ إنْ يُرِيَ مُبَاشَرَة أَنَّ الْعَقْلَ مَرْكَزِيٌّ فِي حَيَاتِنَا ، إنْ عَمِلَ الْعَقْل ، الواعي واللاواعي ، الْحُرَ وَغَيْرِ الْحُرَ فِي الْإِدْرَاكِ وَالْفِعْل ، وَالْفِكْر وَالشُّعُور وَالتَّأَمُّل والذاكرة وَفِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ الْأُخْرَى ، لَا يُمَثِّلُ نَاحِيَةٍ مِنْ حَيَاتِنَا بَل جزء كبير من حَيَاتِنَا .

طَبِيعَة الْعَقْل

تُثِير طَبِيعَة الْعَقْل جُمْلَة تساؤلات أبرزها : مَا هَذَا الشَّيْءَ الَّذِي نُسَمِيهِ الْعَقْلُ هَلْ هُوَ شَيْءٌ فِيزيائِي مِثْل الْمُخ ، أَم أَنَّهُ شَيْءٌ غَيْرُ فِيزيائِي ؟ وَهَلْ هُوَ شَيْءٌ عَلَيَّ الْإِطْلَاق ؟ وَهَلْ مِنْ الْأَفْضَلِ فَهِمَه عَلِيَ أَنَّهُ "عملية" أَوْ مَجْمُوعَةً مِنْ "الوظائف" مِنْ النَظَرِ إلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ شَيْءٌ ؟

يُطْرَح التَّمْثِيل الْعَقْلِيّ سُؤَالًا جوهريا : كَيف يُمَثّل الْعَقْل الْأَشْيَاء ؟ الْإِجَابَة عَنْهُ فِي التَنظَرِ إِلَيّ قَضِيَّتَيْن هُمَا الْوَعْي والقصدية ، وَفِي الْوَعْي نتساءل : مَا الْوَعْي وَكَيف يَرْتَبِط الْوَعْي بِالْعَالِم الفيزيائي ؟ وَمَا أَنْوَاع الْأَشْيَاءِ الَّتِي تكُونُ وَاعِيَة ؟ كَيف نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ مَا إِذَا كَانَ الشَّيْءُ وَاعْيَا ؟ وَهَل الْوَعْي ظَاهِرُه وَاحِدَةً أَمْ ظَوَاهِر كَثِيرَةٌ ؟ وَمَا وَظِيفَة الْوَعْي ؟ وَمَا نَظَرِيَّات الْوَعْي ؟ وَفِي الْقَصْدِيَة نتساءل مَا الْقَصْدِيَّة ؟ وَمَا الْحَالَات الْقَصْدِيَّة ؟ وَهَلْ كُلُّ الحَالاَتِ الْعَقْلِيَّة تَظْهر الْقَصْدِيَّة ؟ كُلَ الحَالاَتِ الْعَقْلِيَّة وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَظْهَرُ الْقَصْدِيَّة ؟ وَمَا عِلاقَة الْقَصْدِيَّة بالوعي ، وَالسُّؤَال الرَّئِيسُ فِي مُشْكِلِهِ الْعَقْل وَالْجِسْم هُو : كَيف يَرْتَبِط الْعَقْل بِالْجِسْم ؟ وَتَتَفَرَّع عَنْهُ أَسْئِلَةٌ أَخَرِي مِنْ قَبِيلِ : مَا الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْخَصَائِص الْعَقْلِيَّة وَالْخَصَائِص الفيزيائية ، وَمَا عِلاقَة الْمُخ بِالْعَقْل ؟

عَلَيْنَا أَنْ نَسْأَلَ : مَا الَّذِى فِى الْبَشَر يَجْعَلُهُم جنساً خاصاً

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَفَوّق الألة عَلَى الْإِنْسَانِ فِي أُمُورٍ عَدِيدَة ، إِلَّا أَنَّهُ تَظَل مِنْطَقَة الْإِدْرَاك الْبَشَرِيّ مِنْطَقَة شَدِيدَة الْخُصُوصِيَّة والتعقيد ، وَيَصْعُب عَلَى الحواسيب الْوُصُولِ إِلَى تَكْوِين إِدْرَاك عَلَى شَاكَلَه الْإِدْرَاك الْبَشَرِيّ ، فَالْعَقْل الْبَشَرِيّ مثلاً قَادِرٌ عَلَى اسْتِيعَابِ الْأَوَامِر بِسُرْعَة فَائِقَةٌ مُقَارَنَة بالحاسب مِثْل التَّحَرُّك

إِلَى الْيَمِينِ أَوْ الْيَسَارِ . فَهِى حَرَكَات بَسِيطِه وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى مَجْهُود كَبِيرٌ لَدَيّ الْعَقْل الْبَشَرِيّ ، فِى حِين أَنَّهَا تَمَثَّل عَمَلِيَّاتٍ حِسَابِيَّةٍ ضَخْمَةٌ دَاخِلٌ الحواسيب .

أَن نَظَرِيَّة التَّمْثِيل المعرفي تَمَثَّل خَطَوُه نَحْو مُحَاوَلَة تَقْلِيد الْعَقْل الْبَشَرِيّ خِلَال الْبَيَانَات الْمَعْلُومَاتِيَّة وَإِظْهَار كَيف يَتَعَامَل مَعَهَا الْعَقْل الْبَشَرِيّ الطَّبِيعِيّ ، وَمَعَ ذَلِك لَا تَسْتَطِيعُ هَذِه النَظَرِيَّة إِنْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرَاتٌ دَقِيقَةٌ وَصَادِقَةٌ بِشَكْل كَامِل حَوْل مَا يَتَعَلَّقُ بالنظرية الْإِنْسَانِيَّة وَحَوَّل التَّجَارِب الْإِنْسَانِيَّة وَالْمَعَارِف الْبَشَرِيَّة وَالرَّغَبَات الْمَوْجُودَة دَاخِلٌ الْعَقْل الْبَشَرِيّ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ فِطْرِيَّة والتجارب الْإِنْسَانِيَّة قَائِمَةً عَلَى نَوْعٍ مِنْ الخلايا الْحِسَيَّة والعصبية الَّتِى تَعَدّ ضَمِن مميزات الْعَقْل الْبَشَرِيّ .

يَقُول جِيمس تريفيل فِي كِتَابِه هَل نَحْن بِلَا نَظِير تَرْجَمَتِه لَيْلَى الموسوي وَهُوَ كِتَابٌ مُفِيدٌ وَقِيم

((يُطْرَح هَذَا الْكِتَاب سُؤَالًا مخيفا وتحديا شَاقًّا : فَكَيف نَسْتَطِيعُ أَنْ نبرهن عَلَى تَفَرَّد الْإِنْسَانُ عَنْ غَيْرِه دُونَ أَنْ نلجأ إِلَى الجَدَل الْفَلْسَفِيّ والميتافيزيقي ؟ وَأَنَّى لَنَا أَنْ نُثْبِتَ هَذَا التَّفَرُّد بِاتِبَاع الْمَنْهَج الْعِلْمِيّ الَّذِي يَعْتَمِد النَظَرِيَّات الَّتِي يُمْكِنُ امْتِحَان صِحَّتِهَا وخطئها بِالتَّحْلِيل المادي ؟ ويقترح تريفل أَنَّ جَوَابَ هَذَا السُّؤَالِ يَكْمُن فِي دِرَاسَة الدِمَاغ الْبَشَرِيّ وَمُقَارَنَتُه بِالْحَيَوَانَات مِنْ جِهَةِ ، وبالكمبيوترات الحَدِيثَة مِنْ جِهَةِ أُخْرَى ، إذ يُجَادِل بِأَنَّ الْعَقْلَ الْبَشَرِيّ هُو السَمَة الْمُمَيَزَة للبشرية ، وَمُخْتَلَفٌ عَنْ بَقِيَّةِ الْحَيَوَانَاتِ ، لَيْس فَقَطْ فِي الدَّرَجَةِ بَلْ فِي النَوْعِيَّة ، مَعْقِد لِدَرَجَة الِاخْتِلَاف نَوْعِيًّا عَن الكمبيوترات الَّتِي تُصْنَعُ بِفَضْل هَذِه القدرات الذَهْنِيَّة ، وَيُنْكِر أَنْ يَصِلَ الكمبيوتر فِي أَيَ زَمَنَ إِلَى كَامِل قَدَرَه الْعَقْل الْبَشَرِيّ الْفِكْرِيَّة . وَيَرَى أَنَّهُ فِي تَرْسِيم هَذَا الِاخْتِلَافِ تَكْمُن الْوَسِيلَة لِتَقْدِيم الْبُرْهَان الْعِلْمِيُّ عَلَى تَفَرَّد الْإِنْسَان ، فيلجأ إِلَى سَرْدِ الْأَدِلَّة بِطَرِيقه مُنَظَّمَة ، يُحَاوِل مِنْ خِلَالِهَا تَرْسِيم الْحُدُودَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ ، وَبَيْن الْإِنْسَان وَالْإِلَه ،

فَيُقَدِّم أَدِلَّة مُقْنِعِهِ مِنْ تَارِيخِ التَّطَوُّر العضوي ، وَعُلِم النَّفْس ، وَعُلُوم الكمبيوتر ، وَالْفَلْسَفَة ، ونظرية التَّعْقِيد ، عَارِضًا ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ أَمْثِلَةٌ منتقاة بِذَكَاء ، وحاصرا الْبَحْث بِالنَّظَرِ فِي الدَمَاغِ الْبَشَرِيّ مِنْ الْجَوَانِبِ التَّرْكِيبِيَّة والوظيفية)) .

تَخْتَلِف النَظَرِيَّة الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ النَظَرِيَّة الحَاسُوبِيَّة لِلْعَقْل وَالنَظَرِيَّة التَّمْثِيلِيَّة لِلْعَقْل كَيْفِيَّة إِنْجاز التَسيج الْعَصَبِيّ للمهام الَّتِي يُنْجِزُهَا بِكُلّ تَأْكِيدٌ : مِثْل الْإِدْرَاك الْحِسَيّ وَالتَّفْكِير الْمَنْطِقِيّ وَاتِخَاذ القَرارَات وَاكْتِسَاب اللُّغَة وَغَيْرِهَا . بناءً عَلَى حَالِهِ الْجَهْلُ الَّتِي نعيشها الآن ، سَيَكُونُ مِنْ التَّسَرُّع التَّأْكِيدِ عَلَى أَنَّ الدَمَاغَ لَا يُطَبَق أَيَ شَيْءٍ مُمَاثِل كلحوسبة مَثَلًا .

مَاذَا نَفْهَم مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِيْ بمجمله مَأْخُوذٌ مِنْ أَقْوَالِ وفلاسفة غربيين ؟

أَنَّ الْعَقْل شَيْءٌ وَالدَمَاغ شَيْءٌ آخَرُ فالدماغ هُوَ جُمْلَةُ الْأَعْضَاءِ الحيوية الوظيفية الَّتِي تُعْمَلُ عَبّر مَا يُسَمَّى بالشبكات الْعَصَبِيَّة الَّتِي تَبْلُغُ مليار خَلِيَّةٌ عِنْدَ الْإِنْسَانِ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُشْبَه بِعَمَل الكمبيوتر فَفيه أَي الدَمَاغ

الهارد والذواكر والمعالجات وَغَيْرِهَا الَّتِي تُعْمَلُ كَوَحْدَة وَظِيفِيَّة مُتَكَامِلَةٌ وَإِذَا كَانَ الْمُعَالِج هُو الْمَسْؤُولُ عَنْ مُعَالَجَة الْمَعْلُومَات وَالْبَيَانَات فَوَظِيفَة الْعَقْلُ لَا تَنْحَصِرُ فِي ذَلِكَ بَلْ تتفوق عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مَرْكَز القِيادَة الرَّئِيسِيّ والمسؤول عَنْ التَّوْجِيهِ والأولويات وَإِعْطَاء القَرارَات بِسُرْعَة رَهِيبَةٌ وَقَدْ تكُونُ قَرَارَاتٌ مبتكرة لَا تُتَّخَذُ بِمُوجَب المعطيات وَالْمَعْلُومَات المتوفرة بَلْ قَدْ يُخَالِفُهَا .

فَالْعَقْل وَكَأَنَّهِ يَعْمَل خَارِج النِّظَام المادي الوظيفي لِذَلِك سَمَّاهَ الْبَعْض بِالرُّوح أَوْ الْعَقْلِ الْمُطْلَق وَبِهَذَا الْعَقْل تتميز عَنْ كُلَ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ الْحَيّة وَعَنْ كُلَ مُبْتَكَرَات الْإِنْسَانِ الَّتِي تُحَاوِل بِنَاء شَبِيهٌ ذُكَي أُطْلِقَ عَلَيْه الذَّكَاء الإِصْطِناعِي .

وَهَل يَعْنِي هَذَا أَنَّهُ هُنَاكَ إِمْكَانِيَّةٌ أَنْ يَعْمَلَ الْعَقْل خَارِج الدِّمَاغ بِصُورَة مُسْتَقِلَّةٌ ؟

الْجَوَابُ عَلَى ذَلِكَ نَعَمْ لَكِنْ لَيْسَ هُنَاكَ دَلِيلًا مُبَاشِرًا عَلَى عَمَلِهِ هَذَا إِنَّمَا نستبطه مِنْ أثاره فَالرِّيَاح لَا يُمْكِنُ رُؤْيَتُهَا وَلَا طَعْمٌ أَوْ لَوْنٍ لَهَا لَكِنَّهَا نَعْرِفُهَا مِنْ أَثَارِهَا عَلَيْنَا أَنْ نَفْهَم ماهُو الْعَقْل الْبَاطِن لِكَي نَعْرِف كَيف يَعْمَل الْعَقْل خَارِج الدِمَاغ بِصُورَة مُسْتَقِلَّةٌ .

ماهُو الْعَقْل الْبَاطِن ؟

عُرِف الْعَقْل الْبَاطِن عَلَى أَنَّهُ مَجْمُوعِهِ مِنْ الْعَمَلِيَّاتِ المعقدة الَّتِي تَحْدُثُ دَاخِلٌ عَقْلِ الْإِنْسَانِ دونَ إِدْرَاك الْفَرْد لِحُدُوث هَذِه الْعَمَلِيَّات ، حَيْث تَتَمَثَّل هَذِه الْعَمَلِيَّات المُعقدة فِي اتَخَاذِ القَرارَات ، وإِصْدَار

الْأَحْكَامِ عَلَى مُخْتَلَفٌ الْمَوَاقِف الحياتية الَّتِي يَتَعَرَّضْ لَهَا الْإِنْسَان ، فَمَا هِيَ أَهَمّ الْمَعْلُومَات الْمُتَعَلَقَة فِي الْعَقْلِ الْبَاطِنُ عِنْدَ الْإِنْسَانِ ؟

حَقَائِق عَنْ الْعَقْلِ الْبَاطِنُ عِنْدَ الإِنْسَانِ

هُنَاك العَدِيدِ مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي ستصدمك عَنْ الْعَقْلِ الْبَاطِنُ عِنْدَ الْإِنْسَانِ ، وَفِي مَا يَلِي أَهَمّ هَذِهِ الْحَقَائِقِ :

الْعَقْل الْبَاطِن مَسْؤُولٌ عَنِ الأَحْلام

يُعتبر الْعَقْل الْبَاطِن الْجُزْء الْمَسْؤولُ عَنْ الْأَحْلَام الَّتِي تَرَاهَا ، حَيْثُ يَقُومُ الْعَقْل الْبَاطِن بِجَمْع الذَكْرَيَات ، وَالْمَوَاقِف الحياتية ، وتمثيلها عَلَى شَكْلِ أَحْلَام ، وَهَذَا مَا يُفَسَّرُ شعورنا بأننا قَدْ رَأَيْنَا الْمَوْقِفِ الَّذِي يَحْصُلُ مَعَنَا فِي الْوَاقِعِ بِحِلْم مَا .

طَرِيقَة التَّفْكِير

يُعتبر الْعَقْل الْبَاطِن الْمَسْؤُول الرَّئِيسِيّ عَنْ طَرِيقِهِ تَفْكِير الْفَرْد الْإِيجَابِيَّة ، أَو السَّلْبِيَّة ، حَيْثُ يَقُومُ الْعَقْل الْبَاطِن بتخزين كَافَّة أَفْكَار الْفَرْد ، وَآرَائِه ، ومعتقداته ، وبناءً عَلَى هَذِهِ الْبَيَانَات يُصدر الْعَقْل الْبَاطِن الْمَشَاعِر الْإِيجَابِيَّة ، أَو السَّلْبِيَّة الَّتِي نَشْعُر بِهَا ، وَلِهَذَا يُوَاجِه الْفَرْد صُعُوبَةً فِي تَغْيِيرِ نظرته إِلَى الْحَيَاةِ ، أَوْ فِي تَحْوِيلِ أَفْكَارِه السَّلْبِيَّة إِلَى أَفْكَار إِيجَابِيَّة ، حَيْث يسيطر الْعَقْل الْبَاطِن عَلَى طَرِيقَةِ التَّفْكِير عِنْد الْفَرْد دُون وَعْيِه بِذَلِك .

الْعَقْل الْبَاطِن مَسْؤُولٌ عَنِ التَّصَرُّفَات العفوية

يَعْتَقِد مُعْظَم الْأَفْرَادِ أَنَّ تَصَرُّفَاتِهِم العفوية نَابِعَة عَنْ الْعَادَةِ ، أَوْ عَنْ تَعَرّض الْفَرْد لِلْمُوقَف ذَاتِهِ كُلَّ يَوْمٍ ، فَعِنْدَمَا يُشْعِر الْفَرْد بِالْجُوع يَذْهَب مُبَاشَرَة لِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ ، وَلَكِن الْحَقِيقَةِ أَنَّ هُنَاكَ مَجْمُوعه مُعَقَّدَة مِن . الْعَمَلِيَّاتِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الْعَقْلِ الْبَاطِن ، وَالَّتِي تُصدر أمرًا لِلدمَاغ بِأَن الْفَرْد جَائِع ، وَيَحْتَاجُ إِلَى تَنَاوُلِ الطَّعَامِ ، وَلَكِن تُعتبر هَذِه الْعَمَلِيَّات مُخْفِيه ، ومعقدة ، وَمَن الصَّعْب جدًا تَحْلِيلُهَا .

الْعَقْل الْبَاطِنِ لَا يَنَامُ

يَظُنّ مُعْظَم الْأَشْخَاص أَن دِمَاغ الْإِنْسَان يُفْقَد وَعْيه خِلَال النَوْم ، وَلَكِن الْحَقِيقَة عَكْسُ ذَلِكَ تمامًا ، فَهُنَاك جُزْءٍ مِنْ جِسْمِ الإِنْسانِ يَبْقَى مستيقظًا حَتَّى خِلَال مَرْحَلَة النَوْم ، وَيَسْتَمِرُّ فِي عَمَلِهِ ، وَفِي التَّحَكُّمِ فِي كَافَّة أَعْضاءِ الجِسْمِ الْأُخْرَى ، وَهَذَا الْجُزْءُ هُوَ الْعَقْلُ الْبَاطِن .

الْعَقْل الْبَاطِن مُتعَدِّد الْمَهَامّ

يُعتبر مِنَ الصَّعْبِ عَلَى أَيّ إِنْسَانٍ التَّعَامُلَ مَعَ مَسَائِلُ مُتَعَدِدَةٌ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، وَلَكِن يَجْهَل العَدِيدِ مِنَ الْأَشْخَاص امتلاكهم لِجُزْء مُهِمٌّ فِي جسمهم يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بمِئات الْمَهَامّ فِي الدَّقِيقَة الْوَاحِدَة ، فَالْعَقْل

الْبَاطِنِ يَسْتَطِيعِ الْعَيْشِ فِي الْمَاضِي ، وَالْحَاضِرِ ، وَالْمُسْتَقْبَلِ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ ، كَمَا أَنَّهُ يَتَحَكَّمُ فِي 95% مِنْ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ ، فَلَا شَيْءَ يُضَاهِي قُوَّةِ ، وتعقيد هَذَا الْجُزْءِ الْعَظِيمِ فِي الدَمَاغِ .

الْعَقْلُ الْبَاطِنِ مَسْؤُولٌ عَنِ الذِّكْرَيَاتِ

يُعتبر الْعَقْل الْبَاطِن الْمَسْؤُول الْأَوَّلِ عَنْ الذَّاكِرَةِ فِي الدَمَاغِ ، فَكُلُّ مَا يَتَعَرَّضُ لَهُ الْفَرْدِ مِنْ مَوَاقِفِ يَتِمّ تخزينه فِي هَذَا الْجُزْءِ الصَّغِيرِ مِنْ الدماغِ ، كَمَا أَنَّهُ الْجُزْءُ الْمَسْؤولُ عَنْ ردود الْفِعْلِ عِنْدَ الْأَشْخَاص ، فَعِنْدَمَا تَرَى شخصًا سعيدًا ، ستشعر بالسَّعَادَةِ لِأَجْلِه تلقائيًا ، وَيَعُود ذَلِكَ بِسَبَبِ تَذَكَّر عَقْلك الْبَاطِنِ لِمَوْقِف مُشَابِهٌ سَبَبٌ لَك السَّعَادَة ، وبالتالي يَسْتَرْجِع الْعَقْل الْبَاطِنِ هَذَا الْمَوْقِفُ ، لتشعر مجددًا بِنَفْس السَّعَادَة .

الْعَقْل الْبَاطِنِ مَعْقِد جدًا يَتْبَع الْعَقْل الْبَاطِن نظامًا معقدًا جدًا لتخزين الْبَيَانَات ، ومعالجتها ، حَيْث يَسْتَطِيع تَخْزِين كَم هائِلٌ مِنْ الْبَيَانَاتِ ، وَالْمَشَاعِرِ ، وَالْمَوَاقِف ، والذكريات الَّتِي تَعْرِضُ لَهَا الْإِنْسَان كَمَا يَقُومُ بِاتِّخَاذ الْقَرَارَات عَنْ طَرِيقِ الْقِيَام بِعَمَلِيَّات مُعَقَّدَة جدًا خِلَال ثوانٍ ، فَالْعَقْل الْبَاطِن مَعْقِد بِشَكْل أَكْبر بِكَثِيرٍ مِنْ الْعَقْلِ الواعي .

الْعَقْل الْبَاطِنِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْخَيَال

يَقُوم الْعَقْل الْبَاطِن بتخرين كَافَّة الْمَشَاعِر ، وَالْمَوَاقِف الَّتِي يَتَعَرَّضْ لَهَا الْفَرْد ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الْعَقْل الْبَاطِن التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ ، وَالْخَيَال ، فَعِنْدَمَا تَضْحَك بِسَبَب مَسْرَحِيَّة ، أَو تَضْحَك بِسَبَب نُكْتَةٌ أَخْبَرَهَا بِهَا صَدِيقك بِالْوَاقِع لَن يَسْتَطِيع الْعَقْل الْبَاطِن التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْمَوْقِفَيْن ، وسيقوم بتخزينها عَلَى أَنَّهَا مَوَاقِف مِنْ نَفْسِ النَوْع .

وَيُطْلَقُ عَلَى الْعَقْلِ الْبَاطِن اللاشعور تَفْرِيقًا لَهُ عَنْ حَالِهِ الشُّعُور الَّذِي تَسْوَدّ فِي حَالَةِ الْيَقَظَةِ نَتِيجَة عَمِل الْحَوَاسّ وَالْإِدْرَاك .

وَالْعَقْل الْبَاطِن أَنَّه مكوَّن معْنَوِيٌّ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ مُكَوَّنا عضويا

وَهُو الْمِنْطَقَةَ الَّتِي تُخزن فِيهَا بَعْضُ الْأَفْكَار وَبَعْض الِانْفِعَالَات العاطفية ، ويُقال أَنَّ الْعَقْلَ الْبَاطِن يَسْتَوْعِب ويستحوذ عَلَى مَا هُوَ سَيِّئ وَعَلَى مَا هُوَ جَيِّدٌ ، أَيْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَخْزَن يَخْرُجُ الْإِنْسَانُ بَعْدَ ذَلِكَ أيضاً بِصُورَةٍ لَا شعورية مَا يَحْتَاجُهُ مِنْ تَفَاعُلٌ أَوْ وِجْدَان أَوْ عَاطِفَةٌ أَوْ مَعْلُومَة حَسَب الْمَوْقِف .

وَهُنَاك تَصَرُّفَات قَد تَبْدُر مِنْ الْبَشَرِ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِنَّهَا إِرَادِيَّة مِائَة بِالْمِائَة ، هَذِه يُعتقد أيضاً أَنَّ الْعَقْلَ **الْبَاطِنِيَّ أَوْ الْعَقْلِ غَيْرُ الظَّاهِرِيَّ أَوْ الْعَقْلِ اللاشعوري هُوَ الَّذِي يُحَدَّد مَسَارَهَا .**

الْآن عَرَفْنَا أَنَّ الْعَقْلَ الْبَشَرِيّ عَقْلَان عَقْل ظَاهِرِيٌّ شُعُورِي مَرْكَزِه الْمُخ وَأَعْضَاء الدِمَاغ الْأُخْرَى وَهَذَا مَوْجُودٌ عِنْدَ الْحَيَوَانَات بِقَدْر أَقَلُّ جِدًّا يطلق عَلَيْهِ اسْمُ الْغَرِيزَة وَهُوَ مُعَدٌّ لِخِدْمَة حَوَاسَنَا و ادراكنا ووعينا فِي التَّعَلُّم وَالْعَيْش فِي الْحَيَاةِ وَهُنَاك عَقْل آخر بَاطِنِيٌّ غَيْرُ ظَاهِرٍ لاشُعُورِي لَا تَدْخُلُ أَجْهِزَة الدِمَاغ فِي عَمَلِهِ وَالسَّيْطَرَة عَلَيْه فه يَعْمَل بِحُرِيَّة وَإِلَيْه مُخْتَلِفَةٌ .

الْقَلْب مَرْكَزٌ أخر للتفكير وَالشُّعُور

لَمْ تَرِدْ كَلِمَةُ عُقِلَ كأسم أو صفة فِي الْقُرْآنِ ؟ بَيْنَمَا جَاءَت بِصِيغَة فَعَلَيْه تَعْقِلُون 24مَرَّة . وَحَيْثُ لَمْ تَرِدْ كَلِمَةُ « الْعَقْل » بِالصَيغَة الِاسْمِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَقَدْ وَرَدَتْ مرادفات الْعَقْل بِالصَيغَة الِاسْمِيَّة مِثْل اللُّبّ ، وَجَمْعُهَا الْأَلْبَاب وَالْحِلْم وَجُمِعَتْ عَلَى الْأَحْلَام ، وَالْحجَر ، وَالنَهْي وَالْقَلْب ، وَالْفُؤَاد وَكُلُّهَا جَاءَت بِمَعْنَى الْعَقْلِ . وَجَاءَت آيَاتٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ تَدْعُو إِلَى إِعْمَالِ الْعَقْلَ فِي التَظَرِ وَالتَّأَمُّلِ وَالتَّدَبُّر وَالْفِكْر .

أَكَد الدكتور مَحْمُودٌ الشربينى أُسْتَاذ طِبّ الْحَالَات الْحَرَجَةِ وَالْعِنَايَة المركزة فِي مِصْرٍ ، أَنَّ آخِرَ حَقِيقَة عِلْمِيَّة تَوَصَّل إِلَيْهَا الْعُلَمَاءِ مِنْ خِلَالِ الدراسات وَالْأَبْحَاث الطَبِيَّة الَّتِى أُجْرِيَتْ عَلَى الْقَلْب ، كَشَفَت أَنَّ الْقَلْبَ لَيْسَ مُجَرَّدَ عُضْو عضلى مُجَوَّفٌ يَدْفَع الدَّم ضَمِن جِهَاز الدَّوَرَان بِمَا يُشْبِهُ عَمِل المضخة ، وَلَكِنَه يحتوى عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ٤٠ أَلْف خَلِيَّةٌ عَصَبِيَّة مُعَقَّدَة لاتزال مَجْهُولَة حَتَّى الْآنَ لِلْعُلَمَاء .

وَقَال الشربينى أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَشَارُوا فِى نتائجهم إِلَى أَنْ الْقَلْبَ يُفكر وَيَعْقِل وَيُفْهَم وَيَتَذَكَّر ، مُشِيرًا إِلَى أَنْ مَعْهَد رِيَاضِيَّات الْقَلْب الأمريكى خَرَج بِنَتِيجَة تَؤَكَّد أَنَّ لِلْقَلْبِ دَوْرًا مَهْمَا فِى الْعَوَاطِف والأحاسيس وَالْإِدْرَاك وَالتَّعَلُّم ، وَأَنَّ لَهُ مَجَالًا كهربيا أَقْوَى مِنْ الْمُخّ بِكَثِير ، كَمَا أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ تَوْجِيهِ الْمُخ وأجهزة الْجِسْم لِأَدَاء عَمَلِهِم .

الْقَلْب فِي القرآن الكريم لم يذكر على أنه مِضَخَّة لِلدَّمِ بل بمعنى التفكير او التفكر ، بُلَّ بِهِ يَكْتَمِل الْعَقْل وَالتَّفْكِير الْمُوصِلُ إِلَى الْحَقَ سُبْحَانَهُ ، قَالَ تَعَالَى : "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (24)

سُورَةِ مُحَمَّدٍ . اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، يَذْكُرُ مَسْأَلَةَ تَدَبَّر الْقُرْآن وَيَرْبِطُهَا بِالْقَلْب ، لِأَنَّك قَدْ تُقْرَأُ الْقُرْآنَ بِلِسَانِك فَقَطْ فَلَا تُفْهَمُ مِنْ آيَاتِهِ شَيْئًا ، لَكِن حِينَمَا تتدبره بِقَلْبِك فَإِنَّ الْأَمْرَ يَخْتَلِف ، وستفهم الْآيَات بِالرَّغْمِ مِنْ تَدَنِي مستواك الْعَلمِيّ أَوْ رَفَعْته ، لِهَذَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَاطَب الْمُنَافِقِين بِكَوْنِهِم أقفلوا قُلُوبِهِم ، وَمَا عَاد الْقُرْآن بِتِلَاوَتِه يَنْفَعُهُم.

كَثِيرَةٍ هِيَ الْآيَاتُ الْأُخْرَى الَّتِي تُشِيرُ إِلَى دُورِ الْقَلْب فِي تَمَامِ الْعَقْلِ ، وَلَعَلَّ مَنْ أَظْهَرُهَا لِهَذَا الْأَمْرِ ، الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الّتِي يَقُولُ فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" . الْحَجّ : 46 .

أَنَّ الْعَقْلَ هُوَ عَمَلِيَّة تَفَاعُلٌ بَيْنَ الْقَلْب وَالدمَاغ ، وَلَا يَرْتَكِز فِي أَيَ جِهَةٍ مِنْهُمَا ، .

أَنَّ الْقَلْبَ يَتَّفِقُ فِيهِ الْكُلَّ بمخزوناتهم الفطرية ، فَمَا يُوجَدُ مِنْ مَخْزُونٍ فِطْرِيّ وَحَقِيقَة مُطْلَقَة هُوَ ذَاتُهُ مَا يُوجَدُ لَدَيْك وَلَدَى الْآخَر ، بِاسْتِثْنَاء الْعَوَاطِف الَّتِي يَكْتَسِبُهَا قَلْبُ الْمَرْءِ مِنْ أُمِه وَمُحِيطِه فَهَذِه ذَاكِرَة مستحدثة ومكتسبة فِي الْقَلْب وَلَيْسَت فِطْرِيَّة فِيه ، فَمَا هُوَ فِطْرِيّ حُبّ أُمَه ، لَكِن الْمُسْتَحْدَث هُو حَبَّه لِأُمَه بِاسْمِهَا ذَاك ، وَكُنْهَهَا وَوَصَفَهَا الَّذِي يَرَاهُ بِإِدْرَاكِه ، مَا هُوَ فِطْرِيّ حَبَّه لِلنَّاس جَمِيعِهِم ، لَكِن هُنَاك مدخلات تَدْخُلُ عَلَيْهِ فِي وَاقِعَةٍ ، وَتُفْرَض عَلَيْهِ الْأَخْذُ بِأَضْدَاد الْأُمُور ، فَبَعْدَ أَنْ كَانَ يُحِبُّ ، سيكره ، .

فَالْحَبّ قِيمَة مُطْلَقَةً فِي ذَاتِ الْإِنْسَانِ تَوَلَّد مَعَه ، لَكِن الْكُره قِيمَة مستحدثة يَكْتَسِبُهَا مَعَ تَوَالِي أَيَام الْحَيَاة . كَذَلِك الْأُمُور بِالنِسْبَة للعواطف الْأُخْرَى .

طبيا : يُنظَّم الْجِهَاز الْقَلْبِيّ الوعائي مِنْ خِلَالِ الجِهَازُ العَصَبِيُّ الذَّاتِيّ ، الَّذِي يَشْمَلُ الجِهَازُ العَصَبِيُّ الْوَدْي وَنَظِير الْوَدْي . الاتّزَان الْوَاضِح بَيْنَ هَذِهِ الأَجْهِزَة أَسَاسِيٌّ فِي الفيزيولوجيا الْمَرْضِيَّة لِلدَّاء الْقَلْبِيّ الوعائي . قَدْ يَحْدُثُ عَدَم الاتّزَان بِسَبَب المستويات الهرمونية ، ونمط الْحَيَاة ، وعوامل الْإِجْهَاد البيئية ، يُمْكِن تَحْدِيدٌ الرَّابِط الْمُعَقَّد بَيْنَ الْقَلْب وَالدَمَاغ مِنْ خِلَالِ تَأْثِيرَاتٌ مُرَكَّبٌ الجِهَازُ العَصَبِيُّ الْأَعْلَى الَّتِي تَنْزِلُ إِلَى الْقَلْب . يُبنى هَذَا الْمُرَكَّب بِتَعْصِيب ذَاتِيٌّ مِنْ قِشْرِهِ الدَمَاغ حَتَّى الْقَلْب عَلَى طُولِ المحور الْعَصَبِيّ الْقَلْبِيّ . يُعْتَبَر الْقَلْب مَصْدَرٌ الْحَيَاة ومصدرًا لاضطرابات التَظْم والمضاعفات أيضًا . تَنْشَأ الْمَعْلُومَاتُ مِنْ الْقِشْرَةِ الدَمَاغِيَّة وَتَنْزِل إِلَى الْوِطَاء . تَنْتَقِل الْإِشَارَات الْعَصَبِيَّة بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى جِذْعِ الدَمَاغ ، ثُمَّ إِلَى النُخَاع الشَّوْكِيّ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَسْتَقْبِلُ الْقَلْب مِنْهُ كَافَّة إِشَارَاتِه . وبتفصيل أَكْثَر ، يَسْتَقْبِل الْقَلْب مدخلاته الْعَصَبِيَّة مِنْ خِلَالِ الْعُقْد الودية وَنَظِيرُه الودية وَالْعُمود السَنْجابي الْوَحْشِيّ للنخاع الشَّوْكِيّ

قَدِم د . أَنْدرُو أرمور عَام 1991مَفْهُومُ إِنْ هُنَاكَ عَقْل صَغِيرٌ فِي الْقَلْب ، وَهُو يَتَكَوَّنُ مِنْ شَبَكَةٌ مِنَ خَلَايَا عَصَبِيَّة ، ناقلات كِيمِيَائِيَّة ، بروتينات ، خَلَايَا داعمة ، وَهِيَ تَعْمَلُ باستقلالية عَن خَلَايَا الْمُخ لِلتَّعَلُّم وَالتَّذَكُّر حَتَّى الْإِحْسَاس ، ثُمّ تُرْسَلُ الْمَعْلُومَات إِلَى الْمُخ "أولاً"النُخَاع الْمُسْتَطِيل حَيْث تَنَظَّم الأَوْعِيَة الدَّمَوِيَّة ، "وثانياً"إِلَى مَرَاكِز الْمُخ الْمُخْتَصَّة بِالْإِدْرَاك ، وَاتِّخَاذ الْقَرَار والقدرات الْفِكْرِيَّة .

وَيَعْتَقِد هَذَا الْعَالِمُ أَنْ الخلايا الْعَصَبِيَّة الذَّاتِيَّة فِي الْقَلْب الْمَنْقُول إِذَا تَمَ زُرْعَة فَإِنَّ هَذِهِ الخلايا تستعيد عَمِلَهَا ، وَتُرْسَل إِشَارَات مِن ذاكرتها الْقَدِيمَة إِلَى الْمُخ فِي الشَّخْص الْجَدِيد ، وَإِن الْقَلْب الْمَزْرُوع يَأْتِي أَيْضًا بمستقبلات عَلَى سَطْحِ خَلَايَا الْقَلْب ، وَالَّتِي هِيَ خَاصَّةٌ بالمتبرع وَالَّتِي تَخْتَلِفُ عَنْ مُسْتَقْبِلَات الشَّخْص الَّذِي زَرْعٌ لَهُ الْقَلْبُ ، و بِذَا يُصْبِح الْمَرِيض حاوياً لِنَوْعَيْن مِن مُسْتَقْبِلَات الخلايا .

أوهن البيوت

قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * ﴾ [العنكبوت :41] إنَّ قوله سبحانه: وقوله بعد ذلك: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ * ﴾ [العنكبوت :43] يشيرانِ إلى أنَّ وَهْنَ بيت العنكبوتِ المتحدَّث عنه وَهْنٌ غيرُ ظاهرٍ ولا معروف لدى عامة الناس، وقد ضُرِبَ هذا الوهنُ مثلاً لموالاة الكافرين بعضهم لبعض، فماذا وجد العلماءُ عند دراسة العنكبوت؟ وجدوا أنَّ الروابطَ بين أفراد العنكبوت في غاية التفكّك، فالأُنثى كثيراً ما تأكل الذكر بعد الإلقاح، وقد تأكلُ أبناءها، والأبناءُ يأكُل بعضُهم بعضاً، فهو بيتٌ متفكّكٌ متداعٍ، وذلك مثلُ موالاةِ الكافرين بعضهم بعضاً .

الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة : 69]

الْآخر وَالْآخِرَة

الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ حَجَرُ الزَّاوِيَةِ فِي الْعَقِيدَةِ ، ذَاكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِطَبْعِه لَا يَلْزَمُ نَفْسَهُ بِالطَّاعَة إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ وَرَائِهَا دَفْعِ مَفْسَدَةٍ ، أَوْ جَلْبِ مَصْلَحَةٍ ، فَالْإِيمَانُ بِاَللَّهِ وبرسالاته لَا يُؤَدِي ثَمَرَتُه إِلَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ جُزْءًا يَنْتَظِرُه الْإِنْسَان ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لَهُ دُورٌ كَبِيرٌ فِي إِلْزَامِ الْإِنْسَان بِمَنْهَج اللَّه ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ اهْتِمَام الْقُرْآن بِالْيَوْمِ الْآخِرِ اهْتِمَامًا لَا يَقُلُ عَنْ الِاهْتِمَامِ بالركنين السَّابِقِين "الالهيات"و "النبوات"،

لَقَد قَرَنَ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِهِ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ الْمُعَدّ لِمَعْرِفَة نَتَائِج عَمَلِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ وَمَنْ ثَمَّ مُحَاكَمَته بِالْعَدْل واعطاءه الثَّوَابِ أَوْ الْجَزَاءُ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ فوجودنا عَلَى الْأَرْضِ واستخلافنا فِيهَا إِنَّمَا هُوَ مُؤَقَّتٌ وَمُحَدَّد بفترة زمنية فَرْدَيْه فَلِكُلّ فَرَدَّ عُمَرُ مُعَيَّن سيقضيه وَهُنَاك زَمَن مُحَدَّد لِزَوَال الْأَرْض وبالتالي انْتِهَاء الفَتْرَةُ الزَّمَنِيَّةُ لعيش وَبَقَاء الْإِنْسَانِ فِيهَا أَنَّهُ يَوْمُ يَجْعَلُهَا اللَّهُ صَعِيدًا جُرُزًا .

لَقَدْ نَسِيَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَظَنَّ أَنَّ خُلُقَهُ كَانَ عَبَثًا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115] مِنْ هُنَا بَدَأَت مُصِيبَةٌ الْمُلْحِد الْجَاهِلُ الَّذِي غُرَّتَه الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَظَنَّ أَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ فَلَا رُجُوعَ وَلَا عَوْدُهُ إِلَى اللَّهِ .

أَنَّ هَذِهِ الْفَلْسَفَة الْبَشَرِيَّة الْقَائِمَةُ عَلَى مَبْدَأ الْوُجُود العبثي وَالْفَنَاء الدَّهْرِيّ كَما وَصْفِهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِهِمْ ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : 24] وَهَذَا قِمَّة الْكُفْر وَالْإِلْحَاد وَيُجْعَل الْإِنْسَان لاقيمة له إِطْلَاقًا فَيَظُنُّ أَنَّهُ صَارَ مِثْلَ كُلَ الْأَشْيَاءِ فِي الطَّبِيعَةِ إِلَى زَوَالٍ فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ حَيْثُ الْوُجُودُ وَالْعَدَمِ وَالْفَنَاء مِنْ هُنَا خَرَجَ التَّفْكِير المادي والمنفعي الَّذِي يَقُومُ عَلَى اِغْتِنَام كُلّ الفُرَص لِلْعَيْش فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَمَا يَشْتَهِي

وَيُرِيد لَيْسَ هُنَاكَ حَلَالٌ أَوْ حَرَامٌ فِيهَا وَلَيْسَ هُنَاكَ شَرَع وَأَحْكَام واخلاقيات تُضْبَط الْأُمُور فَتَنْقَلِب حَيَاتِه إِلَى حَيَاة بهيمية أَنَّ هَذِهِ الزِّينَة الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لبهجة الْإِنْسَان ولخدمته انما هي حافزا لِيُسَارَعَ لِلْإِيمَان بِالَّذِي صَنَعَهَا وَأَتْقَن صِنَاعَتِهَا و سَخَّرَهَا لَهُ لِكِنَّهُ سُرْعَان ماينسى وَيَظُنُّ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سيدوم لِكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ أَجَلًا :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : 7]

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : 24]

وَقَال اللهُ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [يونس : 7، 8

الَّذِينَ يُنْكِرُونَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا يُؤْمِنُونَ بِثَواب وَعِقَابٌ وَلَا يَرْجُون لِقَاء الْخَالِق وَرَضُوا وَاطْمَأَنُّوا بحياتهم فَهُم غَافِلُون تائهون قَطْعًا لِذَلِك فَيَسْتَحِقُّون عِقَابِهم وجزاءهم .

هَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَدِلَّ عَلَى الْيَوْمِ الْآخِرِ بِالْعَقْل ؟

قَبْل الْحَدِيثِ عَنْ أَدِلَّةِ الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الْعَقْلِيَّة ، فإنَّه لَا بدَّ مِنْ ذِكْرِ فئات منكروا الْيَوْمِ الْآخِرِ ، إذ أَنَّهم يَنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُون بِوُجُود اللَّه –عزَّ وجلَّ– وَيُنْكِرُون الْبَعْث مطلقًا ، وَمِنْهُم

يُؤْمِنُون بِوُجُود اللَّه وَيُنْكِرُون الْبَعْث الجَسَدِيّ ، وَالْفِئَة الثَّالِثَة يُنْكِرُون وُجُود اللَّه –عزَّ وجلَّ– وَيُنْكِرُون الْبَعْث ، وَهَذِه الْفِئَة لَا بدَّ أولًا مِن مناقشتهم بِالدَّلِيل الْعَقْلِيّ عَلَى وُجُودِ اللَّه –عزَّ وجلَّ– ثمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُتِمُّ إثْبَات الْبَعْث وَضَرُورَة الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لَهم بالأدلية الْعَقْلِيَّة ؛ إذ أنَّ الْإِيمَان بِهَذَا الْيَوْمِ مرتبطٌ ارتباطٌ وَثِيقٌ بِوُجُودِ اللَّه –عزَّ وجلَّ– ، كَمَا أنَّه مرتبطٌ بِالْإِيمَان بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى فَمَنْ أَمِنَ بِاللَّهِ سيؤمن بكلَ مَا جَاءَ فِي كِتَابِهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ –عزَّ وجلَّ– فِي كِتَابِهِ أَنَّه لَا بدَّ مِن يومٍ يُبعث فِي النَّاس لِيُحاسبهم عَلَى أعمالهم .

وَيُمْكِن إجْمَال أَدِلَّة الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الْعَقْلِيَّة بالنقاط الْآتِيَة : أَنَّ الْإِلَه الْقَادِرُ عَلَى بَدْءِ الْخَلْق ، لَن يُعْجِزُه إعَادَة الْخَلْق ، إذ أَنَّ الْإِعَادَة أَهْوَنُ مِنْ الْبَدْء . أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض مِنْ أَعْظَم الْمَخْلُوقَات ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ الْأَعْظَم فَهُوَ عَلَى غَيْرِه أَقْدَرُ . أَنَّ اللَّه – عزَّ وجلَّ– هُوَ أَعْدَلُ الْعَادِلِينَ ، وأَنَّ عَدْلُه يَقْتَضِي أَنَّ يَأْخُذَ كلَّ ذِي حقٍ حَقَّه ، وَبِمَا أَنَّ بَعْض الْبَشَر قَد يدركهم الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَوْفُوا حُقُوقِهم كَامِلَة ، وَكَون أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاء ، كَانَ لَا بدَّ مِنْ وُجُودِ حياةٍ أُخْرَى تُوَزَّع فِيهَا الْحُقُوق تَوْزِيع جزاءٍ لَا تَوْزِيع بَلَاء .

لَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الْآخِرَةِ فِي الْقُرْآنِ بِنَحْوِ (114) مَرَّة . وَالْيَوْمِ الْآخِرِ بِنَحْو (26) مَرَّة . أَمَّا أَسْمَاءُ الْيَوْم الْأُخْرَى فَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا .

فِي الْغَالِبِ يَأْتِي ذِكْرُ الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ عَقِيب الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ دُونَ فَأَصْل ولنقرأ هَذِهِ الْأَمْثِلَة :

(ولكن الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر) .

(ذلك يُوعَظ بِهِ مِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر) .

(لا يَسْتَأْذِنُك الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِين . إنَّمَا يَسْتَأْذِنُك الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر) .

وَالْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا الْيَوْمِ الْآخِرِ كَثِيرِهِ كَمَا قُلْنَا وَمِنْهَا :

﴿ وَمِنَ النَاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 8]

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء : 39]

حَظِي الْيَوْمِ الْآخِرِ بشمولية وَاسِعَة فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَلَقَد بَحْثُ الْمَوْت وَالْبَعْث وَالْحَشْرِ وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ وَالصُّحُف وَالصَرَاط وَالْجَنَّةِ وَالنَارِ ، وَكُلُّ هَذَا بِتَفْصِيل دَقِيق لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ الْغَرَضُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ .

مَرَاحِل الْيَوْمِ الْآخِرِ كَيْف سَيَكُون شَأْن الْيَوْمِ الْآخِرِ ؟

إنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يومٌ عَظِيمٌ شَدِيدٌ عَلَى الْخَلْقِ ، مُسْلِمِهِمْ وَكَافِرِهِمْ ، حَتَّى مِنْ بُشَر بِالْجَنَّةَ فِي قَبْرِهِ سَيَكُون خائفًا وجلًا فِي هَذَا الْيَوْمِ ، كَيْفَ لَا وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ –عزَّ وجلَّ– أَهْوَال هَذَا الْيَوْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [٣٤]

فَهَذَا الْيَوْمُ يومٌ فَظيع ، يمرُّ الْإِنْسَان فِيه بِمَرَاحِل عَدِيدَة ، يعدُّ الْبَعْث أَوَّل مَرَاحِل يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَكُون بِإِخْرَاج النَّاس أحياءً مِنْ قُبُورِهِمْ ، وإرسالهم إِلَى مَوْقِفُ الْحَشْر ، وَهَذَا الْبَعْث يَكُون بنفختان الْأُولَى نَفْخِه الْفَزَع وَالَّتِي يَكُونُ بِهَا أَمَاتَه الْإِحْيَاء جميعًا ، وَالثَّانِيَة نَفْخِه الْبَعْث وَالَّتِي يُبعث النَّاس بِهَا مِنْ قُبُورِهِمْ ، ثمَّ بَعْدَ الْبَعْثِ تَقُوم الْخَلَائِقَ إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ ، فَيَقُومُون بِهَا قيامًا طويلًا ، يَصْحَبُه خوفٌ شديدٌ وَظَمَأ ، ، تَبْدَأ مَرْحَلَة عَرَض الْخَلَائِقِ عَلَى رَبِهِم ، ثمَّ تَتَطَايَر الصُّحُف فَيَأْخُذ أَهْل الْيَمِين كِتَابِهِم بِيَمِينِهِم وَأَهْل الْيَسَار كِتَابِهِم بيسارهم ، فيقرؤون كُتُبِهِم ، وَيَبْدَأ الْحِسَاب لِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ .

دُور الْمِيزَان فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ ؟

قَالَ تَعَالَى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[الأنبياء : 47]

يخبرُ تَعَالَى فِي هذه الْآيَةِ عَنْ الْقَضَاءِ الْعَادِلِ يومَ القيامةِ بأنّه يوازنُ بَيْن أَعْمَالَ الْعِبَادِ موازنةً دقيقةً ، فيحاسبُ كُلاًّ عَلَى أعْمَالِهِ ، ووصفَ اللَّهُ تَعَالَى الموازينَ بالقسطِ ، لأنَّ الميزانَ قَد يكونُ مستقيماً ، وَقَدْ يَكُونُ بِخِلَافِه ، فبيَّن أنَّ تِلْك الْمَوَازِين تَجْرِي عَلَى حدَ الْعَدْل والقسطِ ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِه : ﴿فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾.

وَقَدْ صَوَّرَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ دقّة الموازنَة بصورةٍ حسيةٍ مِن مَأْلُوفُ النّاس ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ *﴾[الأعراف : 8، 9] .

ثمَّ بَعْدَ الْعَرْضِ وَالْحِسَاب تَبْدَأ مَرْحَلَة وَزْن الْأَعْمَال ، وَلَا يثقلُ معَ اسمِ اللَّهِ شيءٌ "وَيَتَّصِف هَذَا الْمِيزَان بِشِدَّة الدَقَّة فَلَا يَزِيدُ فِيهِ شَيْءٌ وَلَا يَنْقُصُ وَقَد أَعَدّ إِعْدَادًا دَقِيقًا بِحَيْثُ لَا يوجود للغش أَو الْغَبْن أَوْ الزِيَادَةِ أَوْ النُقْصَانِ أَيْ وُجُودِ يَذْكُر وَنَسَبه الْخَطَأُ فِيهِ صَفَر يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : 40]

إنَّ مِن مَرَاحِلِ الْيَوْمِ الْآخِرِ مَرْحَلَة الصِرَاط ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ جسرٍ ممدودٍ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ يَرِدُهُ الْأَوَّلُونَ والآخرن ، كَمَا أَنّه طَرِيقِ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْمَحْشَر لِدُخُولِ الْجَنَّةِ ، وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ الصِرَاطَ فِي كِتَابِ اللَّهِ – عزَّ وجلَّ– حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ ، حَيْثُ ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ الْمَقْصُود بِوُرُود النَّارِ هُوَ الْمُرُورِ عَلَى الصِرَاطِ :

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ [المؤمنون : 74]

﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ [طه : 135]

دُخُولِ الْجَنَّة أَوْ النَّارِ هِي النَتِيجَة النَهَائِيَّة وَالْعَمَلِيَّة وَالْفِعْلِيَّة لِبَنِي البَشَرِ النَتِيجَة الْعَظِيمَةِ الَّتِي ستقرر حَيَاته الْأَبَدِيَّة .

الْمُطْلَق والنسبي

تَعْرِيفُ الْمُطْلَقِ فِي اللُّغَةِ :

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ رَحِمَه أَاللَّه "الإطلاق أَن يذكَر الشَّيْءِ بِاسْمِهِ لَا يَقْتَرِنُ بِهِ صِفَةُ وَلَا شَرْطٍ وَلَا زَمَان

وَلَا عَدَدُ وَلَا شَيْءَ يُشْبِهُ ذلك" .

يَقُول "سبنسر"فِي كِتَابِهِ الْمَبَادِئَ الْأُولَى بِاسْتِحَالَة وُصُول الْعَقْلِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمُطْلَق ، "وإن كُلَّ مُحَاوَلَة يَقُومُ بِهَا الْعَقْلُ مِنْ أَجْلِ تَصَوُّر الْمُطْلَقِ أَوْ اللَّا مُتَنَاهِي ، لابَدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى تَعْيِينِهِ أَوْ تَحْدِيدِه ، وبالتالي فَإِنَّهَا لابَدَّ مِنْ أَنَّ تَحَوُّلَهُ إِلَى نِسْبِيّ أَو مُتَنَاه ، وَلَكِن "سبنسر"مَعَ هَذَا لَا يَرَى أَنَّ الْمُطْلَقَ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَنَحْن حِينَمَا نُقَرِر أَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِنَا تَصَوُّر الْمُطْلَق بعقولنا ، فَإِنَّنَا أَيضاً نَحْكم بعقولنا أَنَّهُ مَوْجُودٌ .

فَالْمُطْلَق يُقَابِل النَسْبِيّ ، وَمَعْنَاهُ فِي الْمَنْطِق : الْيَقِينِي ، بِالْقِيَاسِ عَلَى مَا هُوَ اِفْتِرَاضِي ، مُحْتَمَلُ الصِدْق مِنْ تَعْرِيفِ سبنسر لِلْمُطْلَق وَهُوَ تَعْرِيفُ وَاقِعِيٌّ فَقَدْ اُعْتُبِرَ الْمُطْلَق لامُتَنَاهِي وَلَا يُمْكِنُ لِلْعَقْل تَصَوُّره وَأَنَّ هَذَا التَّعْرِيفِ يُذَكِّرُنَا مَرَّةً ثَانِيَةً بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى ١١ لِذَلِكَ لَيْسَ بوسعنا –كَمَا ذَكَرْنَا حِين الْبَحْثُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ قِبَلِ – تَصَوُّرِه فِي عُقُولِنَا لِأَنَّ أَيّ عَمَلِيَّة لِلْبَحْثِ عَنْ شَيْءٍ لَيْسَ لَهُ مَثِيلٌ هِي عَمَلِيَّة عقيمة وَيَعْجز الْعَقْلُ عَنْ الْعُثُور عَلَى نَتَائِجَ فِيهَا .

وَيُؤَدِي ذَلِكَ كُلَه إِلَى نَتِيجَةٍ مَنْطِقِيَّة فَإِذَا قُلْنَا الْمُطْلَق لايقبل التَّحْدِيد أَو التَّعْيِينِ أَوْ التَّشْبِيه فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ مُتَفَرِدٌ بِصِفَات مُعَيَّنَة لايشترك أَيَ شَيْءٍ مَعَهُ فِيهَا فَهُوَ إِذَنْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ هُوَ أَذِنَ اللَّهُ جَلا وَعَلَا كَمَا قَالَ وَصَفَ نَفْسَهُ .

وَلِذَلِكَ لَا يُطْلَقُ وَصْفُ الْمُطْلَقِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ ومادونه نِسْبِيّ وَعَلَيْه فَكُلّ الصِفَات وَالْأَسْمَاء الْمَنْسُوبَة إِلَيْه سَتَكُون حُكْمًا مُطْلَقَة وكاملة فَعَدْلُه مُطْلَق وَرَحْمَته مُطْلَقَة وَقُدْرَته مُطْلَقَة وَهَكَذَا يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى وَاصِفًا قُدْرَته : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ

عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر : 44] أَيَ شَيْءٍ يَعْنِي بِالْمُطْلَق فَقَدَّرْته كما قُلْنا مُطْلَقَة وَعِلْمه كَذَلِك سَنَأْخُذ مِثَال عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر : 44]

﴿ وَهُوَ بِكُلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 29]

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 231]

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عِمْرَان : 154]

وَيَتَوَسَّع عِلْمِ اللَّهِ الْمُطْلَق لِيَشْمَل الْوُجُودِ كُلِه ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : 59]

فَعَلَّمَ اللَّهُ وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِه غَيْر مَخْصُوصَة أَو مُحَدَّدَة أَوْ يُمْكِنُ قِيَاسِهَا أَو تَمْثِيلُهَا أَو تَشْبِيهُهَا لِأَنَّهَا صِفَات مُطْلَقَة فَكُلُّ مَا يُنْسَبُ وَيُوصَفُ بِهِ الْمُطْلَقِ فَهُوَ مُطْلَقٌ .

وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي النَّصِ الْقُرْآنِيِّ صِفَات لِلَّه الذَّاتِيَّة تُفِيدُ هَذَا الْمَعْنَى مِثْل الْأَحَد والصمد وَالْوَاحِد .

وَيُقَابِل الْمُطْلَق النِسْبِيّ وَبِذَلِكَ يَكُونُ النَسْبِيّ : هُوَ الشَّيْءُ الْمَنْسُوب لِغَيْرِه ، وَعِنْدَ ذِكْرِهِ يُقْرَنُ بِهِ صِفَةُ أَوْ شَرْطٍ أَوْ زَمَانٍ أَوْ عَدَدٍ وَهَذَا التَّعْرِيفُ يَنْطَبِقُ عَلَى كُلِ الْمَوْجُودَات وَالْأَشْيَاء فِي الْكَوْنِ وَكُلُّ مَخْلُوقٍ أَوْ حَادِثٌ بِمَا فِي ذَلِكَ الزَمَانِ وَالْمَكَانِ .

ولنرى مَا تعنيه النَسْبيَّة فِي فِكْر انشتاين الَّذِي وُضِعَ نظريته عَلَيْهَا :

عِنْدَمَا قَام أَينشتاين بِوَضْع النَظَرِيَّة النَسْبيَّة فِي بدايات القَرْنِ العِشْرِينَ , قَام بِقَلْب الْعُلُوم الفيزيائية رأساً عَلَى عَقِبٍ وَأَعْطَى عُلَمَاء الفِيزِيَاء فهماً جديداً لِلزَّمَانِ وَالْمَكَانِ .

كَانَت قَوَانِين نيُوتُن تَنُصُّ عَلَى أَنَّ الْمَكَانَ وَالزَّمَانِ ثَابِتَيْن , لكِنْ فِي التَّصَوُّرَاتِ الْجَدِيدَة الَّتِي قَدَّمَتْهَا النَظَرِيَّة النَسْبِيَّة الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ , كَانَ الْمَكَانُ وَالزَّمَانِ قابلين لِلتَّغْيِير .

نَشَر أَلْبِرْت أَينشتاين الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ نظريته النَسْبِيَّة (النسبية الخاصة) فِي عَامٍ 1905 , وَنَشْرٌ بَعْدَهَا نَظَرِيَّة (النسبية العامة) فِي عَامٍ 1916 .

مَاالْفَرْقُ بَيْنَ نَظَرِيَّة النِّسْبِيَّة الْخَاصَّة وَالنِّسْبِيَّة الْعَامَّة ؟

النَسْبِيَّة الْخَاصَّة : تَبحَث فَقَطْ فِي الْأَجْسَامِ أَو الأَنْظِمَة الَّتِي تَتَحَرَّك بِسُرْعَة ثَابِتَةٌ بِالنَسْبَةِ إِلَى الْمُرَاقِب ، أَيْ الَّتِي تَتَحَرَّك حَرَكَةٍ مُنْتَظِمَةٍ دُون تَسَارع ، وَإِن سُرْعَة الضَّوْء فِي الْفَرَاغ مُسْتَقِّلَةٌ عَنْ حَرَكَةٍ جَمِيع المراقبين .

أَمَّا النَسْبِيَّة الْعَامَّة : فَإِنَّهَا تَبحَثُ فِي الْأَجْسَامِ الَّتِي تَتَسَارَع بِالنَسْبَةِ إِلَى الْمُرَاقِب ، أَي الْأَجْسَام أَو المجموعات الَّتِي تَتَحَرَّك بِسُرْعَة مُتَزَايِدَةٌ أَو متناقصة .

وَالزَّمَانِ فِي رَأْيِ انشتاين : أَن الفِيزِيَاء الكلاسيكية ، نستخدم الْأَبْعَادِ الثَّلَاثَةِ فَقَطْ ، أَيْ الْأَبْعَادِ الْمَكَانِيَّة ، وَهِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ وَالِارْتِفَاع ، وَهَذَا مَا كَانَ الْجَمِيعُ يَعْتَقِدُه ، بَيْنَمَا أَينشتاين أَوْجَد بُعداً رابعاً ، فَقَال : أَن الْكَوْن الَّذِي نَعيشُ فيهِ هُوَ ذُو أَرْبَعَة إبْعَاد لَا ثَلَاثَةٌ كَما تَقُولُ الفِيزِيَاء الكلاسيكية ؛ وَهَذِه الْإِبْعَاد هِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ وَالِارْتِفَاع وَالزَّمِن ، وَسُمِيَ ذَلِكَ بِاسْم (الزمكان) .

الْمَكَانِ فِي نَظَرِيَّة النَسْبِيَّة

أَنَّ مَفْهُومَ نِسْبِيَّةٌ الزَّمَن يُشْبِهُ بَعْضَ الشَّيْءِ نِسْبِيَّةٌ الْمَكَان ، إِذْ تَقُولُ النَسْبِيَّة أَنَّ الزَّمَنَ نَفْسِهِ لَا يَجْرِي فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْكَوْن بِالتَّسَاوِي كَمَا قَالَ نيوتن ، بَلْ هُوَ يَطُول وَيَقْصُر حَسَب ظُرُوف مُعَيَّنَة وَأَمْكَنه مُعَيَّنَة .

وَيَقُول أَينشتاين بِأَن الزَّمَن يَطُول وَيَقْصُر تبعًا لِعَامِلَيْن ، الْأَوَّل : السُّرْعَة وَهَذَا مايبحثه فِي النَسْبِيَّة الْخَاصَّة ، وَالثَّانِي : الْكُتْلَة وَهَذَا مَا يبحثه فِي النَسْبِيَّة الْعَامَّة .

النَظَرِيَّة تَقُول : لَيْسَ فِي هَذَا الْكَوْن مكانٌ مُطْلَق ،

أَنَّ مَفْهُومَ نِسْبِيَّةٌ الزَّمَن يُشْبِهُ بَعْضَ الشَّيْءِ نِسْبِيَّةٌ الْمَكَان ، إِذْ تَقُولُ النَسْبِيَّة أَنَّ الزَّمَنَ نَفْسِهِ لَا يَجْرِي فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْكَوْن بِالتَّسَاوِي كَمَا قَالَ نيوتن ، بَلْ هُوَ يَطُول وَيَقْصُر حَسَب ظُرُوف مُعَيَّنَة وَأَمْكَنه مُعَيَّنَة .

وَيَقُول أَينشتاين بِأَن الزَّمَن يَطُول وَيَقْصُر تبعًا لِعَامِلَيْن ، الْأَوَّل : السُّرْعَة وَهَذَا مايبحثه فِي النَسْبِيَّة الْخَاصَّة ، وَالثَّانِي : الْكُتْلَة وَهَذَا مَا يبحثه فِي النَسْبِيَّة الْعَامَّة .

ونستطيع أَنْ نَجدَ مَفْهُوم النَسْبِيَّة كَما رَآهَا أنشتاين فِي النُّصُوص الْقُرْآنِيَّة فَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنِ الْكَرِيم إِلَى النَسْبِيَّة فِي الزَّمَنِ ، فَقَرَّر أَنَّ هُنَاكَ يوماً طُولُهُ أَلْفُ سَنَةٍ ، ويوماً يَبْلُغُ طولُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فِي قَوْلِهِ

تَعَالَى : (يدبر الْأَمْر مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْم كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تعدون) . .

وَقَالَ تَعَالَى : (تعرج الْمَلائِكَةِ وَالرُّوحِ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سنة) .

وَالزَّمن كَمَا يَقُولُ أَينشتاين لَيْسَتْ لَهُ حَقِيقَةً مُنْفَرِدَة وَقَائِمَة بِذَاتِهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ خَوَاصَ الْمَادَّة ، وَلِذَلِك فالكون أَشْبَهَ مَا يَكُونُ بِكِتَاب دونت فِيه الْحَوَادِث بِدِقَّة ، بِحَيْثُ إِنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ مُسَجَّلَة فِي هَذَا الْكَوْن . ومادام الاهْتِزَاز موجوداً فَإِن الْأَصْوَات بَاقِيَةٌ ومسجلة فِي هَذَا الْكَوْن . وَكُلُّ مَا يَتَلَفَّظْ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ يَوْمِ وِلَادَتِه وَحَتَّى وَفَاتِه يَبْقَى محفوظاً ، قَالَ تَعَالَى : (ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عتيد) .

قَالَ تَعَالَى : (وكل إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كتاباً يَلْقَاه منشوراً . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِك الْيَوْمَ عَلَيْك حسيباً) .

الْخَيْرِ وَالشَّرِّ

﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عِمْرَان : 26]

أَنَّ الْخَيْرَ ، لغةً ، هُوَ الْحَسَنُ لِذَاتِه ، و لِمَا يُحَقِّقُه مِن لذّة ، أَوْ نَفْعُ أَوْ سَعَادَةٌ . و هُو ضدّ الشّر . و تَحْمِل كلمة الْخَيْرُ فِي المعاجم اللّغويّة مَعَانِي كَثِيرَةٌ ، لكِنَنا نَكْتَفِي بِذِكْر مِنْهَا مَا ذَكَرْنَاهُ لِمَا لَهُ ارْتِبَاطٌ

بموضوعنا . لِأَنَّ كَلِمَةَ الخير فِي مَجَالِ الْفَلْسَفَة تُطْلَقُ عَلَى اللّذة و السّعَادَة ، و أحياناً أخرى عَلَى مَا هُوَ حَسَنٌ وَ نَافِع .

أَن (الخير) فِي التَّعْرِيفِ الِاصْطِلَاحِيّ : مَا يَرْغَبُ فِيهِ كُلُّ النَّاسِ ، كَالْعَقْل ، وَالْعَدْل ، وَالْفَضْل ، وَالشَّيْء النَّافِع ، وَضِدُّه : الشَّرّ .

مَفْهُوم الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي الْفَلْسَفَةِ

أَنَّ الطَّبِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّة فِطْرِيَّة وجاهلة بِمَاهِيَّة الْخَيْرِ وَالشَّرِ فِي الْحَيَاةِ ، لكِنَّهَا تكتسبها مِنْ الْمُحِيطِ . فَكُلَّمَا كَانَ الْمُحِيط يَتَسَمّ بقيم الْخَيْر ، اكْتَسَبَت الْكَيْنُونَة قِيمَة . وَكُلَّمَا سادت قيم الشَّرَّ فِي الْمُحِيطِ ، تأصلت قِيمَةٌ فِي الذَّاتِ . وَبِالرَّغْم مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ الْخِيَارَ النهائي ، يَعُودُ إِلَى الْكَيْنُونَة ذَاتِهَا ومدى مَيْلُهَا نَحْو الْخَيْرِ أَوْ الشَّرّ . فَإِنْ كَانَتْ طَبِيعَتِهَا الْمُكْتَسَبَة اعْتَادَت عَلَى النهل مِنْ مَنْبَعٍ قيم الْخَيْر أَصْبَحْت خَيْره ، وَإِن نَهلَت مِنْ مَنْبَعٍ قيم الشَّرّ اعْتَادَت عَلَى سُلُوكِ الشَّرَّ فِي مَسِيرِهِ حَيَاتِهَا .

يَعْتَقِد ((أفلاطون))"أَنَّ الْخَيْرَ طبع لِمَنْ اعْتَادَهُ ، وَالشَّرّ مُبَاحٌ لِمَن أراده"

كلام افلاطون هذا يذكرنا بالنص القرآني : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 7] ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 8] فالنفس مركبة فيها بذور الخير وبذور الشر والانسان هو الذي يختار .

تَعُود سِمَة الِاكْتِسَاب مِنْ الْمُحِيطِ لِقِيَم الْخَيْرِ أَوْ الشَّرّ إِلَى مَدَى الِارْتِقَاء ، بالمنظومة الْعَقْلِيَّة للكينونة . فَإِنْ كَانَتْ مَدَارِكُهَا المعرفية وَالْعِلْمِيَّة وَاسِعَة ، تَمَكَّنَتْ مِنْ التَّمْيِيز بَيْنَ فِعْلِ الْخَيْرِ وَصُورَة عَنْ فِعْلِ الشَّرّ وَضَرَره عَلَى الذَّاتِ وَالْمُجْتَمَع .

وَبِالضَدّ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهَا تفتقد إِلَى حَالَةٍ التَّمْيِيز وَتَنْهَل مِنْ قَيِم الشّرّ توجهاتها ، وَبُغْض النَّظَرِ عَنْ صُوَرِ الشّرّ وَمَا يُمْكِنُ أَنْ تَلْحَقَهُ مِنْ ضَرَرِ عَلَى الْمُجْتَمَع . الْمُهِمّ أَنَّهَا تَحَقَّق الْمَصْلَحَة لِلذَّات الشَرِيرَة ، عَلَى حِسَاب بَقِيَّةِ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَع .

تُعَبّر الذَات الْخَيِرَة عَنْ نَفْسِهَا مِنْ خِلَالِ سُلُوكِهَا الْيَوْمِيّ مَع الذَّوَات الْأُخْرَى فِي الْمُجْتَمَعِ ، وتتعاطى سلوكياً عَبّر صُوَر الْخَيْرُ وَمَا يَتَمَخَّض عَنْهَا مِنْ أَفْعَالِ خَيْرِه تَعْكِس أَوْجُه الْفَرَح وَالسّعَادَةُ فِي مُجْمَلِ تعاملها مَعَ الآخَرِينَ . فِي حِينِ أَنْ الذَّاتَ الشَرِيرَة ، قَد لاتعبر عَمَّا يَكْمُن فِي ذَاتِهَا بِشَكْل مُبَاشِرٌ مَعَ إِفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ تحاشياً لردود الْفِعْل السَّلْبِيَّة وَمَا يمتخض عَنْهَا مِنْ أَفْعَالِ شريرة ، لَكِنَّهَا لَن تتوان عَنْ فِعْلِ الشّرّ حَال تَوَفّر الظُّرُوفِ اللّازِمَةِ لهَا لتعكس أَوْجُه الْأَلَم وَالْفَزَع عَلَى الْآخَرِينَ .

يَرَى ((أفلاطون)) "إِذَا تَحَرّكَتْ صُورَة الشّرّ وَلَمْ تَظْهَرْ وَلَدَت الْفَزَع ، وَإِذَا ظَهَرَتْ وَلَدَت الْأَلَم . وَإِذَا تَحَرَّكَت صُورَة الْخَيْر وَلَمْ تَظْهَرْ ، وَلَدَت الْفَرَح وَإِذَا ظَهَرَتْ وَلَدَت اللذة" .

أَن مَنْظُومَة الْعَقْل وَمَا اكْتَسَبَت مِنْ مَعَارِفِ وَعُلُومٍ ، تُفعل نِظَام السَّيْطَرَة وَالتَّحَكُّم بالسلوكيات وَالْأَفْعَال الْيَوْمِيَّة وَتَمَكّن الْإِرَادَةَ عَلَى اتِبَاعِ مَسَالِك صَحِيحِه وبالمقابل فَإِنَّهَا تَضْعُف السلوكيات وَالْأَفْعَال الْغَرِيزِيَّة لِلذَّات الساعية لِاعْتِمَاد مَسَالِك الشّرّ لِتَحْقِيق الْأَغْرَاض الْخَاصَّةِ عَلَى حِسَابِ الْمُجْتَمَع .

الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ أَنَانِيَّة ، تَسْعَى لِتَحْقِيق الذَّاتِ عَلَى حِسَابِ الْآخَرِين خَاصَّةً عِنْدَ اخْتِلَال نِظَامِهَا الْإِرَادِيّ . وَبِنَفْس الْوَقْتِ لَا يُمْكِنُ الرّكُونَ إِلَيْهَا لِلْحِفَاظِ عَلَى آمَن وَاسْتِقْرَار الْمُجْتَمَع ، بِسَبَبِ اخْتِلَافِ مستويات أَنْظِمَه التَّحَكُّم وَالسَّيْطَرَة لِلنَظَام الْإِرَادِيّ عِنْد الْبَشَر .

لِذَا يَتَعَيَّنُ فَرْضُ نِظَام اجْتِمَاعِيٌّ مُحْكَم للسيطرة عَلَى أَفْعَالٍ وسلوكيات الْبَشَر ، بِمَا يُحَقِقُ الْأَمْن وَالِاسْتِقْرَار الاجْتِمَاعِيّ مِنْ خِلَالِ فَرْضُ القَانُون عَلَى الْجَمِيع . فَهَذَا النِظَام الرَّادِع الْمُسْتَنِدِ إِلَى مَبْدَأ فَرْضُ الْعُقُوبَة الْمُنَاسَبَة عَلَى الْخَارِجِينَ عَلَى حُدُودِ الْمُجْتَمَع ، يُشْكِل الضَّمَان اللَّازِم لتمسكهم بِالْعَقْد الاجْتِمَاعِيّ .

يَرَى ((دانتي)) "أَنَّ النَفْسَ سَاذَجَةٌ ، تَجْرِي كَالطِفْل وَرَاء مَصَالِحِهَا الدُّنْيَوِيَّة التَّافِهَة ، لِذَا مِنْ الضَّرُورِيَ وُجُود قَانُون وَحَاكِمْ لِرِعَايَة البشر" .

اسْتَنَدَت مُعْظَم الدَيَانَات وَالنَظَرِيَّات الإصلاحية وَالأَعْرَاف الاجْتِمَاعِيَّة فِي توجهاتها عَلَى قِيَم الْخَيْر ، للتصدي لِقَيَم الشَّرّ وَمَا تَمَثَّلَه مِن سُلُطَات مستبدة تَنَالَ مِنْ حُقُوقِ الآخَرِينَ . وَعَمَلِيَّة أَضْعَافِهَا ، تُؤَدَي إِلَى إِزَالَةِ نِظَام الْحِمَايَة الذَّاتِيّ عَنْ الْإِنْسَانِ السَوِيّ فَلَا يَجِدُ مَا يُرْدِعُهُ عَنْ ارْتِكَابِ الْجَرَائِم وَاسْتِخْدَام العُنْف ضِدّ الْآخَرِين لِتَحْقِيق مَصَالِحِه الذَّاتِيَّة . ولاتحقق وَسَائِل الرَّدْع الْأُخْرَى (القانون وأجهزة العُنْف المتعددة) مسعاها المنشود دُون تَعْمِيق مَبَادِئ الْخَيْرُ فِي وُجْدَان الْمُجْتَمَع ، لتساعدها فِي ضَبْطِ سُلُوك الْأَفْرَاد غَيْر الأسوياء السَاعِين لِفَرْض توجهاتهم الشَرِيرَة عَلَى الْمُجْتَمَع .

لَقَدْ رَأَى مَجْمُوعِهِ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ أَنَّ الْخَيْرَ هُوَ الْقِيمَةُ الْعُلْيَا الَّتِي تَعُودُ إِلَيْهَا كلّ الْقَيَم كالسعادة و الْعَدَالَة و الْجَمَال . . إِلَخ . فأفلاطون ، مثلاً ، أَدْخَل قِيمَة الْجَمَالَ فِي مَفْهُوم الْخَيْر ، فَقَال : الْجَمَال هُو بَهَاء الْخَيْر . و نَجد أَن أَرِسْطُو لَا يَخْتَلِفُ كثيراً عَنْ أُسْتَاذِهِ أَفْلَاطُون ، لِذَلِكَ فَإِنَّ الْخَيْرَ عِنْدَهُ هُوَ مَا تَسْعَى إِلَيْه الْأَشْيَاء جميعاً . إِلَّا أَنْ أَرِسْطُو يَرْفُض نَظَرِيَّة المُثل الأفلاطويّة ، و لِذَلِكَ فَلَا يُوجَدُ عِنْدَهُ مِثَال لِلْخَيْر . بَيْدَ أَنَّهُ يَرَى أَنَّ الْخَيْرَ فِي كلّ مُظَاهَرَة مُسْتَمَدٌّ مِنْ خيريّة اللَّه . و يَعْلَق برتراند رَاسَل عَلَى هَذِهِ

الْأَفْكَار الأرسطيّة القلقة بِالْقَوْل أَن أَرِسْطُو و إِنْ بَدَأَ أَنَّه يَبْتَعِد عَن نظريّة المُثل الأفلاطونيّة ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ إِلَيْهَا مِنْ خِلَالِ فكره خيريّة اللَّه .

و إِذَا كَانَ أَرِسْطُو يَرَى أَنَّ الْخَيْرَ مُسْتَمَدٌّ مِنْ خَيْرِيَّةِ اللَّه ، فَكَيْفَ هُوَ هَذَا الْآله عِنْد أَرِسْطُو ؟ أَنَّه ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ ، مجرّد مُحَرِّكٌ أَوَّل يُعْطِي لِلْعَالِم الدَّفْعَة الْمُحَرِّكَة الْأُولَى . و هَذِهِ هِيَ مُهِمَّتَه الوَحِيدَة ، فَلَيْسَ لِلَّهِ عِنْدَ أَرِسْطُو أَي اهْتِمَام إِيجَابِيّ بِالْعَالِم بَعْد تَحْرِيكِهِ إِيَّاهُ .

لَقَد قَدَّمْنَا أَنَّ أَرِسْطُو يَعْتَقِدُ أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَسْعَى إِلَى الْخَيْرِ . و نَجِد ابْنُ سِينَا يَقْتَرِب مِنْ رَأْيِ أَرِسْطُو الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، فَيَقُول : أَنَّ الْخَيْرَ بِذَاتِه مَعْشُوقٌ ، و كَمَا قَالَ أَرِسْطُو بِأَنَّ الْخَيْرَ مُسْتَمَدٌّ مِنْ خَيْرِيَّةِ اللَّه ، نَجِد ابْنُ سِينَا يَقُول أيضاً أَن العلّة الْأُولَى مستوفيّة لِجَمِيع الخيريّة . . . فَهِي خيرٌ فِي ذَاتِهَا ، و هِيَ خَيْرٌ مُطْلَقٌ فِي جَمِيعِ الْوُجُوهِ . فَأَذِن نلحظ كَيف أَنَّ ابْنَ سِينَا يَتَّفِقَ مَعَ أَرِسْطُو فِي كَوْنِ الْعِلَّةِ الْأُولَى خيريّة .

و إِذَا كَانَ أَرِسْطُو يَرَى أَنَّ بَعْضَ الْبَشَر يمارسون الشَّرّ عَنْ عَمْدٍ ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَرَى ذَلِكَ أيضاً ، إِذْ أَنَّ الْإِنْسَانَ حَسَبِ مَا وَرَدَ فِي السَيَاقِ الْقُرْآنِيّ هُو : ظَلُومٌ ، جَهُول ، هَلُوعٌ . . إِلَخ . و بالتّالي ، فَإِن ممارسته لِلشَّرّ جُزْءٍ مِنْ طَبِيعَتَه . غَيْر أَنْ هَذِهِ الطَّبِيعَة سَيِّئَة ، حَسَب النُصُوص القرآنيّة ، و عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا حَتَّى يُصْبِحَ إنساناً فاضلاً(سُورَة الشَّمْس ، الْآيَة : 9) . فَفَعَل الْخَيْر ، فِي القرآن ، هُوَ نَتِيجَةُ كَسَب و سَعْيٌ و مُجَاهَدَة و تَزْكِيَة و إِرَادَة ، و هَذِهِ الْأُمُور هِيَ الَّتِي تُمَيِّزُ الْإِنْسَانَ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ . و هَكَذَا فَإِنَّ الْخَيْرَ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ أيضاً فَضِيلَة تُكْتَسَب بالمران ، وَ هَذا نَفْسُ مَا قَالَهُ أَرِسْطُو حِين رَبَط الْخَيْر بِالْعَقْل الْعَمَلِيّ . و الْقُرْآن ، رَغِم تَأْكِيدَه عَلَى

طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ الشَرِيرَة ، فَهُو مُتَفائِل بانتصار الْخَيْرَ وَ غَلَبَتْه ، فَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ مَا يَلِي : " فأمّا الزَّبْد فَيَذْهَب جَفَاء و أَمَّا مَا يَنْفَعُ النّاس فَيَمْكُث فِي الْأَرْض " . و لعلّ انْتِصَار الْخَيْر مُرْتَبِطٌ بِمَبْدَأ خَيْرِيَّةُ اللَّه . ثُمَّ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرْ فِي الْإِسْلَامِ ، كَمَا تَحْضُر الشَّهْوَةِ فِي الْفِكْرِ الأرسطي حَوْل الشَّرّ . فَالشَّيْطَان يُوَسْوِس لِلْإِنْسَان فَيُزَيِّنُ لَهُ الشَّرَّ ليظنه خيراً . عِلَاوَةً عَلَى أَنَّ لِلْإِنْسَانِ ، وفقاً لِلْقُرْآن ، نفساً تَأْمُرُه بِالسُّوء (سُورَةَ يُوسُفَ ، الْآيَة : 53) .

وُجُود الشَّرّ شكّل أَحَدُ أَبْرَز التحديات لِلْفَلَاسِفَة وَالْمُتَكَلِمِين ، والأسئلة الْمُتَعَلِقَة بِوُجُود الشَّرّ يُعَاد طَرْحُهَا ، خَاصَّةً فِي أَزْمِنَةِ الْمِحَن وَالكَوارث والتحولات الْكُبْرَى الَّتِي تَعْصِف بالمألوف أَو الثَّوابت ، فَمَا الْمَقْصُود بِالشَّرّ ؟ وَلِمَاذَا اعتُبر وُجُودِه مُعْضِلَة ؟ وَكَيف تَمّ بَحثَه تاريخيا ؟ وَمَا أَوْجُه الْإِشْكَالُ فِي اسْتِشْكَال الشَّرّ ؟

مَفْهُوم الشَّرّ

أَنَّ الشَّرَّ يَنْطَبِقُ عَلَى دَائِرَة مُحَدَّدَة مِنْ التَقَائِص وَالْحَاجَات ، وَهُو حِرْمَان الْمَوْجُودِ مِنْ كَمَالِهِ الضَّرُورِيّ .

و قَسِمُ الفلاسفة الشرور إِلَى ثلاث أَنْوَاع : الشُّرُور الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الْكَوْنِ ، وَالشُّرُور الْإِنْسَانِيَّة وَقَدْ تُسَمَّى الشُّرُور الأَخْلَاقِيَّة ، لِأَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ إِرَادَةِ حُرَّةً مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَالشُّرُور الميتافيزيقية الْمُتَعَلِقَة بِالنَقْص الَّذِي تَنْطَوِي عَلَيْه مَاهِيَّة الْمَوْجُودَات ، فالشر –على هذا– مُرْتَبِطٌ بِالْإِرَادَة الْإِلَهِيَّة وَتَدْبِير الْعَالِم ، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ لَا يَنْفَصِلُ عَنْ دَلَالَتِهِ الميتافيزيقية وَالدِينِيَّة ، وَلَا يُمْكِنُ حَلّ مُشْكِلَةُ الشَّرّ وَفْق مَنْظُورٌ وَضْعِيٌّ

أَو طَبِيعِيٌّ فَقَط ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نستحضر الْبُعْدَيْن الأُفُقِي (المادي) وَالْعَمُودِيّ (الغيبي) وطبعا هذه النتيجة التي اعتبرت ارتباط الشر بالارادة الإلهية غير منطقي فما الذي جهلهم يتوصلون الى هذه النتيجة الافتراضية .

ثَانِيًا : تشْخِيص مُشْكِلَةٌ وُجُود الشَّرّ

وَاجه الْفَلَاسِفَة وَالْمُتَكَلمُون قَدِيمًا الْأَسْئِلَة الْمُتَعَلقَة بِوُجُود الشَّرّ ، وَيَتَلَخَّص وَجْهُ الْإِشْكَال فِي وُجُودِ الشَّرَّ فِي نِقَاطٌ أصوغها فِي الْأَسْئِلَة الثَّلَاثَة الْآتِيَة :

لِمَاذَا يُوجَد الشَّرّ ؟

وَكَيْف يَصْدُر عَمَّنْ هُوَ خَيْرٌ مُطْلَق ؟

أَيْنَ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الشُّرُورِ فِي الْعَالَمِ ؟

لِمَاذَا يُوجَد الشَّرّ ؟

يُبْحَث هَذَا السُّؤَال عَنْ الْأَسْبَاب وَالْعِلَل وَالْحُكْم ، وَهُوَ مَا ينشغل بِهِ الْعَقْلُ الْفَلْسَفِيّ وَالْعَقْل الْكَلَامِيّ مَعًا ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ تَوْضِيح أَنَّ عُمُومَ السُّؤَالُ عَنْ عِلَّةٍ وُجُود الشَّرّ قَدْ يَخْرُجُ عَنْ مُحَاوَلَة الْفَهْم وَالتَّفْسِير إِلَى نَمَط آخَرَ مِنْ التَّفْكِير وَهُو الِاسْتِدْلَال بِوُجُود الشَّرّ عَلَى نَفْي الصَّانِع أَوْ نَفْي وُجُودِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَمِنْ ثَمَّ يَخْرُجُ السُّؤَالُ هُنَا عَنْ مَدْلُول طَلَب الْمَعْرِفَةِ إِلَى الاستنكار بِهَدَف إِيرَاد الشُّبُهَات .

لَكِنَّ ذَلِكَ يَجِبُ إِلَّا يَمْنَعُ مِنْ التَّعَامُلِ مَعَهُ بجدية بِرُؤْيَة وَمَزِيد مِن العقلنة ، خُصُوصًا حِين تَصْدُر مِثْل هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ عَنْ جِيلُ الشَّبَابِ الْمَعَاصِرِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى إجابات مُقْنِعه تُحْتَرَم أَسْئِلَتِه وَطَرِيقَة تَفْكِيرِه .

اسْتَشْكَل الْفَلَاسِفَة وُجُود الشَّرّ ، سَوَاءٌ فِي الطَّبِيعَةِ الْكَوْنِيَّة أَمْ فِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّة ، فصدور الشَّرّ عَنْ الْإِنْسَانِ (أو الشَّرّ الأخلاقي) لَا ينسجم مَع فَكَرِه كَوْنِهِ كَائِنًا أَخْلَاقِيًّا ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ لَكَائِنٌ عَاقِل ومسؤول أَنْ يَتَسَبَّبَ فِي الْأَلَم لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِه ؟ فَهَذَا الِاسْتِشْكَال يَتَّصِل بِالْإِرَادَة الْإِنْسَانِيَّة وَيُفْتَرَض أَنَّ ثَمَّةَ تَنَاقُضًا مَا بَيْنَ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ الْحُرَّة والأخلاقية وَبَيْن صُدُور الشَّرّ عَنْه ، الْأَمْرُ الَّذِي يُوجِبُ الْبَحْثَ عَنْ تَفْسِيرِ .

الشر كما الخير يكمن في النفس الإنسانية

فَكَيْفَ يُمْكِنُ لَكَائِنٌ عَاقِل ومسؤول أَنْ يَتَسَبَّبَ فِي الْأَلَم لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِه ؟

ان هذا السؤال يتجاهل الطبيعة التكوينية الخلقية للكائن البشري فصحيح ان الانسان عاقل ومسؤول وتصرفاته اختيارية وارادية فهو في الوقت ذاته كائن له نفس والتي هي مسؤولة عن النوازع والغرائز التي بسببها يندفع الانسان لفعل الشر فالنفس هي جزء من الطبيعة البشرية والمشكلة هنا تكمن في تهذيب النفس وتوجيهها نحو فعل الخير و أبعادها عن فعل الشرور اذ انهما مركبة على إمكانية فعل الأمرين معا

تماما مثل العقل الذي هو حر في اختار الفعل الذي يريده لذلك فالنص القرآني قد فهم تماما طبيعة الانسان المركبة والمعقدة ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس : 7]﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس : 8] فالنفس مركبة فيها بذور الخير وبذور الشر والانسان هو الذي يختار .

أَمَّا بالنسْبَةِ لِلشَّرّ الطَّبيعِيّ أَو الْمَعْزُوَ إِلَى قُوَّةٍ عَلِيًا أَسْمَى فَإِنَّه يُثِير تَنَاقُضًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ ، فكَيف لِصَاحِب الْإِرَادَة الْخيرَة وَالْأَسْمَى أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ الشَّرّ ؟ وَهَذَا نِقَاش يَدُورُ حَوْلَ صِفَات الْآله وَإِرَادَتِه .

أَمَّا عُلَمَاءِ الْكَلَامِ فَقَدْ واجهوا أَسْئِلَة وَإِشْكَالَات تَتَّصِل بِتَفْسِيرِ أَفْعَالَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكَوْنِ مِنْ جِهَةٍ وَأَفْعَال الْإِنْسَانِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، وَهَذَا يَتَّصِل بِأَفْكَار الْعَدْل الْإِلَهِيّ ، وَالتَّكْلِيف ، وَحُرِّيَّة الْإِنْسَان ومسؤوليته عَنْ أَفْعَالِهِ ، وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ . .

كَيْفَ يَصْدُرُ الشَّرَّ عمَّنْ هُوَ خَيْرٌ مُطْلَق ؟

يَسْتَبْطِن هَذَا السُّؤَالِ وُجُود تَنَاقُضٌ مَنْطِقِي دَاخِلِيّ بَيْن خَيْرِيَّةُ اللَّهُ تَعَالَى (بصفاته الحسنى) مِنْ جِهَةِ وَوُجُود الشَّرَّ فِي الْعَالَمِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، فَالْخَيْر لَا يَصْدُرُ عَنْهُ شُرُور كَمَا سَبَقَ .

– أَيْنَ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الشُّرُورِ فِي الْعَالَمِ كالحروب والمجاعات وَالكَوارِث وَالظُّلْم ؟

يُثِير هَذَا السُّؤَالِ إِشْكَالًا كلاميا وأخلاقيا يَتَلَخَّصُ فِي أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْآله خيّرا وَمَوْجُودًا فَلِمَاذَا لَا يَتَدَخَّل لِإِزَالَة الشَّرّ ، بِمَا أَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِالْمَوْجُودَات وَقُدْرَتِه شَامِلَةٌ .

وَقَدْ دَفَعَ هَذَا الْإِشْكَالِ بَعْضُهُمْ إِلَى جَعْلِ وُجُودِ الشَّرّ دَلِيلًا عَلَى نَفْي وُجُودِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، بِحُجَّةِ أَنَّ وُجودَ الشَّيْءِ مِنْ دُونِ لَوَازِمه غَيْرُ مُمْكِنٍ ، فَلَوْ كَانَ اللَّهُ مَوْجُودًا لَلَزِمَ أَنْ يُزِيلَ الشَّرّ بِقُدْرَتِه وَعِلْمِه الْمُحِيطَيْن وَإِرَادَتِه الخيّرة ، وَلَوْ كَانَ الْآلة خيّرا حَقًّا لَمَا رَضِيَ بِهَذَا الظُّلْم ولتدخل لِنُصْرَة الْمَظْلُومِين ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ وُجُودَ الشَّرّ يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ وُجُودِ الْآلة .

يُمْكِنُ فِي الْوَاقِعِ رَدّ الْأَسْئِلَة الثَّلَاثَةِ السَّابِقَةِ إِلَى إشكالين مركزيين :

الْإِشْكَالُ الْأَوَّلُ يَتَّصِل بِتَصَوُّرَات الْبَشَر عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ صُورَةُ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَذْهَانِنَا ، وَهَل مَصْدَرُ هَذِهِ الصُّورَةِ عَقْلِيٌّ مَحْضٌ أَم شَرْعِيّ ، خُصُوصًا أَنَّنَا نَتَحَدَّث هُنَا عَنْ مَسَائِل ميتافيزيقية تَتَّصِل بِعَالِم الْغَيْب ، وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَخْضَع صُورَة اللَّهُ تَعَالَى لقوانين الْإِنْسَان ومعهوداته فِي المعايير والتقويمات ؟ هَلْ يَجِبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَخْضَعَ لقوانين الْعَقْل الْبَشَرِيّ وتقويماته ؟ هُنَا يَظْهَرُ الْإِشْكَال الْكَبِيرِ فِي تَشْبِيهِ اللَّه بِخَلْقِه أَوْ قِيَاسِ الْخَالِقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ ، الْأَمْرُ الَّذِي مِنْ شَأْنِه أَنْ يُلْغِيَ الفَوَارِق بَيْنَهُمَا .

الْإِشْكَال الْآخَر يَتَّصِل بتصوراتنا نَحْن الْبَشَر عَنْ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَمَوْقِعُه فِي هَذَا الْكَوْن ، هَلْ هُوَ حَاكِمٌ أَمْ مَحْكُومٌ ؟ وَهَلْ هُوَ خَالِقٌ أَم مَخْلُوقٌ ؟

مُشْكِلَةُ الشَّرَّ فِي النقاشات التَّارِيخِيَّة

قادت مُشْكِلَةُ الشَّرّ تاريخيا إِلَى ظُهُور جُمْلَةٍ مِنْ الأفْكار والمعتقدات الَّتِي حَاوَلَت تَجَاوَزَهَا بِصُورَة أَوْ أُخْرَى ، بَل قادت بَعْضُهُمْ إِلَى إِنْكَار وُجُودِ الصَّانِعِ قَدِيمًا ، وَمِنْ تِلْكَ الْمُعْتَقَدَات –مثلا– أَن الثَّنَوِيَّة قَالُوا بِوُجُود إِلَهَيْن لِلتَّخَلُّصِ مِنْ مُشْكِلَةُ الشَّرّ ، إِلَه لِلْخَيْر وَآخَر لِلشَّرّ حَتَّى يتجاوزوا ذَلِك التَّنَاقُض الْمُشَار إِلَيْهِ سَابِقًا .

وَقَالَت الْمَسِيحِيَّة بِفِكْرِه الْخَطِيئَة الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ الشُّرُور ، وَفِي الْإِسْلَام ذَهَب الْمُعْتَزِلَةُ إِلَى الْقَوْلِ أَنَّ الْعِبَادَ يخلقون أَفْعَالِهم ، وَبِهَذَا ظَنّوا أَنَّهُمْ قَدْ حُلُوًا مُشْكِلَةُ الشُّرُور الْإِنْسَانِيَّة ، وَذَهَب الْأَشَاعِرَة إِلَى أَنْ اللَّهَ خَالِقُ كُلَ شَيْءٍ وَلَكِنْ الْعِبَاد يَكْتَسِبُون أَفْعَالِهِم ، فميزوا بَيْنَ الْخَلْق وَالْكَسْب (الفعل غَيْر المؤثر) ، لِإِثْبَات السَّبَبِيَّة وَالتَّأْثِير لِلَّهِ وَحْدَهُ .

مَفْهُوم الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّة

ان أغلب الإشكالات سببها تحديد الدقيق للمعنى الذي يثير الشك والريبة او الجدل وبقدر ما تتعدد التعريفات تتعدد الاختلافات والاشكالات لذلك فلقد توصل سقراط لحل قضية التعاريف للوصول الى نتائج منطقية والمنهج السقراطي يُعرف أيضًا باسم منهج إلينخوس أو الجدل السقراطي، ، إذ يقوم على طرح الأسئلة والإجابة عنها بغرض تحفيز التفكير النقدي واستخلاص الأفكار والافتراضات المسبقة الضمنية لأنه يُستعمل بغرض إخراج أو توليد التعريفات بشكل ضمني من معتقدات المتحاورين، أو بغرض مساعدتهم في الفهم بشكل أفضل .

وبناء عليه يجب البحث عن تعريف دقيق لمعنى الخير والشر في النصوص القرآنية وبعد ذلك سنوزن كل القضايا والاشكالات المتعلقة بهما بهذا الميزان المنطقي التعريفيوسنبدأ بمفهوم الخير

من الألفاظ المركزية في القرآن لفظ (الخير)، حيث ورد هذا اللفظ ما يقرب من مئة وثمانين مرة، جاء في معظمها (اسماً)، كقوله تعالى: ﴿ذلكم خير لكم﴾ (البقرة:45)، وجاء في سبعة مواضع فقط (فعلاً)، منها قوله تعالى: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ (القصص:66) .

ولفظ (الخير) في الأصل اللغوي يدل على العطف والميل، وعليه قالوا: (الخير) ضد الشر؛ لأن كل أحد يميل إليه، ويعطف على صاحبه؛ وعليه أيضاً قالوا: (الاستخارة) وهي الاستعطاف، لأن المستخير يسأل خير الأمرين، ويُقدِم عليه؛ و(الخِيَرة): الاختيار؛ لأن المختار لأمر إنما هو مائل إليه، ومنعطف عليه دون غيره.

ثم توسعوا في هذا الأصل اللغوي، فقالوا: رجل خيّر، أي: فاضل؛ وقوم خيار وأخيار، أي: من أفاضل الناس. و(الخير) من أسماء المال، والعرب تسمّى الخيل: الخير؛ لما فيها من الخير.

ثم إن (الخير) في التعريف الاصطلاحي: ما يرغب فيه كل الناس، كالعقل، والعدل، والفضل، والشيء النافع، وضده: الشر .

و(الخير) يطلق على نوعين: أحدهما: خير مطلق، وهو أن يكون مرغوباً فيه بكل حال، كطلب الجنة. وثانيهما: خير نسبيٌّ، ويكون مقابلاً للشر، كالمال يكون خيراً للبعض، ويكون شراً لآخرين.

ولفظ (الخير) في القرآن على وجهين: أحدهما: أن يكون (اسماً)، كقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ (آل عمران:104) . ثانيهما: أن يكون (وصفاً)، على تقدير صيغة (أفعل)، كقوله تعالى: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ (البقرة:184)، أي: الصيام للمسافر أفضل من الفطر، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ (البقرة:197)، أي: أفضل ما يتزود به قاصد البيت الحرام تقوى الله وورد لفظ (الخير) مقابلاً لـ (الشر) مرة، وورد مقابلاً لـ (الضّرَ) مرة أخرى، فمن أمثلة مقابلته لـ (الشر)، قوله سبحانه: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (الزلزلة:7-8)، ومن أمثلة مقابلته لـ (الضر) قوله تعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾ (الأنعام:17) .

أما من حيث المعنى، فإن لفظ (الخير) في القرآن أطلق على معان، منها

الأول: المال، كقوله تعالى: ﴿إن ترك خيراً﴾ (البقرة:180)، فـ (الخير) هنا – كما قال القرطبي – المال من غير خلاف. وعلى هذا المعنى جاء أكثر استعمال القرآن للفظ (الخير).

الثاني: الطعام، كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ (القصص:24)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة.

الثالث: القوة، كقوله سبحانه في حق مشركي العرب: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ (الدخان:37)، قال البغوي: يعني: أقوى، وأشد، وأكثر من قوم تُبَّع، وقال ابن عاشور: "المراد بالخيرية: التفضيل في القوة والمَنَعَة". وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾ (القمر:43).

الرابع: العبادة والطاعة، كقوله سبحانه: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ (الأنبياء:73)، قال القرطبي: "أي: أن يفعلوا الطاعات".

الخامس: حُسْن الحالة، كقوله تعالى حاكياً قصة شعيب عليه السلام مع قومه: ﴿إني أراكم بخير﴾ (هود:48)، قال الطبري: "يدخل في خير الدنيا: المال، وزينة الحياة الدنيا، ورخص السعر، ولا دلالة على أنه عنى بقيله ذلك بعض خيرات الدنيا دون بعض، فذلك على كل معاني خيرات الدنيا"، وقال ابن عاشور: "الخير: حسن الحالة".

السادس: التفضيل، من ذلك قوله تعالى: ﴿أولئك هم خير البرية﴾ (البينة:7)، أي: المؤمنون بالله حق الإيمان أفضل الخلق أجمعين.

السابع: القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا﴾ (النحل:30)، قال القرطبي: "المراد: القرآن".

وعلى ضوء هذه المعاني للفظ (الخير)، نسلط الضوء على بعض الآيات التي هي على صلة وثيقة بهذا اللفظ، لننظر ماذا تفيد من معنى.

فقوله تعالى: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ (الأعراف:188)، المراد بـ (الخير) في هذه الآية الكريمة : المال – على ما رجحه الشنقيطي وغيره – ويدل على ذلك كثرة ورود الخير بمعنى (المال) في القران، كقوله تعالى: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ (العاديات:8)، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، في معنى الآية، قال: ﴿لاستكثرت من الخير﴾، أي: من المال.وقوله سبحانه: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير﴾ (فصلت:49)، قال الطبري: "الخير في هذا الموضع: المال وصحة الجسم"، وقال القرطبي: "والخير هنا: المال، والصحة، والسلطان، والعز"، ويقوي هذا المعنى قراءة ابن مسعود رضي الله عنه لهذه الآية: (لا يسأم الإنسان من دعاء المال).

وقوله تعالى: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير﴾ (الحج:36)، قال الطبري: ﴿لكم فيها خير﴾: الأجر في الآخرة بنحرها والصدقة بها، وفي الدنيا: الركوب إذا احتاج إلى ركوبها. ونحو هذا قال البغوي.

وقوله سبحانه: ﴿أشحة على الخير﴾ (الأحزاب:19)، قال بعض المفسرين: الخير هنا: الغنيمة التي يصيبها المسلمون في المعركة. وقال آخرون: الخير هنا: المال المنفق في سبيل الله. وقال فريق ثالث: الخير هنا: المودة بالمسلمين، والشفقة عليهم. ويكون معنى الآية عموماً: أن المنافقين لا يروق لهم أن تكون الغنائم للمسلمين، بل يريدونها خاصة لهم من دون المؤمنين. وأيضاً، فإن المنافقين يقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، حرصاً على ما في أيديهم من المال. وهم فوق هذا وذاك لا يوادون المسلمين، ولا يشفقون بهم حال اشتداد القتال.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ (البقرة:105)، فالمراد بـ (الخير) هنا: شرعة الإسلام، قال ابن كثير: "ينبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم".

وقوله تعالى: ﴿إني أحببت حب الخير﴾ (ص:32)، قال ابن العربي: "يعني: الخيل، وسماها (خيراً)؛ لأنها من جملة المال الذي هو خير بتسمية الشارع له بذلك". وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (إني أحببت حب الخيل).

وقوله تعالى: ﴿فيهن خيرات حسان﴾ (الرحمن:70)، فـ (الخيرات) في الآية: حور العين، وصفن بذلك: إما لأنهن خيّرات الأخلاق. وإما لأنهن مختارات، اختارهن الله، فأبدع خلقهن باختياره.

من تعريف وجوه الخير التي ذكرت في القرآن الكريم نستطيع أن نحدد بشكل تقريبي جدا تعريف الخيرً

أولا : إن لفظ (الخير) كغيره من ألفاظ القرآن، لا يُفهم المراد منه تماماً إلا من خلال معرفة السياق الذي ورد فيه، فعلى الرغم من أنه قد ورد في كثير من الآيات القرآنية بمعنى (المال)، إلا أنه قد ورد في آيات غير قليلة على غير هذا المعنى، مما يحتم ضرورة معرفة السياق الذي ورد فيه هذا اللفظ أو ذاك.

ثانيا : ان الخير يكون خيرا مطلقا ويتمثل ذلك في كل عمل من شأنه التقرب من الله تعالى والفوز برضاه ونعيمه وهناك خير نسبي وهو كل أمر يجعل الانسان معافيا في بدنه وماله وعرضه ولا يصيبه مكروه فيهم

ثالثا : ان الخير نسبي فالمال خير لكنه قد يتحول الى أداة للشر وكذلك العلم والبنون وهكذا .

مفهوم الشر في النصوص القرآنية

الشر خلاف الخير، وهواسمٌ جامع للأتى :

الرذائل والخطايا ، والسوء، والفسادوالمصائب و الضرر ونقص الأموال وغير ذلك

وردت كلمة (الشر) وصيغها في القرآن الكريم (٣٠) مرة. والصيغ التي وردت، هي:

اسم مفرد ورد 29مرة

اسم جمع وردت مرة واحدة

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾

ان أَوَّل فَعل شِرَيرٌ وَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ كَانَ الْقَتْل وَهُوَ أَشَدُّ أَنْوَاع الشُّرُور ضَرَرًا وقِصَّة قَتْلِ ابْنُ آدَمَ لِأَخِيهِ سَبَبُهَا الْحَسَد و تَتَمَثَّل فِي ان كِلَاهُمَا قَدْ قَدِمَا قربانيين لِلَّه فَتُقْبَل اللَّهُ مِنْ الْمَقْتُولُ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ الْقَاتِلِ

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : 27]

۝ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ [سورة الْمَائِدَة : 27-31] .

فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ ابْنِي نَبِيِّنَا آدَم وَهُمَا يُعْرَفَان حُقُوقِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ فَيَتَقَدَّم الِاثْنَان بقربانيين يَقْبَلُ مِنْ الْأَوَّلِ وَيَرْفُض مِنْ الثَّانِي و سَبَبَ ذَلِكَ فَسَّرَه لَنَا الْمَقْتُولِ إنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ أَيْ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللهَ وَلِأَنَّهُ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ قَالَ لأَخِيهِ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ

لَكِن الْقَاتِلُ لَمْ يَكُنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ ويخافه لِذَلِك سَوَّلَت نَفْسه قَتْلِ أَخِيهِ الزَّاهِد التَّقِيّ

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ

مِنْ تَصْوِيرِ مُشَاهَدْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَتَحْلِيل مادار فِيهَا مِنْ حِوار بإمكاننا أَن نقوي فهمنا عن ماعرفناه عن مفهوم الْخَيْرِ وَالشَّرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ و بَعْدَ ذِكْرِ بَعْضُ النُّصُوصِ الَّتِي تُفِيدُ ذَلِكَ أيضا .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : 110]

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : 148]

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7]

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 8]

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عِمْرَان : 26]

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عِمْرَان : 165]

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 18]

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 22]

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم : 32]

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن : 16]

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المزمل : 20]

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[النساء : 19] .

وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 216] .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٧ – ١٠

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا [النساء : 79] .

نتيجة

أَوَّلًا : خلق اللَّهِ النَفس الْبَشَرِيَّة وَرَكَبَهَا بِطَرِيقِه تكون فيها قابلة لفعل الْخَيْرِ وَالشَّرَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ فَالَّذِي يُزَكَّى نَفْسِه وَيَلْحَقُهَا بِالتَّقْوَى فَلَقَد نَجح فِي ذَلِكَ وَابْتَعد بِهَا عَنْ الْمَعَاصِي وَالشُّرُور والموبقات أَمَّا الَّذِي دسّاها أَي : أخملها ووَضَعَ مِنْهَا بخذلانه إِيَّاهَا عَنْ الْهَدى حَتَّى رَكِبَ الْمَعَاصِي وَتَرَك طَاعَةِ اللَّهِ فَهَذَا مَعْنَى التدسية وَأَصْلُهُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ التدسيس إِخْفَاء الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ ، وَلَا زَالَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ مُسْتَعْمَلَة إِلَى الْيَوْمِ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، تَقُول : دسّ كَذَا ، يَعْنِي أَخْفَاه ، يَدُسُّه يُخْفِيه .

فَالْأَمْر مَتْرُوكٌ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرّ للانسلن نَفْسِه ولارادته وَمَشِيئَتِه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 8]

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا [النساء : 79] . فَالْحَسَنَة هُنَا بِمَعْنَى الْخَيْر وَالسَّيِّئَة هِي الشَّرّ .

ثَانِيًا : النَّصَ الْقُرْآنِيَ لَمْ يَعْرِفَا لَنَا ماهُو الْخَيْر بِذَاتِه وَلَا الشَّرّ بِذَاتِه إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمَا فِعْلٍ أَوْ صِفَةٌ

أَمْثِلَةٌ عَنْ ذَلِكَ نَقُولُ إِنَّ الصِّدْقَ خَيْرٌ وَالْكَذِب شَرّ وَالْأَمَانَة خَيْرٌ وَالرَّذِيلَة شَرّ وَلِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَدْعُو إِلَى الْعَدْلِ وَالْإِحْسَان وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَأَكْثَرُ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّة تَدْعُو لِلْفَضَائِل وَعَمِل الْمَعْرُوف لِذَلِك فَكُلُّ هَذِهِ الْأَعْمَالُ تَدْخُلُ فِي تَعْرِيفِ الْخَيْر وَيُرَادُ بِهَا سَعَادَةَ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُو قِمَّة الْخَيْر .

لِذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُنْسَبَ لِلَّه الشُّرُور أَو الْحَضّ عَلَيْهَا يَقُولُ تَعَالَى : : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28) .

الْحَقّ وَالْمِثْل الْأَعلى وَالْحِكْمَة

الْحَقّ

فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ سُورَةِ يُونُس : 32

الْحَقُّ هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى ، وَمَعْنَاه : الْمُتَّصِف بِالْوُجُود وَالدَّوَام وَالْحَيَاة والقيومية وَالْبَقَاء فَلَا يَلْحَقُهُ زَوَالٍ وَلَا فِنَاءٍ . ، وَالَّذِي يَحِقَّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ . قَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، مِنْهَا :

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : 62

هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ يُونُس : 30

فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ سُورَةِ يُونُس : 32

هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا سُورَةِ الْكَهْفِ : 44

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ سُورَةِ الْحَجِّ : 6

يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ سُورَةِ النُّورِ : 25

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ : اللهمَّ لَك الحمدُ ، أَنْت نورُ السماواتِ والأرضِ ، وَلَك الحمدُ ، أَنْت قَيَّامُ السماواتِ والأرضِ ، وَلَك الحمدُ ، أَنْت ربُّ السماواتِ والأرضِ ، وَمَن فيهنَّ أَنْتَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ

حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ أَنْتَ إِلَهِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ

أَقْوَالٌ فِي تَفْسِيرِ مَعْنَى الْحَقِّ

قَالَ الْخَطَّابِيُّ : « الْحَقُّ هُوَ الْمُتَحَقِّق كونًا ووجودًا وَكُلُّ شَيْءٍ صَحَّ وُجُودِه وَكَوْنُه فَهُوَ حَقٌّ »

قَال الخشيري : « الْحَقُّ هُوَ بِمَعْنَى الْمَوْجُود الْكَامِل وَكَذَا مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ »

قَالَ الْغَزَالِيُّ : « الْحَقُّ هُوَ الَّذِي فِي مُقَابَلَةِ الْبَاطِل وَالْأَشْيَاء قَد تستبان بِأَضْدَادِهَا وَكُلُّ مَا يُخْبِرُ عَنْهُ فَأَمَّا بَاطِلٌ مطلقًا وَأَمَّا حَقٌّ مطلقًا وَأَمَّا حَقٌّ مَنْ وَجْهٍ وَبَاطِلٌ مِنْ وَجْهٍ . فَالْمُمْتَنِع بِذَاتِه هُوَ الْبَاطِلُ مطلقًا . وَالْوَاجِب بِذَاتِه هُوَ الْحَقُّ مطلقًا . وَالْمُمْكِن بِذَاتِه الْوَاجِب بِغَيْرِه هُوَ حَقٌّ مَنْ وَجْهٍ بَاطِلٌ مِنْ وَجْهٍ »

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : « الْحَقُّ هُوَ الْمَوْجُودُ حَقِيقَةً ، الْمُتَحَقِّق وُجُودِه وَأُلُوهِيَّتِه وَالْحَقّ ضِدّ الْبَاطِل »

قَالَ الطَّبَرِيُّ : « ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ رَجَعَ الْمُشْرِكُونَ يومئذٍ إِلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ رَبِّهِم وَمَالِكُهُم الْحَقّ لَا شَكَّ فِيهِ ، ورُفِعت الْحُجب وَصَارَ الْأَمْرُ حَقٌّ »

وَقَالَ الطَّبَرِيّ أيضًا : « ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ، فَهَذَا الَّذِي يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَفْعَال ، فيرزقكم مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَيَمْلِك السَّمْعَ وَالْأَبْصَار ، وَيَخْرُج الْحَيّ مِنْ الْمَيِّتِ وَالْمَيِّتُ مِنْ الْحَيِّ ، وَيُدْبِر الْأَمْر ؛ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ ، لَا شَكَّ فِيهِ ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ يَقُول : فَأَيُّ شَيْءٍ سِوَى الْحَقّ إِلَّا الضَّلَالُ ، وَهُو الْجَوْرِ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ » .

فِي مَا يُسَمُّوه الكِتَابِ الْمُقَدَّسِ : قَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ : « مَا هُوَ الْحَقُّ ؟ » وَلَمَّا قَالَ هذَا خَرَجَ أَيْضًا إِلَى الْيَهُودِ وَقَالَ لَهُمْ : « أَنَا لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً . " (يو 18 : 38) .

لِكِتَاب الْمَقْدِس تكْوِين 17 : 1-2

19- اسْمُ اللَّهِ الْحَقَّ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ : (وَلِذلِكَ يَقُومُ لِيَرْحَمَكُمْ ، لأَنَّ الرَّبّ إِلهُ حَقّ . طُوبَى لِجَمِيعِ مُنْتَظِرِيهِ) .

الكِتَابِ الْمُقَدَّسِ خُرُوج 15 : 26

46- اسْمُ اللَّهِ الرَّءُوف وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : (15أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَإِلهٌ رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَالْحَقِّ) .

مِنْ قِرَاءَةِ النُّصُوص الْقُرْآنِيَّة الَّتِي ذَكَرَ اللَّهِ تعَالَى نَفْسَهُ بِأَنَّهُ الْحَقَّ نسْتَطِيعُ أَنْ نَصِلُ إِلَى مامعنى وَمَفْهُوم الْحَقَّ وفْق نَظَرِه الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

أَوَّلًا : إِنَّ اللَّهَ حَقَّ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ هُوَ الضَّلَالُ وَمَعْنَى الضَّلَال لُغَوِيًّا ومصطلحا : مَادَّةٌ (ضلل) لُغَة تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَهُو ضَيَاع الشَّيْء وَذَهَابُه فِي غَيْرِ حَقِّهِ . يُقَال : ضلَّ يَضِل ويَضَل ، لُغَتَان . وَكُلّ جَائِرٌ عَنِ الْقَصْدِ ضَالٌّ . وَالضَّلَال وَالضَّلالَة بِمَعْنَى : الْحِيرَة وَالْعُدُولُ عَنْ الصَّوَابِ . وَأَصْل الضَّلَال الزَّوَال عَنْ الْقَصْدِ ، وَالسَّيْر عَنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ ، وَصَاحِبُه بِصَدَد الْهَلَاك ؛ وَلِهَذَا قِيلَ : أَنَّ الضَّلَالَ الْهَلَاك . ثُمَّ اُسْتُعِيرَ لِمَنْ زَالَ عَنْ سَبِيلِ طَاعَةِ اللَّهِ؛ فَقِيل لِلْكَافِرِ : ضَالٌّ ، وللفاسق مِثْله ؛ ثُمّ جُعِل اسماً لِلْعِقَاب عَلَى الْفِسْقِ وَالْكُفْر . وَرَجُلٌ ضليل ومضلَل ، إِذَا كَانَ صَاحِبُ ضَلَال وَبَاطِلٌ . وَوَقَعَ فِي أَضَالِيل وَأَبَاطِيل .

فَاللهُ هُوَ الْحَقُّ بِمَعْنَى أَنَّهُ الْغَايَة والقصدوالمرجع لِمَنْ يُرِيدُ الْهِدَايَةِ وَلَا يَدْخُلُ فِي سُبُلِ وَدُرُوب الْأَبَاطِيل

وَكُلُّ شَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَعْرِفَ أَحَقّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ أَمْ كَذَبَ أَم افْتِرَاء وَغَيْرِ ذَلِكَ فَعَلَيْنَا أَن نُعِيدُه إِلَى مِيزَان الْحَقُّ الإِلَهِيُّ لِلْحُكْمِ عَلَيْهِ سنعطي بَعْضَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ مِثَالًا عَلَى ذَلِكَ

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عِمْرَان : 164]

فَالرَّسُول الْكَرِيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْحَقَ أَيْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانُوا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَيْ فِي انْحِرَافِ وَبَعْد وَضَيَاع تِيه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [النساء : 44]

أَيْ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ مِنْ نَشْرِ الضَّلَالَة تِجَارَتِهِم وَعَمَلَهُم لِذَلِك يُرِيدُونَ أَنْ يضللوا النَاسُ عَنْ السَّبِيلِ أَيْ الطَّرِيقُ نَحْوِ الْإِيمَانِ الْحَقُّ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ

﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : 60]

فَالشَّيْطَان هَذِه وَظِيفَتُهُ أَنْ يَجْعَلَ النَاسَ تَسِير وَرَاءَهُ وَهُوَ يَقُودُهُمْ إِلَى الضَّلَالِ بَعِيدًا كَثِيرًا عَنْ الْمَنْهَج الْإِلَهِيّ مَنْهَجُ الْحَقَ وَالصَّوَابِ .

ثَانِيًا : إِنَّ اللَّهَ لِأَنَّهُ حَقٌّ فَوِلَايَتُه حَقّ وَحُكْمه حَقّ :

هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا سُورَةَ الْكَهْفِ : 44

فَالْحُكْم وَالْوِلَايَة هُنَاك هِي صَارَت لِلَّهِ بَعْدَ أَنْ فَوَّضَ بِهَا الْبَشَر واستخلفهم لَكِنَّهُم اِبْتَعَدُوا عَنْ الْمَنْهَج

وَهِيَ وِلَايَةُ وَحُكْم وَفَصَّل يَقُومُ عَلَى الْحَقِّ الْمُطْلَق لامجال فِيه للآهواء وَالتَّنَزَعَات وَالْأَحْقَاد وَيُحْكَم اللَّهُ بَيْنَ الْعِبَادِ وَهُنَاك تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالثَّوَاب وَهَذَا النَّصُّ الْقُرْآنِيّ وَرَدَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَهِي تَتَحدّث عَنْ فِتْيَةٍ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَهَرَبُوا مِن بَطْش حَاكِم فَاسِدٌ فَاَللَّه يَقُولُ لَهُمْ الْآن صِرْتُم فِي رِعَايَةِ اللَّه وَوِلَايَته وَحُكْمِهِ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْكُم وَلَا تَحْزَنُون .

فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ سُورَةِ يُونُس : 32

ثَالِثًا : أَنَّ كُلَّ مايصدر عَنْ الْحَقِّ فَهُوَ حَقٌّ وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مُطْلَقَة وماسواها فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَاطِلًا فناقصا لَا يَصِلُ مَهْمَا أُوتِي مَنْ عَلِمَ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ تَدْبِيرٍ لَا يَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيّ :

- ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ [البقرة : 119]

فَإِرْسَال الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ إِلَى النَّاسِ كَانَ بِالْحَقِّ لِأَنَّهُ مِنْ الْحَقِّ .

- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة : 176]

وأَنْزَل الْكِتَاب وَالْكُتُب السَّمَاوِيَّة بِالْحَقِّ أَيْضًا .

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : 73]

وَخَلْقُ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَيَوْم يُعِيدُهَا كَما كَانَتْ بِالْحَقِّ وَيَقُول كُنْ فَيَكُونُ بِالْحَقِّ

- ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام 151]

- ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : 5]

- ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ﴾ [الحجر : 8]

- ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الحجر : 64] كَلَامُ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَكُلّ ماتسمعه مِنْهُم بَاطِلٌ وَكَذَّب

- ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء : 105] نُزُولِه ومحتواه بِالْحَقِّ

- ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : 13]

- ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عِمْرَان : 62]

كُلُّ مَا يُقَصُّ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ قَصَصٍ هُو بِالْحَقِّ .

- ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 18]

- ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون : 41] وَلَيْس ظُلْمًا

- ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : 33]

- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 68]

- ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 69]

- ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ غَافِرٌ 20

- ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان : 39]

ونسترشد مِنْ كُلّ هَذِهِ النُّصُوصُ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ وَأَمر وَفعل يَصْدُرُ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ حَقٌّ وَخِلَافُه هُوَ بَاطِلٌ لَا مَحَالَةَ واستذكر هُنَا بَيْت لِلشَّاعِرِ لَبِيد يَقُولُ فِيهِ :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ وَكُلُّ حَالٍ لَا مَحَالَةَ زَايَل .

مُقَارَنَة بَيْنِ الْحُقُوق الْإِلَهِيَّة وَالْحُقُوق الْوَضْعِيَّة (الطَّبِيعِيَّة)

الْحُقُوقَ هِيَ جَمْعُ حَقٍّ وَتُعْتَبَر الْحُقُوق بِشَكْلٍ عَامٍ بِأَنَّهَا الشُّرُوط الأَسَاسِيَّة لِلْحَيَاة الْبَشَرِيَّة ، وَدُونَهَا لَا يَسْتَطِيعُ الْأَفْرَاد إِدْرَاكِ مَا لَهُمْ ، فَعِنْد امتلاكهم لِهَذِهِ الْحُقُوقِ يَسْتَطِيعُون تَنْمِيَة شخصياتهم والمساهمة بِشَكْل أَفْضَلُ فِي نُمُوّ مجتمعهم ، وللحقوق أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ وعديدة ، وَمَن أَهَمَهَا الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة لِلْأَفْرَاد ؛ كَالْحَقّ فِي الْمِلْكِيَةِ ، وَحَقّ الْحَيَاة ، وَحَقُّ الْحُرِيَّةِ ؛ وَذَلِكَ بِحُكْمِ طبيعتهم الْبَشَرِيَّة وَلَيْس بناءً عَلَى الْقَوَانِين وَالْعَادَات السائدة .

مَفْهُوم الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة

يُعتبر مَفْهُوم الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة وَجَوَانِبه وَإِبْعَاده الْمُخْتَلِفَة مِن الأُسُس لفكرة حُقُوقِ الإِنْسَانِ فِي الْفِكْرِ الْغَرْبِيّ ، وَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْحُقُوقَ الطَّبِيعِيَّة كَالْحُرِيَّة ، وَالتَّمَلُّك ، وَحَقّ الْمُسَاوَاة ، مَا هِيَ إِلَّا حُقُوق فَرْضُهَا وشرّعها قَانُون الطَّبِيعَة لِكَوْنِهَا مَصْدَرٌ الْقَوَانِين الثَّابِتَة لِلْأَفْرَاد ، وَيُعْتَبِرُ مَفْهُومَ الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة بِلَوْرَةٌ لِرُؤْيَة فَلْسَفِيَّةٌ تَشَكَّلَت فِي الْقَرْنِ الثَّامِنَ عَشَرَ تَحُثُّ عَلَى أَنَّ الْفَرْدَ بِطَبِيعَتِه الْآدَمِيَّة يمتلك حقوقًا مستمدة مِن طَبِيعَتِه ، فَهِيَ ثَابِتَةٌ وَلَا تُنْتَزَعُ ، وَهِي حُقُوق لَا يمنحها الْمُجْتَمَع لِأَفْرَادِه إِنَّمَا يُقِرّ وَيَعْتَرِف بِهَا ، وَيَقُوم هَذَا الْمَفْهُومِ عَلَى عِدَّةِ أُسس وَمِنْهَا :

الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة لِلْأَفْرَادِ لَا تَقُومُ عَلَى الْوُجُودِ القَانُونِيّ أَو السَياسِيّ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَفْرَادَ يُخلقون بِحُقُوقِهِم الطَّبِيعِيَّة ، وَعِنْدَ ظُهُورِ الْمُجْتَمَع الْمَدَنِيّ يَأْخُذ الْأَفْرَاد حُقُوقِهِم الطَّبِيعِيَّة إِلَى مجتمعاتهم الْمَدَنِيَّة .

اُعْتُبِرَت الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة أَنَّ مَفْهُومَ الْحُرِيَّة أَسَاس لِلْوُجُود الْإِنْسَانِيّ .

يَخْضَع جَمِيعِ الْأَفْرَادِ لقوانين الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة ؛ فَالْجَمِيع مُتَسَاوُون ومستقلون ، وَلَا يُسمح لِأَحَدٍ أَنْ يُسِيءَ لِأَحَد سَوَاءٌ بِتَعَدِيه عَلَى حُرِيَّتِهِ ، أَوْ صِحَّتُهُ ، أَوْ حَيَاتُهُ ، أَوْ عَلَى مُمْتَلَكَاتِهِ .

تارِيخ الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة

تَطَوّر مَفْهُوم الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة خِلَال الْفَتَرَات كَمَا يَلِي :

يَعُود أَصْل الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة إِلَى الْفَلَاسِفَة والمفكرين اليونانيين القدامى مُنْذ قَرَابَة الْقَرْنِ الرَّابِعِ قَبْلَ المِيلَادِ ، وَمَن أَهَمّ الْفَلَاسِفَة الَّذِين ناقشوا مَبَادِئِهَا أَرِسْطُو .

وَفِي الْعُصُور الْوُسْطَى أَكَّدُوا عَلَى أَنَّ الْأَفْرَادَ مُتَسَاوُون بطبيعتهم ، وَلَهُم نَفْس الْحُقُوق أَمَّا فِي العُصُورِ الحَدِيثَة تَمّ تَنَاوَل الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة ، وتطوير نظريتها مِنْ قِبَلِ الْفَلَاسِفَة والمفكرين أَمْثَال تُوماس هوبز وجون لُوك ، وَكَان الْأَخِير الْأَكْثَر تأثيراً بِهَذِه الْحُقُوق ، وَقَدْ قَامَ بِتَقْدِيم أُطْروحاتٌ تَبْحَثُ فِي فَتْرَةٍ مَا قَبْلَ انْتِشَار الدُّوَل بِأَنْ كَانَ هُنَالِكَ حَالَة طَبِيعِيَّةٌ ، بِحَيْث يمتلك الْإِفْرَادُ فِيهَا حُرِيَّة التَّمَلُّك وَالْحَيَاة .

أسُس الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة

وَمَن أَهَمّ هَذِه الأُسُس مَا يَلِي :

القَانُون الطَّبِيعِيّ وَالْعِنَايَة الْإِلَهِيَّة : حَيْثُ اُعْتُبِرَ الْفَلَاسِفَةُ أَنَّ الْقَوَانِين وَالْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة عِبَارَةٌ عَنْ عِنَايَة إِلَهِيَّة ، وَهُو مُشَارَكَة بَيْن القَانُون الْأَبَدِيّ وَالْقَانُون الطَّبِيعِيّ ، وَبِأَنّ الطَّبِيعَة هِيَ مِنْ أَرَادَهُ اللَّهِ ، فالكائنات الْعَاقِلَة وَغَيْر الْعَاقِلَة لَهَا نَصِيبٌ فِي هَذِهِ الطَّبِيعَة .

القَانُون الطَّبِيعِيّ والعقلانية الْعِلْمِيَّة : وَهِيَ أَنَّ القَانُون الطَّبِيعِيّ يُشْكِل الْمَبَادِئ الأَسَاسِيَّة للعقلانية الْعَمَلِيَّة للبشرية ، ، فَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَبَادِئَ القَانُون الطَّبِيعِيّ مُلْزِمَةٌ عالميًا بطبيعتها ، وَإِن مَبَادِئ القَانُون الطَّبِيعِيّ يُمْكِن مَعْرِفَتِهَا عالميًا بِوَاسِطَة الطَّبِيعَة .

جَوْهَرُ رَأْي القَانُون الطَّبِيعِيّ : يُعْرَف الْمَبْدَأ الأَسَاسِيّ لِلْقانون الطَّبِيعِيّ بِأَنَّ الْخَيْرَ يَجِبُ فِعْلُهُ وَيَجب الإِبْتِعَادُ عَنِ الشرّ ، وَيُمْكِن الْقَوْل أَنَّ هَذَا الْفِعْلُ فَقَطْ الَّذِي يُمْكِنُ فَهْمِه عَلَى أَنَّهُ يَتَوَافَقُ مَعَ هَذَا الْمَبْدَأ الخيّر ، كَمَا أَنَّهُ يَظْهَرُ ضَمِن فكره أَنَّهُ يَجِبُ الْبَحْثُ الْخَيْر وَتَجَنُّب الشَّرّ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُفهم عَلَى أَنَّهُ عَمَلٌ وَاضِحٌ ، لكِنْ لَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْعَى وَرَاء الْخَيْرُ فِي الْعَمَلِ بِسُهُولَة .

هُنَاك حُقُوق طَبِيعِيَّةٌ عَدِيدَة لِلْأَفْرَاد ، وَمِنْهَا :

الْحَقَ فِي الْحُرِيَّة : وَذَلِكَ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ الْأَفْرَادَ لَهُمُ الْحَقُّ فِي الْحَيَاةِ بِحُرِيَّة ، وَأَنْ تكُونَ تحركاتهم غَيْرُ مُقَيَّدَةٍ ، ويمتلكون حُرِيَّة الْفِكْر الْخَاصَّة بِهِم ، وحصولهم عَلَى حَقِهِم بِالْخُصُوصِيَّة فِي حَيَاتِهِمْ .

الْحَقَ فِي الْحُفَّاظُ عَلَى الْحَيَاةِ : وَيَتَمَثَّل ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ أَنَّ لِكُلَ الْأَفْرَاد الْحَقَ فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا يُمْكِنُ لِأَيّ سَلَّطَه أَن تسلبهم هَذَا الْحَقُّ ، وَيَتَمَثَّل مِنْ خِلَالِ الدّفَاعِ عَنْ التَّفْسِ ضدّ أَيْ شَخْصٍ قَدْ يُسَبَب الْأَذَى لِلْفَرْد ، وَيُعَدّ جَمِيع الْفَلَاسِفَةِ عَلَى مرّ الزَّمَانِ أَنْ الْحَقَّ فِي الْحُفَّاظُ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ أَهَمَ الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَيْهَا الْفَرْد .

الْحَقَ فِي تكْوِين أَسَرَه : لِكُلَ فَرْدٍ الْحَقَ فِي الزَّوَاجِ وتكوين أَسَرَه خَاصَّةٌ بِهِ ، وَلَا يَجِبُ الْحُصُولِ عَلَى مُوَافَقَةِ الدَّوْلَة أَو الْحُكُومَة لِتَحْقِيق ذَلِك .

الْحَقَ فِي التَّمَلُّكِ : وَذَلِك بأحقية كُلَ فَرْدٍ بِالتَّمَلُّك سَوَاءٌ بِمُفْرَدِه أَوْ مَعَ جَمَاعَةٍ ، وَيَمْتَدّ هَذَا الْمَفْهُومِ لِيَشْمَل الْأَفْرَاد وأحقيتهم فِي الْحُصُولِ عَلَى الْعَمَلِ الْخَاصَ بِهِم .

الْحَقَ فِي كَسَب الْعَيْش : لِلْأَفْرَاد الْحَقَ فِي الْعَمَلِ لِكَسْب لُقْمَة الْعَيْش ، وَاعْتَبَر الْفَلَاسِفَةُ أَنَّ سَعْيٌ الْإِنْسَان لِتَحْقِيق السَّعَادَة يَشْمَل حَقَّهُمْ فِي حُرِيَّتِهِم الاقْتِصَادِيَّة ، وَبِعَدَم قَدْرَهُ أَيْ حُكُومَة عَلَى مَنْعِ أَيْ شَخْصٍ مِنْ السَّعْيِ لِلْحُصُولِ عَلَى لُقْمَة عَيْشُه .

الْحَقَ فِي مُمَارَسَة الدَين : لِكُلَ فَرْدٍ الْحَقّ وَالْحُرِيَّة فِي اِعْتِناقٌ أَيْ دَيَّانَةً يَرْغَب بِهَا وَيَخْتَارُها ، دُون تَعَرُّضِه لِلْإِكْرَاه .

الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة لِلْجَمَاعَات

مِنْ أَهَمَ الْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة لِلْجَمَاعَات مَا يَلِي

حقّ تَحْقِيق الْمَصِير : وَذَلِكَ عِنْدَ قِيَامِ الْجَمَاعَات واللجان الَّتِي تَمَثَّل الشَّعْب بِحِمَايَة الْأَفْرَاد التَّابِعِين لَهَا فِي تَحْقِيقِ مَصِيرَهُم ، وَمَعْرِفَة إِلَى مَاذَا سيؤول .

الْحُقُوق الثَّقَافِيَّة للمجموعات : وَتَتَمَثَّل هَذِهِ الْحُقُوقَ باحترام آرَاء الْمَجْمُوعَة وَتَقْدِيم الدَّعْم لَهَا ، وَتَشْمَل احْتِرَام لُغَة المجموعات ، وَجَعَلَهَا قَابِلَة للاستخدام وتوفيرها فِي الْمُحِيطِ الْعَامّ .

الْحُقُوق الدَينِيَّة لِلْجَمَاعَات : وَذَلِك بحريتهم فِي الانْخِراط وَالِاعْتِقَاد الدَينِيّ الَّذِي يُنَاسِبُهُم ، وَإِلَّا يُتِمُّ تَدْنِيس أَمَاكِنِهِم ورموزهم الْمُقَدَّسَة وَاحْتِرَامهَا .

الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَالْحِكْمَة

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [النحل : 60]

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : 27]

الْمَعْنَى اللُّغَوِيّ لِلْمَثَل الْأَعْلَى

ه القِدْح المُعَلَّى : الحظُّ الأَوفر .

ضَرَبَ لَهُ مَثَلاً :

ذَكَرَهُ لَهُ وَمَثَّلَ لَهُ بِهِ . ضَرَبَ لَهُ مَثَلًا : قَالَه وَذَكَره وبيّنه ضَرَبَ لَهُ مَثَلًا : قَالَه وَذَكَره وبيّنه ،

لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مَثِيلٌ : أَيِ الأَوَّلُ مِنْ نَوْعِهِ هُوَ مَثَلُهُ الأَعْلَى : نَمُوذَجُهُ

وَعَرَفَة بَعْضُ الْمُفَسِرِينَ :

وَالْمِثْل الْأَعْلَى وَصْفِهِ بِمَا لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ ،

يَعْنِي الْمِثْل : الْوَصْف الْأَعْلَى مِنْ كُلَ الْوُجُوهِ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَوْصُوف بِالْكَمَال الْمُطْلَقِ مِنْ كُلَ الْوُجُوهِ ،

مَاذَا يَعْنِي الْمَثَلُ الْأَعْلَى عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ والباحثين

الْمَثَلُ الْأَعْلَى بِالْمَعْنَى الْمُطْلَقِ هُوَ مَا يُرْضِي الْعَقْل وَالْعَاطِفَة إِرْضَاء كَامِلًا . وَقَدْ يُطْلَقُ كَذَلِكَ عَلَى الْعَقْلِ وَالْعَاطِفَة مِنْ حَيْثُ إِنَّ فاعليتهما وحركتهما تعيّنان هَذَا الْكَمال بِالْقُوَّة ، وتعرفان به تَعْرِيفًا مُقَدَّمًا . لِذَلِكَ قَالَ (سياي) : « لَيْس الْمَثَلُ الْأَعْلَى الّا حَرَكَة الْفِكْر الطَّبِيعِيَّة إِلَى الْحَيَاةِ التَّامّة الانسجام » وَقَالَ أَيْضًا : « أَن الْمَثَلُ الْأَعْلَى هُوَ الْفِكْرُ مِنْ حَيْثُ تَجَلَيه فِي قَوَانِينه الْحَيَّة ، وَهُوَ قُوَّةُ لَا صُورَةً » . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْمِثْلَ الْأَعْلَى يَدُلُّ عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةُ الَّتِي لَا تَتَحَقَّقُ تَحَقُّقًا نهائيّا ، فَهُو حدّ غائِي نتجه إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نبلغه ، وَوُجُودُه لَيْسَ شَبِيهًا بِوُجُودِ الْمَوْضُوعِ الْخَارجيّ الثَّابت ، وَإِنَّمَا هُوَ شَبِيهٌ بِوُجُود النُّزُوع اللامتعين . 2 – وَالْمِثْل الْأَعْلَى بِالْمَعْنَى الْخَاصَ أَوْ النسْبِيّ هُو النموذج الَّذِي نتصوره ، وننسج عَلَى مِنْوَالِه فِي بَعْضِ قضايانا الْفِكْرِيَّة وَالْعَمَلِيَّة ، مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ (رينان) : « رُبَّمَا كَانَ الْمِثْلُ الْأَعْلَى لِلْمُجْتَمَع الأمريكِيّ بَعِيدًا كُلَّ الْبُعْدِ عَنْ الْمِثْلِ الْأَعْلَى لِلْمُجْتَمَع الْعِلْمِيّ » ، فَالْمِثْل الْأَعْلَى الْمُشَار إِلَيْهِ فِي هَذَا النّص مِثْل أَعْلَى نِسْبِيّ ، أَوْ مِثْلَ أَعْلَى خَاصّ ، وَجَمِيع الْمِثْل الْعُلْيَا الْمُتَعَلِّقَة بِمَوْضُوع جُزْئِيّ أَو بِفَرْد ، أَوْ جَمَاعَةً مُعَيَّنَة ، فَهِيَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ . 3 – وَيُطْلَق الْمَثَلُ الْأَعْلَى عَلَى مَا تَهْتَمّ بِهِ مِنْ الْأُمُورِ الْأَخْلَاقِيَّة ، وَالْجَمَالِيَّة وَالْعَقْلِيَّة ، مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ غَايَةُ فِي بَابِهَا مُقَابَلَة لِلْمَصَالِح الْمَادّيَة ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنْ الْمِثْلِ الْعُلْيَا يَجْمَع نُفُوس الْأَفْرَاد ، ويوجههم إِلَى هَدَفٍ وَاحِد ، خِلَافًا لِلْمَصَالِح الْمَادّيَة الَّتِي تُفَرِّقُ وَلَا تَوَحّد .

مَفْهُوم الْمَثَلُ الْأَعْلَى

وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَجِبُ أَنْ تكُونَ عِنْدَهُ صُورَةٌ كَامِلَةً لِمَا يَوَدُّ أَنْ تكُونَ عَلَيْه حَيَاته الْمُسْتَقْبلَة ، وَكَثِيرًا مَا يُسَائِل الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ : مَاذَا أَكُون ؟ مَا الَّذِي أطمح أَن أَكونه فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِي ؟ مَا الْإِنْسَانُ الْكَامِلِ الَّذِي

أَسْعَى لِأَنّ أتمثله يَوْمًا مَا ؟ فَالصُّورَة الَّتِي فِي ذِهْنِنَا نَوْد تَحْقِيقِهَا ونستملي مِنْهَا لنجيب عَلَى هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ تُسَمَّى فِي عُرْفِ الْكِتَاب الْحَدِيثَيْن « الْمَثَلُ الْأَعْلَى » .

وَهُو يُمَيز الْإِنْسَانُ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ الْحَيَوَانِ ، فَإِنَّا نَرَى الْحَيَوَانَات تَعِيشُ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ ، لَيْسَتْ فِي رَقِي مُسْتَمِرٌّ ، فمعيشة الْقِطّ قَدِيمًا هِيَ مَعِيشَتِه الْيَوْم ، وَكَان النَحْل يَبْنِي خَلَايَاه عَلَى إِشْكَال سداسية كَمَا يَبْنِيَهَا الْآن ، أَمَّا الْإِنْسَان فدائم الرَّقِيّ ، هُوَ الْيَوْمَ غَيْرِهِ فِي الْقَرْنِ الماضِي بَلْ غَيْرُهُ بِالْأَمْس ، لِأَنَّ إِمَامَهُ « مَثَلًا أَعْلَى » يَجِدْ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَكُلَّمَا قَرُبَ مِنْهُ سَبَقَهُ الْمِثْل .

اخْتِلَاف الْمَثَلُ الْأَعْلَى

تَخْتَلِف الْمِثْل الْعُلْيَا عِنْدَ النَاس اخْتِلَافًا يَكَادُ يَكُونُ بِعَدَد رُءُوسِهِم ، فَهَذَا مِثْلُهُ الْأَعْلَى رَجُلٌ غَنِيٌّ مُتَمَتِّعٌ بِكُلّ ملذات الْحَيَاة ، وَذَلِك مِثْله إِنْسَانٌ كَامِلَ الْعَقْلِ ، قَد تَفَوَّق فِي الْعُلُومِ وتضلع مِنْ الْمَعَارِفِ ، وَآخَر مِثْله وَطَنِي يُدَافِعُ عَنْ حُقُوقِ وَطَنِه وَيَرْفَع مُسْتَوَى أُمَّتِه ، كَذَلِك يَخْتَلِف سَذاجَة وَتُرْكَبا فَقَدْ يَكُونُ مِثْلَ شَخْصٌ صُورَة سَاذَجَةٌ رَسْمِهَا مِمَّا يَسْمَعْهُ مِنْ وَالِدَيْهِ ، وَقَدْ يَكُونُ مِثْلَ آخِرِ صُورَةً مُرَكَّبَةً قَد رَسْمِهَا بَعْدَ أَنْ بَحْثَ فِي الْأَخْلَاقِ بَحْثًا عِلْمِيًّا ، وَعَرَف الْفَضَائِل وَرَتَّبَهَا حَسَبِ مَا صَحَّ عِنْدَهُ مِنْ مِقْيَاسٌ الْخَيْرِ وَالشَرَ .

وَالْإِنْسَان الْوَاحِد يَخْتَلِف مِثْلِهِ مِنْ حِينِ لآخَرَ ، وَالْأَمَة الْوَاحِدَة تَخْتَلِف مِثْلِهَا كُلَّمَا تدرجت فِي معارج الرَّقِيّ ، وَلَيْسَت الصُّعُوبَة أَنْ يَجِدَ الْإِنْسَانُ أَوْ الْأَمَةُ مَثَلًا أَعْلَى ، فَالْمِثْل كَثِيرَةٍ لَا عِدَاد لَهَا ، وَإِنَّمَا الصُّعُوبَة اخْتِيَار أَحْسَنُهَا وأنسبها .

وَلَيْسَ فِي وُسْعِ الأَخْلاقِي وَلَا الْفَيْلَسُوف أَن يَرْسُم مَثَلًا أَعْلَى دَقِيقًا يُوَافِقُ كُلَّ إِنْسَانٍ وَكُلَّ أُمَّةٍ ، فَالْمِثْل الَّذِي يَتَّفِقَ مَعَ غَرَائِز إِنْسَانٌ وَدَرَجَة عَقْلِهِ مِنْ الرَّقِيّ والبيئة التِي تُحِيطُ بِهِ رُبَّمَا لَا يُوَافِقُ الْآخَر ، لِاخْتِلَافِه فِيمَا ذَكَرْنَا ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا رَسْم الأَخْلاقِي أَو الْفَيْلَسُوف صُورَة عَامَّة اقْتَصَرَ فِي رَسْمِهَا عَلَى مَا يُوَافِقُ سَوَادِ النَّاسِ ، كَالْخَيَّاط يَعْمَل ثَوْبًا وَاسِعًا يَصِحُّ أَنْ يَلْبَسَهُ كَثِيرُون مَع تَعْدِيل بَسِيطٌ .

وَكُلّ الَّذِي نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَهُ : أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى لِلشَّخْص صُورَة كَامِلَة تَمَثَّل خَيْرٌ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ الشَّخْصِ إِنْ يكونه فِي كُلَ شَأْنٍ مَنْ شُؤُون حَيَاتِه ، فَفِي عَمَلِه مِثْلِه إِنْ يَكُونَ أَحْسَنَ مَا يَسْتَطِيعُ : مِنْ جَدَ وَأَمَانَة وَإِتْقَان ومهارة ، وَفِي سِياسَتَه لِنَفْسِه مِثْلِه إِنْ يَكُونَ ضَابِطًا لِنَفْسِه ، يَعْمَل بِإِرْشَاد عَقْلُه ، وَفِي مُعَامَلَتِه لِلنَّاسِ مِثْلِه إِنْ يُعَامِلَهُمْ كَمَا يُحِبُّ أَنْ يُعَامَلَ ، وَأَنْ يُحِبَّ الْخَيْرَ لَهُمْ كَمَا يُحِبُّه لِنَفْسِه .

مِمَّ يتكَوَّن الْمَثَلُ الْأَعْلَى النِّسْبِيّ

أَهَمّ عَامِلٌ فِي تكُون الْمِثْل الْمَنْزِل وَالْمَدْرَسَة وَالدِين ، فتربية النَاشِئ الْمَنْزِلِيَّة ، وَمَا يَسْمَعْهُ مِنْ أَبَوَيْهِ ، وَالنِظَام الَّذِي يُسَيَرُ عَلَيْهِ بَيْتَهُ وَمَا يَرَاهُ فِي الْمَدْرَسَةِ ، وَمَا يَسْمَعْهُ مِنْ مدرسيه ، وَمَا يلزمونه بِقِرَاءَتِه مِنْ الْكُتُب ، وَمَا يحببونه إِلَيْهِ مِنْ عُظَمَاءِ الرِجَال ، وَالدَيْنُ الَّذِي يَتَدَيَّنُ بِهِ ، وَمَا يَحْوِيه مِنْ نِظَامٍ ، وَمَا يَرْسِمْه مِن شَكْل الحَياةُ الأُخْرَى ، كُلُّ ذَلِكَ لَهُ أَكْبر الْأَثَر فِي تكْوِين الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَكَذَلِك غَرَائِز الْإِنْسَان الطَّبِيعِيَّة لَهَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي انْتِخَاب الصُّورَةِ الَّتِي تُتَّخَذ مَثَلًا ، فالميول الْمَوْرُوثَة مِن شَجَاعَة وَهْمِه أَو جَبُن وخمول تَعَيَّنَ عَلَى تَحْدِيدِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهَى عَامِلٌ قَوِيٌّ فِي تكْوِينه .

يَكَادُ يَكُونُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِثْل أَعْلَى وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ أَيْنَ أَتَاه ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمِثْلَ يَتَكَوَّن مَعَ الْإِنْسَانِ فِي نَشْأَتِه وَيَنْمُو بِنُمُوِّه وَهُو مَبْدَأ أَوْ قِيمَةُ يَسْعَى الْإِنْسَانِ إِلَى تَحْقِيقِهَا بِصِفَتِهَا هدفًا مِن أَهْدَافِه ، ويمنحها الْأَوْلَوِيَّة عَلَى الاهتمامات أَو الشُّؤُون الْأُخْرَى الَّتِي تَتَمَيَّزُ بِقِيمَة مَعْنَوِيَّةٌ أَقَلّ . تَشْمَل الْمُصْطَلَحات الْأُخْرَى الْمُتَعَلِّقَة بِالْإِيمَان الْعَامّ بِالْمِثْل الْعُلْيَا أمورًا مِثْل المثالية الأَخْلاقِيَّة ومثالية الْآدَاب والمثالية الْمَبْدَئِيَّة . يَصِر الْمِثَالِيّ ، سواءً أَكَان مثاليًا أخلاقيًا أَم مثاليّ الْآدَاب الْعَامَّة أَم مثاليًا مبدئيًا ، عَلَى إِعْتِنَاقُ مُثُلٍ عليًّا حَتَّى لَوْ كَانَتْ تكلفه عَوَاقِب الِالْتِزَام بِهَذِه الْمِثْل كبيرةً .

هُنَاكَ عِلَاقَة جوهرية بَيْن الْمُصْطَلَحَيْن « مِثَالِيَّة » و « أَخْلاقِيَّة » فِي سِيَاقِ عَلِم الأخلاقيات ، وَهُوَ مَا يَذْكُرُهُ الْفَيْلَسُوف راشورث كيدر الَّذِي أَوْضَحَ أَنَّ « تَشْمَل التَّعَارِيف الْمِعْيَارِيَّة للأخلاقيات عَادَة عِبَارَات مِثْل عَلِم الشَّخْصِيَّة الْإِنْسَانِيَّة المثالية » . بِصَرْف النَّظَرِ عَنْ تَأَصّل الْمِثْل الْعُلْيَا ، أَي سواءً أَكَانَت أخلاقيات دِينِيَّة أَم أخلاقيات عِلْمِيَّة ، يُفِيد اِسْتِقْطاب الْمِثْل الْعُلْيَا النِسْبِيّ لَدَى الْإِنْسَانِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى مَدَى الْإِخْلَاص أَو التَّفَانِي الأَخْلاقِي لَدَى هَذَا الكِيان .

هُنَاكَ الْكَثِيرِ مِنْ الْمَدَارِسِ الْفَلْسَفِيَّة الَّتِي تشدّد عَلَى وِجْهَاتِ النَظَرِ المثالية ، مِثْل الْأَخْلَاق الْمَسِيحِيَّة وَالْأَخْلَاق الْيَهُودِيَّة وأخلاقيات الْمَدْرَسَة الأفلاطونية الْمُحْدَثَة . تَشْمَل المثالية فِي العَلاَقَات الدَّوْلِيَّة عمومًا الدّفَاع عَنْ الْمُؤَسَّسَات الَّتِي تنفّذ الإجْرَاءات السِيَاسِيَّة الدَّوْلِيَّة ، مِثْل تَطْبِيقَ القانُونِ الدُّوَلِي سعيًا لتجنّب الْحُرُوب .

تُوجَد عِدَّة قَضَايَا فِي مَجَالِ تَحْلِيل الأخلاقيات المثالية . يَعْتَقِد البَاحِث تِيرِي إيغلتون أَن مَعْقُولِيَّة التَّطْبِيق الْعَمَلِيّ لِبَعْض الْمِثْل الْعُلْيَا قَدْ يَتَنَاقَض فِي النِهَايَةِ مَعَ صحّة تِلْك الْمِثْل ومشروعيّتها مِنَ النَّاحِيَةِ

الْمَنْطِقِيَّة . اِنْتَقَد الْفَيْلَسُوف الأمريكِيّ رِيتْشارْد رورتي فَكَرِه الْمِثْل الثَّابِتَة غَيْر المتغيّرة ، والموجودة بِصُورَة شَبَّه مُنْفَصِلَةٌ عَنْ الطَّبِيعَة الْبَشَرِيَّة أساسًا . فِي السَيَاقِ السَياسِيّ أيضًا ، ادَّعَى البَاحِث جيرالد غاوس أَنَّ بَعْضَ التأثيرات الْمُعَيَّنَة للمثالية تَدْفَع الْأَفْرَاد إلَى السَّعْيِ وَرَاء المثالية السَيَاسِيَّة الْمُسْتَحِيلَة ، وتجاهل المكونات المناصرة لِلسَيَاسَة الْعَمَلِيَّة ، فتعيق تِلْك الْمِثْل التَّقَدُّم الْإِضَافِيّ والهادف

وَادَّعَى المفكر الإغريقي أَفْلَاطُون أَنَّ الْمِثْلَ الْعُلْيَا تُوجَد بِصُورَة مُسْتَقِلَّةٌ عَن الْبَشَرِيَّة ، وَوَفَّق ذَلِك ، مُهِمَّةٌ الْمَنْطِق هِي اِكْتِشاف تِلْك الْمِثْل بدلًا مِن إيجَادُهَا أَو خَلَقَهَا .

اُسْتُشْهِد البَاحِث الأمريكِيّ نِيكُولاس رشر بِالْفَلْسَفَة الْقَدِيمَة ليوضّح أَنَّ الطَّبِيعَة الماورائية لِلْمَثَل الْعُلْيَا مكانةً مُمَيَزَة بِصِفَتِهَا « قصصًا متخيّلة مُفِيدَةٌ » .

نَتِيجَة

لِمَاذَا اللَّهُ هُوَ الْمِثْلُ الْأَعْلَى ؟

أَوَّلًا : لَقَد خَصَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْآيَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْن نَفْسِه بالمثلى الْأَعْلَى :

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

فَلَيْسَ هُنَاكَ أَيْ شَيْءٍ مِثْلَهُ فِي هَذَا لِأَنَّهُ هُوَ يَخْتَصُّ بِهِ وَخَاصٌّ لَه بِالْمُطْلَق .

وَلَقَدْ كَانَ قَوْلُ (سياي) : « لَيس الْمَثَلُ الْأَعْلَى الّا حَرَكَةِ الْفِكْر الطَّبِيعِيَّة إلَى الْحَيَاةِ التَّامَّة الانسجام »

وَقَالَ أَيْضًا : « أَنَّ الْمِثْلَ الْأَعْلَى هُوَ الْفِكْرُ مِنْ حَيْثُ تَجلَيه فِي قَوَانِينِه الْحَيَّة ، وَهُوَ قُوَةُ لَا صُورَةً » .

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْمِثْلَ الْأَعْلَى يَدُلُّ عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةُ الَّتِي لَا تَتَحَقَّقُ تَحقُّقًا نِهائِيًا ، فَهُو حدّ غائِي تتجه إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نبلغه ، وَوُجُودُه لَيْسَ شَبِيهًا بِوُجُودِ الْمَوْضُوعِ الْخَارِجِيّ الثَّابِت ، وَإِنَّمَا هُوَ شَبِيهٌ بِوُجُود النُّزُوع اللامتعين .

أَقْرب فَهْم وَتَعْرِيف لِمَعْنَى الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ قَرِيبٌ جِدًّا لِمَا فَهِمْنَاهُ فِي هَذَا النّصّ الْقُرْآنِيّ الْكَرِيم .

ثَانِيًا : وَلِأَنَّ الْمُطْلَقَ يَأْتِي عَلَى إِطْلَاقِهِ وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمِثْلُ الْأَعْلَى فِي كُلِّ الْأُمُورِ الْأَخْلَاقِيَّة ، وَالْجَمَالِيَّة وَالْعَقْلِيَّة والخلقية والصنعية وَلِكُلِّ شَيْءٍ وَأَمر وَلَا يُمْكِنُ حَصْرُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَعَدّهَا .

ثَالِثًا : وَيَعْنِي الْكَمالِ الْمُطْلَقِ أَيْضًا ، الْمُتَضَمّن لِلْأُمُور الْوُجُودِيَّة ، وَالْمَعَانِي الثُّبُوتِيَّة الَّتِي كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَر فِي الْمَوْصُوفِ وَأَكْمل كَانَ أَعْلَى مِنْ غَيْرِهِ .

وَلَمَّا كَانَ – سُبْحَانَه – الرَّبّ وَالْأَعْلَى ، وَوَجْهُه الْأَعْلَى ، وَكَلَامُه الْأَعْلَى ، وَسَمعه الْأَعْلَى ، وَسَائِر صِفَاته عَلِيًّا ، كَانَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ كُلِ مَا سِوَاهُ ، بَلْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي الْمَثَلِ الْأَعْلَى اثْنَان ؛ لِأَنَّهُمَا إِنْ تَكَافَأَ لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا أَعْلَى مِنْ الْآخَرِ ، وَإِنْ لَمْ يتكافآ فَالْمَوْصُوف بِالْمِثْل الْأَعْلَى أَحَدُهُمَا وحدَه ؛ فَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكونَ لِمَنْ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى مِثْلُ أَيْ نَظِيرُ .

رَابِعًا : الْإِيمَان بِالْمِثْل الْأَعْلَى يَمْنَعُ أَنْ يَقُومَ الْقَلْب وَالْعَقْل بِتَشْبِيه صِفَات الْخَالِق بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ : لِأَنَّه – كَما قُلْنَا – آنِفاً يَسْتَحِيلُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي الْمَثَلِ الْأَعْلَى اثْنَان ؛ لِأَنَّهُمَا إِنْ تَكَافَأَ لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا أَعْلَى مِنْ الْآخَرِ ، وَإِنْ لَمْ يتكافآ فَالْمَوْصُوف بِالْمِثْل الْأَعْلَى أَحدِهِمَا وَحْدَهُ ، فَيَسْتَحِيل أَنْ يَكُونَ لِمَنْ لَهُ الْمَثَلُ

الْأَعْلَى نَظِير أَو شَبِيهٌ ، وَهَذَا بُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى اسْتِحَالَةِ التَّمْثِيل وَالتَّشْبِيه مِنْ إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ ، فتأمَّله فَإِنَّهُ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ وَالْقُوَّة .

خَامِسًا : لَقَد خَتَم التَّصَيْن الْكَرِيمَيْن بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (ومعنى الْعَزِيزِ فِي اللُّغَةِ : الْقَوِيّ الْمَنِيع مِن الْعِزَّة والمنعة الَّتِي هِيَ ضِدُّ الذُّلَ وَالْهَوَان ، وَمَعْنَى الْحَكِيم : الْعَالِم الْمُدَبَّر لِلْأُمُور الْمُتْقِن لها) .

فَلَه الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَلَهُ الْقُوَّة وَالعِزَّة والمنعة وَهُوَ الْعَالَمُ الْمُدَبَّر لِلْأُمُور الْمُتْقِن لَهَا .

حدوث الساعة بغتة

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف : 107]

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج : 55]

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل : 77]

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف : 66]

ان هذه النصوص القرآنية توضح لنا بصورة جلية بأن الساعة تأتي بغتة لكن ما معنى بغتة

بَغْتَةً ﴿**55** الزمر﴾ فجأة

بغتة ﴿**95** الأعراف﴾ بغتة: فجأة.

بغت البغت: مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب.

تعريف و معنى بغتة في معجم المعاني الجامع

بَغْتَة: (اسم)

بَغْتَة : مصدر بَغَتَ

بَغتة: (اسم)

الجمع : بَغَتات و بَغْتات

مصدر بَغَتَ

جاءهُ بَغْتَةً : فَجْأَةً، على غِرَّةٍ على بَغْتَةٍ

فمعنى بغتة في اللغة والقرآن الكريم فجأة بدون مقدمات والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما هي اذن الأشراط التي ذكرت في الأية الكريمة :

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد : 18] والله يقول فقد جاء أشراطها فما معنى أشراطها وماهي .

ان أكثر ما أطلعت عليه من تفاسير يتفق على أن أشراط الساعة قد تحققت او جاءت

التفسير الميسر : ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا الساعة التي وُعدوا بها أن تجيئهم فجأةً، فقد ظهرت علاماتها ولم ينتفعوا بذلك، فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة؟

المختصر في التفسير : شرح المعنى باختصار

فهل ينتظر الكفار إلا أن تأتيهم الساعة فجأة من غير سابق علم لهم بها ؟ ! فقد جاءت علاماتها، ومنها بعثته صلى الله عليه وسلم، وانشقاق القمر، فكيف لهم أن يتذكروا إذا جاءتهم الساعة؟

تفسير الجلالين : معنى و تأويل الآية 18

«فهل ينظرون» ما ينتظرون، أي كفار مكة «إلا الساعة أن تأتيهم» بدل اشتمال من الساعة، أي ليس الأمر إلا أن تأتيهم «بغتة» فجأة «فقد جاء أشرطها» علاماتها: منها النبي صلى الله عليه وسلم وانشقاق القمر والدخان «فأنَّى لهم إذا جاءتهم» الساعة «ذكراهم» تذكرهم، أي لا ينفعهم.

تفسير السعدي : فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد

أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾- أي: فجأة، وهم لا يشعرون ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾- أي: علاماتها الدالة على قربها . ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾- أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا ؟ قد فات ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير .ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

حالة إشكالية

اننا وجدنا أنفسنا في حالة إشكالية مفادها اذا كانت الساعة ستقع فجأة وكلمح البصر فهل ذلك سيكون بعد مجئ أشراطها أي العلامات الدالة على وقوعها والنص القرأني يقول (فقدجاء أشراطها) ؟

ان هذا الاشكال سنحله في الرجوع الى معجم اللغة العربية للتفريق بين معنى جاء وأتى اذ ان هناك نص قرآني يفيد بأن أمر الله قد أتى ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ النحل 1

فما الفارق بين فعل جاء في جاءت أشراطها وفعل أتى في أتى أمر الله فلا تستعجلوه .

أتى لمن يأتي بدون سابق علم بقدومه أو بدون دعوة أو المجهول مثل (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) لذلك قال الله سبحانه وتعالى أتى أمر الله أي الحدث الذي لم يسبقه علم بقدومه أو بدون دعوة فهو سيكون فجأة وبغتة .

اما فعل جاء تستخدم عند قدوم الشخص أو الشيء الذي أجمع العقلاء على فائدته أو المرغوب به أو المفرح أو يحتمل مسرة أو حزنا عند قدومه مثال (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا)

الأن يمكننا القول في حل هذه الإشكالية ان معنى (قد جاء أشراطها) أي تحققت وأتضحت

او هي ستتحقق وتتضح لأن هذه الأشراط هي واقعة لا مفر من ذلك .

واذا أن نربط الحديثين بعضهما ببعض فنقول ان أمر الله أتى فلا تستعجلوه لأن المولى القدير قد رتب له مقدمات لتحققه بالفعل هذه المقدمات هي ما سمي بالأشراط أو أشراطها أي الساعة .

ذكرنا ان أشراط الساعة هي العلامات الدالة على إقتراب قيام الساعة، و هي تسبق نهاية العالم و قيام القيامة، و بظهور هذه العلامات و الدلالات يتبين للناس بأن قيام الساعة بات قريباً جداً، و هذه العلامات كثيرة ذكرت في القرآن الكريم و الأحاديث المختلفة.

القسم الأول اشراط الساعة المذكورة في القرآن الكريم

بعثة خاتم الأنبياء محمد المصطفى (صلى الله عليه و آله)

فهي الرسالة النبوية الأخيرة وهو خاتم الرسل والنبيين وأنزل عليه القرأن الكريم وهو أخر كتاب منزل من الله وبه أتم الله وأكمل الدين الذي أرتضاه للناس وهذا مؤشر على اقتراب نهاية الزمان .

اندكاك السدّ و خروج يأجوج و مأجوج، قال الله عَزَّ و جَلَّ: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾3.

إتيان السماء بدخان مبين، قال عَزَّ مِنْ قائل: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾4.

نزول السيد المسيح عليه السلام، قال جَلَّ جَلاله: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾5.

خروج دابّة من الأرض، قال سبحانه و تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾6.

القسم الثاني من اشراط الساعة

أما القسم الثاني من أشراط الساعة فهي تلك الأحداث التي تقع قُبيل قيام الساعة و تُحدث تحولاً عظيماً تكون فيه نهاية العالم.ولقد تحدّث القرآن الكريم 7بإسهاب حول هذه العلائم و الأشراط، و هي من قبيل:

تلاشي النظام الكوني.

تكوير الشمس و القمر.

انكدار النجوم و تناثرها .

تفجير البحار و تسجيرها .

تسيير الجبال.

إلى غيرها من الحوادث العظيمة التي بها يتبدل النظام الكوني، يقول الله عَزَّ و جَلَّ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾8.

القسم الثالث من اشراط الساعة

هناك قسماً آخر لأشرط الساعة و هو تغيُّر سلوك الناس إلى الأسوأ عدا الصالحين و المؤمنين الصادقين منهم.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ حَجَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه و آله) حِجَّةَ الْوَدَاعِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: "أَ لَا أُخْبِرُكُمْ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَ كَانَ أَدْنَى النَّاسِ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ سَلْمَانُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

فَقَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ!

فَقَالَ (صلى الله عليه و آله): "إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ الْقِيَامَةِ إِضَاعَةَ الصَّلَوَاتِ وَ اتِّبَاعَ الشَّهَوَاتِ، وَ الْمَيْلَ إِلَى الْأَهْوَاءِ وَ تَعْظِيمَ أَصْحَابِ الْمَالِ، وَ بَيْعَ الدِّينِ بِالدُّنْيَا، فَعِنْدَهَا يَذُوبُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ فِي جَوْفِهِ- كَمَا يُذَابُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ مِمَّا يَرَى مِنَ الْمُنْكَرِ- فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ".

قَالَ سَلْمَانُ: وَ إِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: "إِي وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ! إِنَّ عِنْدَهَا يَلِيهِمْ أُمَرَاءُ جَوَرَةٌ وَ وُزَرَاءُ فَسَقَةٌ، وَ عُرَفَاءُ ظَلَمَةٌ، وَ أُمَنَاءُ خَوَنَةٌ".

فَقَالَ سَلْمَانُ: وَ إِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟!

قَالَ (صلى الله عليه و آله): إِي وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ، إِنَّ عِنْدَهَا يَكُونُ الْمُنْكَرُ مَعْرُوفاً وَ الْمَعْرُوفُ مُنْكَراً- وَ يُؤْتَمَنُ الْخَائِنُ وَ يُخَوَّنُ الْأَمِينُ- وَ يُصَدَّقُ الْكَاذِبُ وَ يُكَذَّبُ الصَّادِقُ".

قَالَ سَلْمَانُ: وَ إِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ (صلى الله عليه و آله): "إِي وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ"

علامات الساعة الصغرى

أنّ علامات الساعة الصغرى كثيرة جداً يضيق المجال لحصرها، ولم يرد دليل ثابت في ما يتعلّق بترتيبها، إذ إنّ كلّ ما ورد في كتب أهل العلم إنّما هو اجتهاد في ترتيبها حسب ما وجدوه أكثر وضوحاً لديهم، أو بحسب واقع الحال وما اقتضته الحوادث بتقديم إحدى العلامات على غيرها . إعلان لا بُدّ من معرفة معنى علامات الساعة قبل الخوض في علامات الساعة الصغرى وترتيبها؛ فهي تُعرَّف في اللغة بأنّها: سِمَةٌ أو شعار أو أمارة تُعرَف بها الأشياء، وجمعها علامات،

أمّا في الاصطلاح فهي: الأمارات التي تسبق قيام الساعة، وتكون من النوع الاعتيادي للناس، كشرب الخمر والجهل ونحو ذلك، ومنها ما يكون قبل علامات الساعة الكبرى، ومنها ما يكون مصاحباً لها، ومنها ما يكون بعد ظهور بعض تلك العلامات. وتُعدّ علامات الساعة الكبرى الأقرب إلى قيام الساعة، بخِلاف علامات الساعة الصغرى فهي أبعد من العلامات الكبرى، ثمّ إنّ علامات الساعة الكبرى لها أثر كوني كبير يشعر به الناس جميعاً بلا استثناء، بخلاف علامات الساعة الصغرى التي قد تحصل في مكان دون آخر، ولأناس دون أناس.

ويمكن تقسيم علامات الساعة الصُّغرى إلى أقسام؛ قسمٌ للعلامات التي لم تظهر بعد، وقسمٌ وقع وحصل، وقد يكون مُتكرّر الوقوع، بحيث إنّه قد يتكرّر في المستقبل، وقسم تدريجيّ الظهور؛ بمعنى أنّه وقع وما زال مستمرّاً بالظهور.

العلامات الصغرى التي ظهرت وانقضت تُعدّ العلامات الصغرى التي ظهرت وانقضت كثيرة، ومنها ما يأتي: بعثة النبي محمد وموته فلما بُعث النبي محمد –صلى الله عليه وسلم–، دلّ ذلك على اقتراب

الساعة، كما قال عليه الصلاة والسلام: (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى) كما دلّ على اقتراب الساعة موته –عليه السلام– فقد قال: (اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي) . معجزة انشقاق القمر في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم– انشقّ القمر بمعجزة لم يشهد لها العرب مثيلاً، وقد ذُكر ذلك في القرآن في قوله –تعالى–: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ .

ومن هذه العلامات أيضا نار عظيمة تخرج من أرض الحجاز يقول –عليه الصلاة والسلام–: (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى تَخْرُجَ نارٌ مِن أرْضِ الحِجازِ تُضِيءُ أعْناقَ الإبِلِ ببُصْرَى) ، وفي عام ستّمئة وأربعة وخمسين للهجرة، ظهرت هذه النار العظيمة، وقد أفاض أهل العلم في الكتابة عنها آنذاك، وهذه غير النار التي ستظهر آخر الزمان لتطرد الناس إلى محشرهم.

ولادة الأَمَة ربّتها قد جاء جبريل عليه السلام إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– بهيئة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر فجلس عند النبي –صلى الله عليه وسلم– وأخذ يسأله إلى أن قال: (فأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قالَ: ما المَسْؤُولُ عَنْها بأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ قالَ: فأخْبِرْنِي عن أمارَتِها، قالَ: أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها)، وقد اختلف أهل العلم في معنى ذلك على عدّة أقوال لخّصها ابن التين في ما يأتي: أن تتّسع رقعة الدولة الإسلامية، وتُسبى نساء البلدان التي فتحها المسلمون، فتكثر الجواري، فإذا ولدت الجارية ولداً لمالكها، كان بمثابة ربّها؛ لأنّه ولد سيّدها . أن يبيع ملّاك الجواري أمّهات أولادهم، فيكثر تداولهنّ بين المُلّاك حتى يشتريها ولدها وهو لا يشعر بذلك. أن تلد الجارية حرّاً من غير سيّدها، كأن تزني أو يتمّ وطؤها بشبهة أو بنكاح، ثمّ تُباع بيعاً صحيحاً، إلى أن يشتريها ولدها .

أن يكثر عقوق الأولاد لأمّهاتهم، فيمتهنَ الولد أمّه ويَسبّها ويضربها، فأُطلِق عليه اسم ربُّها مجازاً .

العلامات الصغرى التي ظهرت ولم تنقضِ كثرة المال والاستغناء عن الصدقة إذ يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ، فَيَفِيضَ حتَّى يُهِمَّ رَبَّ المَالِ مَن يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وحتَّى يَعْرِضَهُ، فَيَقُولَ الذي يَعْرِضُهُ عليه: لا أَرَبَ لِي فبيّن الحديث أن الله –عز وجل– سيعطي الأمة الكثير من الكنوز حتى لا تجد رجلاً محتاجاً يقبلها، وقد حدث ذلك في زمن الصحابة –رضوان الله عز وجل– عليهم؛ إذ كَثُرت الفتوحات الإسلامية وفاضت الكنوز عليهم من اقتسام أموال الفرس والروم، وحدث ذلك أيضاً في زمن عمر بن عبدالعزيز –رحمه الله– حتى أصبح الرجل يعرض الصدقة فلا يجد من يقبلها منه، وهذا –والله أعلم– سيتكرّر وقوعه في زمن المهدي وعيسى –عليه السلام– .

ظهور الفتن المقصود بالفتن هنا ما يقع في الناس من أمور يكرهونها من كفرٍ وقتلٍ وعصيانٍ وما شابه ذلك من الأمور، وقد حذّر النبي –صلى الله عليه وسلم– أمته من الفتن العظيمة التي ستظهر فيهم، ووجّههم إلى الالتزام بجماعة المسلمين والإيمان بالله، قال –صلى الله عليه وسلم–: (بَادِرُوا بالأعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) .

انتشار الأمن ذلك بأن يسود الأمنُ البلادَ الإسلامية، فينتقل المسلم ويسافر من مكانٍ إلى آخر لا يخشى على نفسه ولا أهله ولا ماله ولا عقله ولا دينه شيئاً، فقد قال عدي ابن حاتم الطائي: (بيْنَا أنَا عِنْدَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذْ أتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إلَيْهِ الفَاقَةَ، ثُمَّ أتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: يا

عَدِيُّ، هلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟ قُلتُ: لَمْ أرَهَا، وقدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ فإنْ طَالَتْ بكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ، حتَّى تَطُوفَ بالكَعْبَةِ لا تَخَافُ أحَدًا إلَّا اللَّهَ) .

وقد حدث ذلك في زمن الصحابة –رضوان الله عليهم–، وذلك حين فتحوا البلدان وانتشر الإسلام فيها، وسيعود ذلك حين يظهر المهدي وعيسى –عليه السلام–.

ضياع الأمانة الأمانة هي التكليف، بأن يتّبع الإنسان ما أمر الله به، ويجتنب ما نهى عنه، وهي ضدّ الخيانة، وقد بيّن النبي –صلى الله عليه وسلم– أن الأمانة ستُنتزَع من القلوب، فيصير الرجل من أهل الخيانة بعد أن كان من الصالحين؛ وذلك لزوال خشية الله من قلبه، وفي تلك الفترة يضيّع الناس دينهم فيُسنَد الأمر إلى غير أهله، يقول –عليه الصلاة والسلام–: (فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قالَ: كيفَ إضَاعَتُهَا؟ قالَ: إذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إلى غيرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)

انتشار الزنا ذلك بأن يشيع الزنا بين الناس، بل إنّهم يستحلّونه، وذلك زمان تكون فيه الذمم قد فسدت حتى إنّ الرجل قد يفعل ذلك جهاراً نهاراً بين الخلائق كما أخبر –عليه الصلاة والسلام– في قوله: (مِن أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، –ذكر منها– وَيَظْهَرَ الزِّنَا) .

انتشار الربا يشيع الربا بين الناس، فلا يبالي أحدهم بالمال الذي يأخذه حلال أم حرام، ويُرى ذلك جلياً في هذا الزمان، يقول النبيّ –صلى الله عليه وسلم–: (لَيَأْتِيَنَّ علَى النَّاسِ زَمانٌ، لا يُبالِي المَرْءُ بما أَخَذَ المالَ، أمِنْ حَلالٍ أمْ مِن حَرامٍ) .

كثرة شرب الخمر واستحلالها ذلك بأن تنتشر هذه الخمور بين الناس، ويظهر من يعتقد حلَّها ، وقد انتشر ذلك في الزمن الحاضر بشكل كبير، حتى أصبحت تُشرب وتُباع جهاراً، وسُمّيت بالمشروبات الروحية، يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (يشرَبُ ناسٌ مِن أمَّتي الخمرَ يُسمُّونَها بغيرِ اسمِها) .

التطاول في البنيان هذه الأمارة بدأت بالظهور منذ عصر النبوّة تقريباً، حين بدأت رقعة الدولة الإسلامية بالاتّساع والظهور، وأخذت الأموال تُغدَق على المسلمين، وبعد مدّة من الزمان وكثرة المال، أصبح الناس يتنافسون في الدنيا حتى وصل ذلك إلى أهل البادية، وأشباههم من أهل الفقر، فأخذ الناس بالمباهاة في بناء البيوت والمباني، حتى أنّ الشخص ليريد أن يبني ما هو أكبر وأعلى ممّا بنى غيره، إلى أن وصل بهم الحال في عصرنا إلى بناء ما يُسمّى بناطحات السحاب، وقد ذكر ذلك النبيّ –صلى الله عليه وسلم– بقوله: (وإذا تَطاوَلَ رِعاءُ البُهْمِ في البُنْيانِ، فَذاكَ مِن أشْراطِها) .

كثرة القتل يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَكْثُرَ الهَرْجُ قالوا: وما الهَرْجُ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: القَتْلُ القَتْلُ)[٣٢]، وقد ظهر هذا منذ مقتل عثمان بن عفان –رضي الله عنه–، وما زال مُستمرّاً إلى يومنا هذا؛ فقد فسدت النفوس، وخفّت العقول، وانتشرت الأسلحة الفتّاكة، وكثرت الحروب، لا يدري القاتل فيمَ قَتل، ولا المقتول فيمَ قُتِل.

رفع العلم وانتشار الجهل إذ يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إنَّ بيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا، يَنْزِلُ فيها الجَهْلُ، ويُرْفَعُ فيها العِلْمُ)،[٣٣] والمقصود هنا ليس غياب العلم، فإنّ العلم موجود، ولكن قلَّة العلماء الصالحين الذين يُعلّمون الناس أمور شرعهم، فالجامعات حاليّاً أبوابها مفتوحة، ولكن قلَّما تجد عالماً مع تُوفّر كلّ السُّبل لذلك.

السلام للمعرفة فقط ذلك بأن لا يسلّم المرء إلّا على من يعرفه، فيترك الناس السلام بينهم بحجّة أنّهم لا يعرفون بعضهم، يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إنَّ من أشراطِ الساعةِ أن يُسلَمَ الرجلُ على الرجلِ لا يُسلَمُ عليهِ إلا للمعرفةِ) وهذا الفعل مخالف لسنة النبي –صلى الله عليه وسلم– الذي أمر بإفشاء السلام بين الناس، سواءً المعروفين أو غير المعروفين؛ لنشر الألفة، والمحبّة بينهم.

يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إنَّ بين يدي الساعةِ تسليمَ الخاصَّةِ وفُشُوَ التجارةِ ، حتى تعينَ المرأةُ زوجَها على التجارةِ

وقطعَ الأرحامِ وشهادةَ الزورِ وكتمانَ شهادةِ الحقَ وظهورَ القلمِ)، وذلك بأن يشهد الرجل الشهادة فيكذب فيها، وهي من أكبر الكبائر عند الله –عز وجل–.

زخرفة المساجد والتباهي بذلك يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد)، إنّ المساجد أماكن للعبادة وليست أماكن للزخرفة والتباهي والمبالغة في تزيينها .

رفض السنّة يقول عليه الصلاة والسلام: (يوشِكُ أنْ يقعُدَ الرجلُ مُتَّكِئًا على أَرِيكَتِهِ ، يُحَدَثُ بحديثٍ مِنْ حديثي ، فيقولُ : بينَنَا وبينَكُمْ كتابُ اللهِ ، فما وجدْنا فيه مِنْ حلالٍ اسْتَحْلَلْناهُ، وما وجدَنا فيه مِنْ حرامٍ حرَّمْناهُ، أَلَا وإنَّ ما حرَّمَ رسولُ اللهِ مثلَ ما حرَّمَ اللهُ) ، حيث ظهر في زماننا أناس يدّعون الأخذ من القرآن ويحثّون على ترك السنّة، يطلقون على أنفسهم مسمّى القرآنيّين؛ فالسنّة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، تأتي مُفسّرة وموضّحةً ومُبيّنةً ومُقيّدةً ومُخصّصةً ومضيفةً لما ورد في القرآن الكريم، فلا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال.

كثرة الظالمين الذين يضربون الناس بالسياط، يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إنْ طالَتْ بكَ مُدَّةٌ، أوْشَكْتَ أنْ تَرَى قَوْمًا يَغْدُونَ في سَخَطِ اللهِ، ويَرُوحُونَ في لَعْنَتِهِ، في أيْدِيهِمْ مِثْلُ أذْنابِ البَقَرِ.) .

ظهور الكاسات العاريات كما ورد في الحديث الشريف: (صِنْفانِ مِن أهْلِ النَّارِ لَمْ أرَهُما، قَوْمٌ معهُمْ سِياطٌ كَأَذْنابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بها النَّاسَ، ونِساءٌ كاسِياتٌ عارِياتٌ مُمِيلاتٌ مائِلاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، ولا يَجِدْنَ رِيحَها، وإنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِن مَسِيرَةِ كَذا وكَذا.)

فهنّ نساء مائلات عن طاعة الله –عز وجل–، مُميلات لمن رافقهنّ عن صواب الطريق، يلبسن من اللباس ما لا يستر عوراتهنّ بل ويشفّ عنها، ويضعن فوق رؤوسهن ما يجعل رؤوسهن كأسنمة الإبل، وهذا يحصل في المجتمع في الوقت الحاضر.

كثرة الكذب يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إنَّ بيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ فَاحْذَرُوهُمْ)، فقد كثر الكذب في أزمان خلت، ولكن تجلّى هذا الأمر وزاد في الزمن الحالي، فقد يكذب الوالد على ولده، أو الزوج على زوجه، أو البائع على المشتري، وأمثلة ذلك كثيرة من صور الكذب.

انتشار التجارة يقول –عليه الصلاة والسلام–: (بين يدَي الساعةِ تسليمُ الخاصَّةِ وفشوُ التجارةِ حتى تعينَ المرأةُ زوجَها على التجارةِ) ، وذلك ظاهر جليّ في زماننا، فلا تكاد تجد مكاناً إلّا وفيه من التجّار ومَحالَهم الكثير.

قطع الأرحام يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إنَّ بين يدي الساعةِ تسليمَ الخاصَّةِ –وذكر منها– وقطعَ الأرحامِ)، وقد ساد هذا الأمر في زماننا.

اختلال المقاييس يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (تأتي على النَاسِ سَنواتٌ خدَّاعاتٌ يُصدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكَذَّبُ فيها الصَّادقُ، ويؤتَمنُ فيها الخائنُ ويخوَّنُ فيها الأمينُ، وينطِقُ الرُّوَيْبضة قيلَ: يا رسولَ اللَّهِ وما الرُّوَيْبضةُ ؟ قالَ: الرَّجلُ التَّافِهُ يتَكَلَّمُ في أمرِ العامَّةِ)، وهذا الأمر واضح حالياً .

العلامات الصغرى التي لم تظهر بعد عودة جزيرة العرب جنات وأنهاراً قِيل بسبب الزراعة وحفر الآبار، ودليل ذلك قول النبي –عليه الصلاة والسلام–: (وحتَّى تَعُودَ أرْضُ العَرَبِ مُرُوجًا وأَنْهارًا) .

انحسار الفرات عن جبلٍ من ذهب حيث يقتتل الناس عليه، فيُقتل من كل مئةٍ تسعةٌ وتسعون، وقد يكون انحسار النهر بسبب تحوّل الماء عن مجراه لسببٍ من الأسباب، أو لذهاب مائه فيكشف عن ذلك الجبل، قال –صلى الله عليه وسلم–: (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَحْسِرَ الفُراتُ عن جَبَلٍ مِن ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَاسُ عليه، فيُقْتَلُ مِن كُلِّ مِئَةٍ، تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ، ويقولُ كُلُّ رَجُلٍ منهمْ: لَعَلِي أكُونُ أنا الذي أنْجُو) .

ريح تقبض المؤمنين في الحديث الذي تكلّم عن الدجال، يقول –عليه الصلاة والسلام–: (إذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ، فَعليهم تَقُومُ السَّاعَةُ)، دل الحديث على أنّ الريح تكون بعد يأجوج ومأجوج وخروج الدجال ونزول عيسى، بل وبعد خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها، حيث إنّ الدابة تخرج لتُفرّق بين المؤمنين والكافرين، وطلوع الشمس مصاحب لذلك، فلو كانت الدابة قبل الريح، لما بقي مؤمن على الأرض.

يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ، وتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ)، وهذا يكون مع نزول الخلافة إلى الأرض المُقدَّسة، إذ تكثر الزلازل. ما يتبع علامات الساعة الصغرى ظهور المهدي هو رجلٌ رشيد من آل بيت النبي –صلى الله عليه وسلم–، يوافق اسمه اسم النبي –صلى الله عليه

وسلم-، واسم أبيه اسم والد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو رجل يخرج في آخر الزمان، حين يكون الظلم قد ملأ الأرجاء، فيخرج ناشراً للعدل، مقيماً للدين، طارداً للأهواء، يقول -عليه الصلاة والسلام-: (لو لم يَبقَ من الدنيا إلا يومٌ، لطوَّل اللهُ ذلك اليومَ، حتى يخرج فيه رجلٌ منّي، أو من أهلِ بيتي، يواطئُ اسمُه اسمي، واسمُ أبيه اسمَ أبي، يملأُ الأرضَ قسطًا وعدلًا، كما مُلِئَتْ جَورًا وظُلمًا) .

ظهور علامات الساعة الكبرى هي علامات عِظام إذا ظهرت تكون الساعة على إثرها، وهي علامات مُتتابعات، إذا ظهر شيء منها تبعتها باقي العلامات مُتوالية متقاربة الأزمان، وهي عشر علامات كما ورد في الحديث الآتي: (قالَ: إنَّهَا لَنْ تَقُومَ حتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ، الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بالمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بالمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بجَزِيرَةِ العَرَبِ، وَآخِرُ ذلكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ اليَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إلى مَحْشَرِهِمْ.) .

ضوابط التعامل مع علامات الساعة تضافرت جهود أهل العلم قديماً وحديثاً في التأليف والكتابة في قيام الساعة والأمارات التي تسبقها، ولأنّ علم الساعة غيبٌ لا يعلمه إلا الله عز وجل، فإنّه لا بُدّ من نصّ صحيح يُؤخذ منه، والقول بغير علم والإخبار عن الغيب بلا قرينة ولا دليل يُجزم به قد يؤدّي إلى مفاسد عظيمة، كتكذيب الله -تعالى- ورسوله -صلّى الله عليه وسلم-؛ فالإنسان غير مطالب بتنزيل أشراط الساعة على واقعه، ويُستثنى من ذلك أهل العلم المُعتبرين -دون غيرهم-؛ إذ يُسوَّغ لهم الاجتهاد في تنزيل هذه الأشراط على واقعهم بشرط ألّا تترتّب على ذلك مفاسد أعظم.

الْإِنْسَانِ فِي الْقُرْآنِ

الرُّؤْيَة الْإِسْلَامِيَّة لِلْإِنْسَان كَرَمَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ ، وَسَخر كُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ لِخِدْمَتِه ، وَقَد بَثّ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، الَّتِي تُجَاوِزُ بِهَا الْإِنْسَانُ حُدُودِه الْجَسَدِيَّة ، وَسَمَّى عَن غَرِيزَتُه الْبَهِيمِيَّة ، وَهَذَا مَا أَكَّدَ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنْ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ حاوَل سَبَر غَوْرٌ الرُّوح وَكَشَف خَباياها ، مِنْهُمْ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الَّذِي شَدَّدَ عَلَى أَنَّ الْجَسَدَ مَا هُوَ إِلَّا مُجَرَّدُ أَدَاه لِلرُّوح وَوَسِيلَة لِخِدْمَتِهَا ، إِلَّا أَنْ الْفَهْمَ الْبَشَرِيّ لَهَا يُضِلّ قاصراً ، فَالْعِلْم الْمُطْلَق لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ . فِي الْمَنْظُورِ الْإِسْلَامِيّ تَعَدّ الْفِطْرَة السَّلِيمَة أَسَاس الْخَيْرُ فِي النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةَ ، وَالْمِيل عَنْ هَذِهِ الْفِطْرَةِ هُو مَبْعَث كُلّ الشُّرُور ، وَالْبِشْر مجبولون بطبيعتهم عَلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَة إِلَّا أَنْ اللَّهَ يَخْتَبِرَ عِبَادَهُ بِالشَّرّ ، لِيُقِيم الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ الْحِسَابِ ، ويفاضل بَيْنَهُمْ فِي الْإِيمَانِ ، فَالْإِنْسَان مُخَيَّرٌ ، وَإِنْ كَانَ مخيراً فَهُو مَسْؤُول ومحاسب عَنْ كُلَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ .

الْإِنْسَانِ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ جَوْهَرٌ الشَّرِيعَةِ وَهُوَ حَقِيقَةُ النَامُوس ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّل لِدِينِ اللَّهِ وَشَرِيعَتَه ، ولتعاليم رَسُولِه ، ولمبادئ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

الْإِنْسَانِ فِي الْإِسْلَامِ مَكْفُولٌ الْحُرَيَّة ، مَصُونٌ النَفْس وَالْمَالِ وَالْعِرْض ، مُحاطٌ بِالْكَرَامَة وَالرِعَايَة فِي السَّلَامِ وَالْحَرْب ، لامنطق لِلْقُوَّة فِي الْإِسْلَامِ بَلْ لِلْخَيْر وَالْعَدْل وَالرَّحْمَة وَالْعِنَايَة مِنْ كُلَ فَرْدٍ فِي مُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِين حاكمًا أَو محكومًا الْإِنْسَانُ هُوَ الْجَوْهَر ، وَهُوَ الَّذِي أَخَذَ الْإِسْلَام بِيَدِه ليرفعه إِلَى مُسْتَوَى الْهِدَايَة لِلْعَالِم ، والريادة لِلْخَلْق .

أَمَّا تَعْرِيف الْإِنْسَان فِى الْقُرْآنِ الْحَكِيمُ وَأَحَادِيث النَبىّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَقَد اجْتَمَعَت صِفَاتِهِ أَوْ مُقَدَمَاتِهِ ، فِى تَعْرِيفَيْن جَامِعَيْن :

إِنَّهُ مَخْلُوقٌ مُكَلَّف . .

وَأَنَّه مَخْلُوقٌ عَلَى صُورَةِ الْخَالِق . .

فَالْإِسْلَام لَا يُقِرُّ الْخَطِيئَة الْمَوْرُوثَة ، وَلَا يُقَرُّ السُّقُوطُ مِنْ طَبِيعَة إِلَى مَا دُونَهَا ، وَلَا يُحَاسَب أَحَدًا بِذَنْبٍ أَبِيهِ أَوْ غَيْرِهِ ، فَلَا تَزِر عِنْدَه وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَلَيْسَ مِمَّا يَدِينُ بِهِ الْإِسْلَامَ أَنَّ يَرْتَدَّ النَوْع الإنسانى إِلَى مَا دُونَ طَبِيعَتَه . .

أَمَّا ارْتِفَاع الْإِنْسَانِ أَوْ هُبُوطِهِ ، فمنوطان بِالتَّكْلِيف ، وَقِوَامُه الْحُرِيَّة وَالتَّبِعَة . . وَهُوَ أَهْلٌ بِعَمَلِه للصعود أَوْ الْهُبُوطُ . .

« إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ »

« بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ » (القيامة 14) .

وَبِهَذِه الْأَمَانَة الَّتِى حَمْلِهَا الْإِنْسَان ، تَمَيَز بِالتَّكْلِيف ، لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرَ . . وَلَهُ مِنْ ثَمَّ فَضْل الِاخْتِيَارِ . .

« وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرَ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولا » (الإسراء 11) .

ويستعرض الْأُسْتَاذ العقاد الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِى ذَكَرَت غُرُورٌ الْإِنْسَان ونقائصه وَضَعْفَه وهبوطه حِين يُخْطِئ الِاخْتِيَار وَعَلَى الْعَكْسِ حِين يَلْتَزِم التَّقْوَى وَيَحْسُن عَمَلِه ، فَهُوَ قَابِلٌ ـ بِعَمَلِه ـ للترقى ، وَقَابَل للتردى مَنْ أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ .

وَفِى آيَة جَامِعَةٌ يَقُول الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » (التين 4- 6) .

وَمِنْ تَمَامِ خَوَاصّ الْإِنْسَانِيَّة فِى عَقِيدَة الْإِسْلَام ، أَن قَابِلِيَّةٌ الْإِنْسَان لِلتَّكْلِيف مُتَّصِلَة بقابليته لِلْعِلْم وَبِمَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ مكنات الِانْتِفَاع بِقُوَى الطَّبِيعَة وَالْجَمَاد وَالْحَيَوَان . .

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مّنَ الطَّيّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا » (الإسراء 70) .

« سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ » . . (الحج65) .

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَاوَاتِ » (لقمان20) .

وَهَذَا الْعِلْمُ الَّذِى حُبِىَ بِهِ الْإِنْسَانُ ، وَاسْتَعَدّ لَه ، هُو مَنَاظِر تكليفية وَمَال التَّبَعَة الَّتِى يَنْهَض بِهَا . .

وَحُرِّيَّة الْإِنْسَانِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِى أَشَارَت إِلَيْهَا الْآيَات ، لَا تَنَاقُضَ إِمْكَان الْعَدْل الإلهى مَتَى الْتَمَسْنَا آيَات هَذَا الْعَدْل ـ فِيمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذ العقاد ـ فِى آيَاتِ الْكَوْن كُلُّه ، وَلَم تقصرها عَلَى حَادِثٌ فِى حَيَاة مَخْلُوقٌ وَاحِد يَتَغَيَر شُعُورُه بِتَغَيُّر ظُروفه وَالْأَمَة وَعَوَاقِبهَا مِنْ حِينِ إِلَى حِينِ .

التَّكْوِين وَالْخَلْق

لَقَد أَثْبَت الْقُرْآن الْكَرِيم أَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ لَا يَأْتِي جُمْلَةً أَوْ دَفَعَهُ وَاحِدَةً وَإِنَّمَا يَمُرُّ بِمَرَاحِلَ عَدِيدَة وَمُتَبَايِنَة تَسَمُّحٌ لِلْجَنِين بالتدرج فِيهَا عُبَرَ أَطْوَار ، وَهُوَ مَا جَاءَ مخالفًا لَمَا كَانَ متصورًا حَتَّى الْقَرْن الثَّامِنَ عَشَرَ طبقًا للنظرية القزمية وَالَّتِي كَانَت تَقَرّ بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ دَفْعَةً وَاحِدَةً ثُمَّ يَنْمُو وَيُكبر كَالشَّجَرَة .

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [٢] .

جَاء التَّعْبِير عَنْ تِلْكَ الْأَطْوَار فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أَيْ إِنْ الْإِنْسَانَ يَمُرّ خِلَال عَمَلِيَّة تَخَلُّقِه بِمَرَاحِل مُتَتَابِعَة فَصْلُهَا الْقُرْآن فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجّ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ .

وَمِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ وَغَيْرِهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالَّتِي تَنَاوَلَت خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، نَسْتَطِيع التَّعَرُّف عَلَى أَطْوَار الْجَنِين الْإِنْسَانِيّ وَمَعَالِمَه ، دُون الْإِسْهَاب فِي تَنَاوُلِهَا ، وَهِي :

١• طَوْر النُّطْفَة .

٢• طَوْر الْعَلَقَة .

٣• طَوْر الْمُضْغَة "المخلقة وَغَيْر المخلقة" .

٤• طَوْر الْعِظَام .

٥• طَوْر اللَّحْم يَكْسُو الْعِظَام .

٦• طَوْر التَّسْوِيَة وَالتَّصْوِير .

٧• طَوْر نَفْخ الرُّوحِ .

يَقُول الْعَالِم (كيث مور) Keith Mooreرَئِيس قِسْمٌ التَّشْرِيح وَعُلِم الْأَجِنَّة بِجَامِعَة "تورنتو"فِي كَنَدا : (إن التعبيرات الْقُرْآنِيَّة عَن مَرَاحِل تَكَوَّنَ الجَنينُ فِي الْإِنْسَانِ لِتَبْلُغ مِنْ الدَقَّةِ وَالشُّمُول مَا لَمْ يَبْلُغْهُ الْعِلْمُ الْحَدِيثِ ، وَهَذَا إنْ دلَّ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إلَّا كَلَامُ اللَّهِ ، وَإِن محمدًا رَسُول الله) .

كَمَا قَالَ فِي محاضرته الَّتِي أَلْقَاهَا فِي مُؤتَمَرٍ الْإِعْجَاز الْعِلْمِيّ الْأَوَّل لِلْقُرْآن الْكَرِيمُ وَالسُّنَّةُ الْمَطْهَرَة وَالَّذِي عُقد فِي الْقَاهِرَةِ عَام **١٩٨٦** م : (إنني أَشْهَد بِإِعْجاز اللَّهُ فِي خَلْقِ كُلَّ طَوْرٍ مِن أَطْوَار الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ،

وَلَسْت اعْتَقَدَ أَنَّ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ أَيُّ شَخْصٍ آخَرَ يَسْتَطِيع مَعْرِفَةِ مَا يَحْدُثُ فِي تَطَوُّرِ الْجَنِين ؛ لِأَنَّ هَذِهِ التَّطَوُّرَات لَم تكتشف إلَّا فِي الْجُزْءِ الْأَخِيرِ مِنْ الْقَرْنِ العِشْرِينَ ، وَأُرِيدُ أَنْ أَؤكد عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَرَأْته فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنْ نَشْأَة الْجَنِين وَتَطَوُّره فِي دَاخِلِ الرَّحِمِ يَنْطَبِقُ عَلَى كُلَ مَا أَعْرِفُهُ كعالمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَجِنَّة البارزين) .

لَقَد الْتَقَى الْعِلْمِ الْحَدِيثِ ودراساته حَوْل عَلِم الْأَجِنَّة وَالْأَرْحَام مَع آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّتِي أَتَتْ فِي مَوَاضِعَ جَدِيدَة مِنْه تَنَاوَلَت فِيهَا عَمَلِيَّة التَّنَاسُل الْإِنْسَانِيّ ، مَا يَسْتَحِيلُ مَعَه وُقُوعِ أَيْ تَعَارُضَ بَيْنَ قَطْعِيَّ مِنْ الشَّرْعِ مَعَ قِطْعِيٌّ مَعَ الْعِلْمِ ، وبالتالي فَإِن الأَقْلام الَّتِي تُحَاول أَنْ تَقِفَ بِقُوَّة إمَامُ هَذَا السَّيْل الهادر مِنْ الْحَقَائِق بِأَن تَلَقي هُنَا وَهُنَاكَ بَعْض الشُّبُهَات حَوْل مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَإِنَّمَا تَظْهَرُ إلَى جَانِب الْحِقْد الدَّفِين لِكِتَابِ اللَّهِ المدعوم بِالْحِفْظ الْإِلَهِيّ ، وَالْمَصْدَرِيَّة الْإِلَهِيَّة أيضًا ، إنَّمَا تَثْبُتُ أَن شبهاتها تِلْكَ لَا تَقُومُ عَلَى حَقَائِق ، وَإِنَّمَا ضَرَبَ مِنْ المجازفات اللَّا عِلْمِيَّة ، كَما تفضح نَفْسِهَا بقصورها الْوَاضِح فِي فَهْمِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالنَّظَرِيَّات الْمُسْتَقِرَّة علميًا .

يَثْبُت الدكتور مُوريس بوكاي بَعْد مُطَالَعَتُه لِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمِ ، وَمَا أَثْبَتَتْه البُحُوثِ العِلْمِيَّةِ ، الْأَحْكَام الدَّامِغَة التَّالِيَة الَّتِي نوردها بِنَصِهَا عَلَى هَيْئَةِ مقتطفات ، كَالتَّالِي :

- (تطور الْجَنِينُ فِي الرَّحِمِ كَما يَصِفُهُ الْقُرْآن يَسْتَجِيب تمامًا لِمَا نَعْرِف الْيَوْمُ عَنْ بَعْضِ مَرَاحِل تَطَوَّر الْجَنِين ، وَلَا يَحْتَوِي هَذَا الْوَصْفُ عَلَى أَيَ مَقُولَهُ يَسْتَطِيع الْعِلْمِ الْحَدِيثِ أَنَّ يَنْقُدَهَا ؛ إذْ يَقُولُ الْقُرْآنِ أَنْ الْجَنِينَ ، بَعْد مَرْحَلَة التَّشَبُّث ، وَهُوَ التَّعْبِيرُ الَّذِي رَأَيْنَا إلَى أَيَ حَدُّ هُوَ مُؤَسَس عَلَى الْحَقِيقَةِ ، يَمُرّ

بمرحلة "المضغة" • أَي اللَّحْم الْمَمْضُوغ • ثُمَّ يَظْهَرُ بَعْدَ ذَلِكَ النَسيج العظمي الَّذِي يغلف بِاللَّحْم وَيَعْنِي لحمًا نضرًا) .

• (عرف النَاسَ الْقُرْآنَ بِمَا يَرْبُو عَلَى أَلْفٍ عَامٍ مِنْ قِبَلِ هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي كَانَتْ الْمُعْتَقَدَات الْوَهْمِيَّة تسوده . أَن مَقُولَات الْقُرْآنِ عَنْ النَّاسُل الْبَشَرِيّ تُعَبر فِي أَلْفَاظِ بَسِيطِه عَنْ حَقَائِقِ أَوْلَى أُنْفِقَتْ مِئات مِن السَّنَوَات لمعرفتها) .

الْخَلِيفَة وَالِاسْتِخْلَاف

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30]

لَقَد بَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الهَدَف مِنْ خَلْقِهِ لِلْإِنْسَان وَهُوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ الَّتِي أَعَدَّهَا لَهُ بِشَكْل مِثَالِيٍّ لِلْعَيْش وَالتَّكَاثُر وَمِنْ ثَمَّ إِعْمَارُ الأَرْضِ وَرَفَعَ كَلِمَةِ اللَّهِ فِيهَا .

وَيَقُول الْمَوْلَى الْقَدِير ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود : 61] فالبشر خَلَقَهُم اللَّهُ مِنْ أَدِيمِ هَذِهِ الْأَرْضَ وَلِذَلِكَ سُمِيَ آدَمَ وَهُوَ إِلَيّ استعمرهم فِيهَا وَفَعَل اِسْتَعْمَر هُنَا يُفِيدُ الْأَعْمَار فِيهَا هِيَ بِمَثَابَة مُسْتَوْطَنَة كَبِيرَة أَرَادَهَا اللَّهُ أَنْ تَكُونَ مَحِلًّا لِاخْتِبَار وَابْتِلَاءٌ بَنُو آدَمَ .

أَنَّ هَذِهِ الْغَايَةَ الرَّبَّانِيَّة مِنْ وَرَاءِ خَلْقِ آدَمَ واستعماره فِي الْأَرْضِ جَعَل مَلَائِكَةَ اللَّهِ تستفسر وتستغرب وتتسأل : قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ . وَفِي الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِع بِأَنَّ السُّؤَالَ الَّذِي طَرَحْتَه الْمَلَائِكَة كَانَ فِي مَحَلِه وَسَوَاءٌ أَكَانَ عِلْمِهِم بِعَمَلِيَّة الْفَسَاد وَالْإِفْسَاد وَسَفْكِ الدِّمَاءِ قَد بَنَوْهَا عَلَى مَعْرِفَتِهِمْ بِوُجُود مَخْلُوقَات تَعِيشُ عَلَى الْأَرْضِ وَتَفْسُد فِيهَا قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ وَلَقَد حَسِبْت أَنْ بَنُو آدَمَ سيفعلون مَا فَعَلَتْهُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَات أَوْ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَعْلَمُهُم بِأَنَّ مَنْ ذُرِّيَّةِ آدَم هَذَا الَّذِي خَلَقَهُ وواستخلفه فِي الْأَرْضِ سَيَكُون مِنْهَا الْفَاسِدَيْن وَالْقَتْلَى والمجرمين وَغَيْرِ ذَلِكَ .

لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدًا الْإِجَابَة عَلَى السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَ الْمَلَائِكَة يَظُنُّون ذَلِكَ لَكِنْ الْمَرْجِع كَمَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ هُنَاكَ مَخْلُوقَات تَعِيشُ عَلَى الْأَرْضِ تَفْسُد وَتُقْتَل فِيهَا .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ السُّؤَالَ الْآخر لِلْمَلَائِكَة وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ قَد طَرَحَ إِشْكَالِيَّةً وَاضِحَةٌ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ قَوْله وَتَعَالَى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] فَالْمَلَائِكَة هِيَ الْمُكَلَّفَة بِالتَّسْبِيح وَالْعِبَادَة لِلَّه وَهُمْ لَا يسئمون فَلَيْسَ هُنَاكَ حَاجَة لِخَلْق بِشْر يَعْبُدُوا اللَّهَ وَهُمْ يَعْبُدُونَه حَقَّ عِبَادَتِهِ وَتَقْدِيسِه ؟

لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَطَعَ عَلَيْهِمْ الطَّرِيقَ بِقَوْلِه (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ثُمّ اِخْتَبَر آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِمَامُهُم وتيقنوا أَنَّهُم حَقًّا لايعلمون بِالْمِقْدَارِ الَّذِي عَلَّمَهُ اللَّهُ لآدَمَ فَكَيْف بِهِم سَيَعْلَمُون ويحيطون بِعِلْمِ اللَّهِ

فَالْمَوْضُوع وَالْقَضِيَّة الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَلَقَ اللَّهُ الْبَشَر لَا تَتَعَلَّقُ بِالْعِبَادَةِ أَوْ تَعْمِيرِ الْأَرْض وَإِفْسَادِهَا بَل أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ فِي قَصْدِ اللَّهِ وَعِلْمُهُ وَحِكْمَتِهِ فَاَللَّه عَلَى عِلْمٍ مُسْبَق بِمَا سيفعله بَنُو آدَمَ فِي الْأَرْضِ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : 16]

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ الْبَقَرَة : 205

فَالسُّؤَال الَّذِي يُطْرَحُ نَفْسِه بِقُوَّة بَعْدَ كُلّ ذَلِكَ هُوَ لِمَاذَا خَلَقْنَا اللَّه ؟

نَحْنُ لَا يُمَكِّنَنَا الْإِجَابَة عَلَى هَذَا السُّؤَالِ إِطْلَاقًا بَلْ كُلُّ مَا يُمْكِنُنَا فَعَلَهُ هُوَ اسْتِخْلَاص جَوَابًا لَهُ مِنْ خِلَالِ فَهْمِنَا لِلنُّصُوص الْقُرْآنِيَّة وَنَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ نوفق فِي الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ .

قَبْلَ كُلَ شَيْءٍ عَلَيْنَا إزَالَةِ الالْتِبَاسِ بَيْنَ مَفْهُومَيْ الْعِبَادَة وَالاسْتِخْلَاف وَالْأَعْمَار فَمَا مَعْنَى الْعِبَادَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إلَّا لِيَعْبُدُونِ)

و أَنَّ التَّعْلِيلَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ لِيَعْبُدُون ﴾ مَنْ جَعَلَ عُمُوم الْجِنّ والإنس مخصوصاً بِالْمُؤْمِنِين مِنْهُم ، أَو تقديرِ مَحْذُوف فِي الْكَلَامِ ، أَيْ إلَّا لآمُرهم بِعِبَادَتِي ، أَو حمل الْعِبَادَة بِمَعْنَى التَّذَلُّل وَالتَّضَرُّع الَّذِي لَا يَخْلُو مِنْهُ الْجَمِيعِ فِي أَحْوَالِ الْحَاجَةِ إلَى التَّذَلُّل وَالتَّضَرُّع كَالْمَرَض وَالْقَحْط وَقَد (والكلام كُلِه هُنَا لِابْنِ عَطِيَّةَ)

وَيَرِدُ عَلَى جَمِيعِ تِلْكَ الاحْتِمَالَات أَن كثيراً مِن الإنس غَيْر عابدٍ بِدَلِيل الْمُشَاهَدَة ، وَإِنَّ اللَّهَ حَكَى عَنْ بَعْضِ الْجِنّ أَنَّهُمْ غَيْرُ عابدين" . ثُمَّ قَالَ : "ومعنى الْعِبَادَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْل حدوثِ الْمُصْطَلَحَات الشَّرْعِيَّة دَقِيق الدَّلَالَة ، وَكَلِمَات أَئِمَّةُ اللُّغَةِ فِيه خُفَيْه وَالَّذِي يُستخلص مِنْهَا أَنَّهَا إظْهَار الْخُضُوع لِلْمَعْبُود وَاعْتِقَادُ أَنَّهُ يَمْلِكُ نَفع الْعَابِد وضُرّه مِلكاً ذاتياً مستمراً ، فالمعبود إلَه لِلْعَابِد كَمَا حَكَى اللَّهُ قَوْلَ فِرْعَوْنَ ﴿ وقومهما لَنَا عَابِدُون ﴾ [المؤمنون : 47]" . بَعْدَ ذَلِكَ كُلِه تَعَمَّقَ فِي دَلَالَةِ الْحَصْرِ فِي الْآيَةِ فَقَالَ : "فالحصر الْمُسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ قصرُ علةِ خَلَقَ اللَّهُ الإنسَ والجنَّ عَلَى إرَادَتِهِ إنْ يَعْبُدُوهُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ قَصَرَ إضَافِيٌّ وَأَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ قَصَر الْمَوْصُوفِ عَلَى الصَفَةِ ، وَأَنَّه قَصَر قَلْب بِاعْتِبَار مَفْعُولٌ ﴿ يَعْبُدُون ﴾ ، أَيْ إلَّا ليعبدوني وَحْدِي ، أَي : لَا ليشركوا غَيْرِي فِي الْعِبَادَةِ ، فَهُو ردّ لِلإشراك ، وَلَيْسَ هُوَ قصراً حقيقياً فَأَنَا وَإِنْ لَمْ نَطَّلِعْ عَلَى مَقَادِير حِكَم اللَّهُ تَعَالَى مِنْ خَلق الْخَلَائِق ، لكنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْحِكْمَةَ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيْسَت مُجردَ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، لِأَنّ حِكَم اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَفْعَالِهِ كَثِيرَةٍ لَا نُحيط بها)

أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةَ الَّتِي تُفِيدُ بِأَنَّ الْحِكْمَةَ مَنْ خَلَقْنَا لَيْسَتْ مُجَرَّدَ الْعِبَادَةِ الَّتِي مَفْهُومُهَا هُنَا يَعْنِي الْخُضُوع وَالِاسْتِسْلَام لِلْخَالِق وَهَذَا تَعْرِيفٌ يفيدنا كَثِيرًا فِي مَعْرِفَةِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ مَنْ خَلَقْنَا .

الْأَمَانَة

ماهي الْأَمَانَة التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ أَمْ الْعَقْلُ

إنْ حَلَّ هَذَا الْإِشْكَالِ الْمُتَعَلَق بِالْحِكْمَة النَهَائِيَّة مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانَ سنجد جَوَابِهِ فِي نَص آخَرُ

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : 72]

الْأَمَانَة وَفْق مارأه الْمُفَسِّرِين

فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ كَلَامِ كَثِيرٍ وبخاصّة فِي بَيَانِ الْمَقْصُودِ مِنْ الْأَمَانَةِ ، ويُروى فِي ذَلِكَ أَثَرٌ عَنْ التِرْمِذِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ عَنْ النَبِيَ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَال : "قال اللَّهُ تَعَالَى لِآدَم : يَا آدَمُ إنّي عرضْت الأمانةَ عَلَى السّمواتِ والأرضِ وَالْجِبَال فَلَم تُطِقْها ، فَهَلْ أَنْتَ حَامِلَهَا بِمَا فِيهَا ؟ فَقَال : وَمَا فِيهَا يَا ربَّ الْعَالَمِين ؟ قَال : أَن حَمَلْتَهَا أجرتَ ، وَإِن ضَيْعَتُهَا عذَبت . فَاحْتَمَلَهَا بِمَا فِيهَا ، فَلَم يلبَث فِي الجنّة إلَّا قَدْرَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الأولَى إلَى العَصر حَتَّى أخرجَه الشّيطان منْها" .

فالأمانة هِي التَّكَالِيف ، وَتَرَتُّبُ الثَّوَابِ عَلَى أَدَائِهَا وَالْعِقَابَ عَلَى تضيعها لابُدَّ لَهُ مِنْ حريّة وَاخْتِيَار وَالْمَخْلُوقَات غَيْرِ الْإِنْسَانِ لَيْسَتْ لَهَا هَذِهِ الْحُرِيَّة ، فَهِي مسيّرة بقوانينَ ثابتةٍ لَا تملك الْخُرُوج عَلَيْهَا ، وَلَا تَتَحَقَّقُ بِهَا الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ . وَمِنْ هُنَا كَانَ الْإِنْسَانُ أصلحَ الْمَخْلُوقَات لِلْعَيْش عَلَى الْأَرْضِ ، ومتناسِبًا مَعَ مَا فِيهَا مِنْ ماديّات ومعنويات مُتقابلة بِالتَّضَادّ أَوْ التَّنَاقُضِ . وَهَذَا تكْرِيمٌ مِنْ اللَّهِ لِلْإِنْسَان حَيْث

اخْتَارَه لِحَمْلِ هَذِهِ الْأَمَانَةِ . وَلَيْسَ قَوْلُهُ : (إنّه كَان ظَلومًا جَهولاً) نقضًا لِهَذَا التَّكْرِيم ، فَإِن مجرّد اسْتِعْدَادِه لتلقي التَّكَالِيف دُونَ غَيْرِهِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ هُو مَناط التَّكْرِيم ، وَكَوْنُه يَفِي بِالْعَهْد أَوْ يُنْقَضَ مِنْ مَظَاهِر الِاسْتِعْدَاد الَّذِي لَيْسَ لِغَيْرِهِ . فَهُو ظَلُومٌ أَن تعدَّى حُدُود التَّكْلِيفِ وَهُوَ يعلَم بِهَا ، وجهول إِنْ كَانَ لَا يعلمُها وَعِنْدَه أَمَانَةُ الْعَقْلِ الَّذِي يَهديه إِلَى عَلَمِهَا ، وَلَيْسَ هُنَاكَ كَائِنٌ غَيْرِ الْإِنْسَانِ يوصَف بِالظُّلْم وَالْجَهْل ؛ لأَنّه لَا يُعْرَفُ حَدًّا يَقِفُ عِنْدَهُ . وَمَا وُصِفَ الْإِنْسَانِ بِالظُّلْم وَالْجَهْل إِلَّا لأَنّه يصِحُّ أَن يوصَف بضدهما مِنْ الْعَدْلِ وَالْعِلْمُ كَما قَالَ المحقّقون . هَذَا بَعْضُ مَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، وَلَعَلَّ فِيهِ الكِفاية . وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ حَدِيثَيْن ، قَدْ رَأَيْت أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ ... حَدَّثَنَا أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جِذْر قُلُوبِ الرِجَالِ ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فعَلِمُوا مِنْ الْقُرْآنِ وعَلِموا مِن السُّنة ، ثُمّ حدَّثنا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ " رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ . وعرْض اللَّه الْأَمَانَةِ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ : أَن أَدَّوْها أثابهم ، وَإِن ضيَّعوها عذبهم ، فكَرِهوا ذَلِك وأشْفَقوا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَلَكِن تعظيمًا لِدِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إلا يَقُومُوا بِهِ . ثُمّ عَرَضَهَا عَلَى آدَمَ فَقَبِلَها بِمَا فِيهَا ، قَال النُحَاس : وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ التَّفْسِيرِ . وَلَعَلّ آبَاءٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ لِلْأَمَانَة أَسَاسِه ـ كَما قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ـ خَشْيَةُ التَّقْصِيرِ فِيهَا ؛ لِأَنَّهَا مفْطُورة عَلَى الطَّاعَةِ ، رَاضِيَة بِمَا هُيِّئَتْ لَهُ مِنْ رِسَالَةِ فِي الْحَيَاةِ يوضَحه قَوْله تَعَالَى (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) (سورة فَصَّلَت : 11) ، وَهَذَا يَلْتَقِي مَع الرَّأْي الْقَائِلِ بِأَنَّ العَرْض مَعْنَاه مُقايَسة التَّكَالِيف بجَهْد السَّموات وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَطَبِيعَتِهَا ، فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تُناسِب . أَمَّا الْإِنْسَان فَفِي طَبِيعَتَه تُناسِب لِحَمْل الْأَمَانَة مَعَ مَا يَلْزمُها مِن ثَوَاب عَلَى الطَّاعَةِ وَعِقَابُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ . وَقَد قَبِل الإِنْسانُ هَذِهِ الْأَمَانَةِ دُونَ أَنْ تُعرَض عَلَيْه ، فلمْ يُصرِح القُرْآنُ بِذَلِكَ كَما قَالَهُ بَعْضُ المُفَسرين ، ولعلَّ مُبَادَرَتَهُ للقَبول كَانَت تفاؤلاً بالتَّوفِيق

لِأَدَائِهَا وأملاً فِي عَدَمِ التقْصير فِيهَا ، وَلِأَنّ طَبِيعَتَه الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا تَتَنَاسَبُ مَعَ قَبُولِ هَذِه التَّكَالِيف . ثُمَّ قَالَ الْعُلَمَاءُ : إِنْ عَرَضَ الْأَمَانَةِ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ كَان عرْض تَخْيير ، أَمَّا عَرْضُهَا عَلَى الْإِنْسَانِ فَكَأَنَّ عَرَض إِلْزَام ، وعبَّرت الْآيَةِ عَنْ الْإِنْسَانِ الَّذِي حَمَلَ الْأَمَانَة بِأَنَّه ظَلُومٌ جَهُول ؛ لِأَنَّهُ كَانَ ظلومًا لِنَفْسِه بِالتَّقْصِير الَّذِي آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ الْكَثِيرِين ، وجهول حِين خَاطَر بِحَمْل الْأَمَانَة وَلَم يَدْرِ مَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ مُسْتَقْبَلَ حَالَةٍ مِنْ التَّقْصِيرِ الَّذِي يعرض لَهُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِدَافِعِ الْغَرَائِز الَّتِي فُطِر عَلَيْهَا . ؟

تَفْسِير الْمَرْحُومُ مُحَمَّدٌ مُتَوَلِّي الشَّعْرَاوِيّ

العَرْض : إِدَارَة مَعْرُوضٌ عَلَى مَعْرُوض عَلَيْه ، كَمَا نَرَى مثلاً فِي الْعَرْضِ الْعَسْكَرِيّ ، حَيْث تَمر نَمَاذِج مِنْ الْجُيُوشِ وَالأَسْلِحَة إِمَام الْقَائِد ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى فِي قِصَّةِ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ [ص : 31] .

وَمِنْه قَوْلِك : عرضتُ عَلَى فُلَانٍ الْأَمْرَ يَعْنِي : أطلعتُه عَلَيْه ، لِيَرَى فِيهِ رَأْيُهُ يُقَبِّلُ أَوْ لَا يَقْبَلُ ، فَالْعَرْض تَخْيِير لَا إلزامَ فيهِ .

فَالْحَقّ سُبْحَانه يَقُولُ : عُرِضَت الْأَمَانَةِ عَلَى خَلْقي كلّ خَلْقي ، وَمِنْه الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ وَالْجَمَاد وَالنَّبَات لَأَرَى مَنْ مِنْهُم سَيَقْبَل تحمُّلها ، ومَنْ سيرفض ، إِذْن : مَعْنَى العَرْض أَنَّ هُنَاكَ مَنْ سَيَقْبَل ، وَهُنَاك مَنْ سيرفض .

لِذَلِك قُلْنا : مِنْ الْخَطَأ : أَنْ نَقُولَ : أَنَّ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءِ وَالْجِبَال . . إِلَخ مُسَيَّرة مَقْهُورَةٌ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نُعدَل الْعِبَارَة فَنَقُول هِي مَقْهُورَةٌ بِاخْتِيَارِهَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِنّ الْأَمَانَة أبينْ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأشفقْنَ مِنْهَا ، وَقَالَت : نَخْرُجُ مِنَ بَابِ الْجَمَال ، فاختارتْ أَلاَّ تكُون مُخْتَارَةٌ .

وَالْأَمَانَة الَّتِي عَرْضُهَا الْحق سُبْحَانَهُ عَلَى خَلْقه هِيَ أَمَانَةٌ الِاخْتِيَار فِي أنْ يَكُون مختاراً فِي أنْ يُؤَمَنُ أَوْ يَكْفُرُ ، فِي أنْ يُطِيع أَو يَعْصِي ، فَكُلُّ مَا عَدَا الْإِنْسَان رَفَض التحمُّل ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَأْخُذْهُ الْحَمِيَّة وَقْت العَرْض والتحمُّل ، مَخَافَة أنْ يَأْتِيَ وَقْتُ الْأَدَاءِ ، فَلَا يَجِدُ لَهُ ذِمَّةُ) .

وَحَتَّى نستطلع الْأَمْرِ مِنْ كُلَ جَوانِبِهِ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ ماالمقصود لُغَوِيًّا ومصطلحا مِنْ كَلِمَةٍ أَمَانَةٌ

مَاذَا تَعْنِي كلمة الْأَمَانَةُ أَوْ ماهي الْأَمَانَة ؟

تَعرِيفٌ و مَعْنَى الْأَمَانَةَ فِي مُعْجَمِ الْمَعَانِي الْجَامِع – مُعْجَم عَرَبِيٌّ عَرَبِيٌّ

الْأَمَانَة : الْوَدِيعَة ، وَأَيْضًا الأَمَانَةُ مِنْ آمَنَ تَكُونَ بِمَعْنَى الْوَفَاء ، وَفُلَانٌ آمِين أَيْ وَفِي لَا يَتَعَدَّى عَلَى حَقَ الْغَيْرِ . (فقهية)

الْأَمَانَة : مَا وَجَبَ حِفْظِه بِعَقْدٍ أَوْ بِغَيْرِ عَقْدٍ ، وَسَوَاءٌ أَكَانَ هَذَا الْعَقْدِ عَقْدَ اسْتِحْفَاظ كَالْوَدِيعَة ، أَم عَقْد اسْتِئْجَار كَالْإِجَارَة ، وَالْأَمَانَة بِغَيْرِ الْعَقْدِ كَاللُّقَطَة فِي يَدِ الْمُلْتَقِطِ . فِي مُدَّةِ التَّعْرِيفِ .

والأَمانَةُ إذْن هِي الْوَدِيعَة

الْأَمَانَة هِي الْعَقْل

أَنَّ الْأَمَانَةَ أَوْ الْوَدِيعَةَ الَّتِي اسْتَوْدَعَهَا اللَّهِ هِيَ الْعَقْل وَالَّذِي هُوَ نَفْحُه مِنْ رَوْحِ اللَّهُ وَعِلْمُهُ وَأَنَّ هَذَا التَّعْرِيفِ يُقَدَّم لَنَا أَجْوِبَة مَنْطِقِيَة لسؤالنا هَل خَلَقْنَا اللَّه لِلْعِبَادَةِ أَوْ الْأَعْمَار وَالدَّلَائِل عَلَى ذَلِكَ هِيَ :

أَوَّلًا: أَنَّ تَفْسِيرَ الْمَرْحُوم محمدمتولي الشَّعْرَاوِيّ لِمَعْنَى الْأَمَانَة هُوَ هِيَ أَمَانَةٌ الِاخْتِيَارِ فِي أَنْ يَكُون مختاراً فِي أَنْ يُؤَمَنُ أَوْ يَكْفُرُ ، فِي أَنْ يُطِيع أَو يَعْصِي وَالِاخْتِيَار يَسْتَوْجِب وُجُودُ الْعَقْلِ لِتَرْجِيح كَفَه الْقَبُولِ أَوْ الرَّفْض وَلَا اخْتِيَارَ أَو خَيْرِه بِدُون عَقْل .

ثَانِيًا : أَنَّ الَّذِي يُمَيَز الْإِنْسَان كمخلوق عَنْ سَائِرِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ بِمَا فِيهِمْ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ بِمَا يُؤْمَرُون دُون اخْتِيَار أَنَّ الَّذِي يُمَيَز الْإِنْسَانُ عَنْ الْجَمِيعِ هُوَ الْعَقْلُ .

ثَالِثًا: أَنَّ الْعَقْلَ هُوَ نَفْحُه مِنْ رَوْحِ اللَّهُ وَعِلْمُهُ وَهُوَ آخِرُ شَيْءٍ بَثَّه اللَّهُ فِيهِ لِذَلِكَ عَجَز الْعِلْم إِلَى الْآنَ عَنْ فَهْمِهِ وَسَبْر أغواره لِمَا فِيهِ مِنْ الْأَسْرَارِ الالْهية الْعَجِيبَة .

رَابِعًا: أَنَّه أَسَاس الْمَسْؤُولِيَّة فِي أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَالْأَعْمَال والتكاليف وَفَاقِد الْعَقْلُ لَا تَقَعُ عَلَيْهِ أَيْ مَسْؤُولِيَّة

خَامِسًا: أَنَّ هُنَاكَ عَدَدًا كَبِيراً جِدًّا مِنْ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّة تَحِض الْإِنْسَانِ عَلَى التَّعَقُّل وَالتَّفَكُّر لِأَنَّه الْأَسَاس الَّذِي سيوصل الْإِنْسَانِ إِلَى بَرَ الْأَمَان .

لنقرأ بَعْض هَذِهِ النُّصُوصُ ولنفهم مِنْهَا مَا دُور الْعَقْلَ فِي أَصْبَاغِ صِفَةُ الْإِنْسَانِيَّة عَلَى الْإِنْسَانِ :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : 10]

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 171]

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : 22]

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 42]

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : 12]

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : 46]

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : 44]

أَنَّ الْآيَةَ تَوَضَّح بِشَكْل صَرِيحٌ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْعَام هُوَ الْعَقْلُ أَلَم يُقَالُ فِي الْفَلْسَفَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ حَيَوَانٌ نَاطِقٌ أَوْ عَاقِلٌ .

أَنَّ كُلَّ هَذِهِ النُّصُوصُ تُشِيرُ إِلَى مَكَانِهِ الْعَقْلِ وَلَيْسَ هُنَاكَ وَدِيعَةً أَوْ أَمَانَةً أَوْ اسْتَوْدَعَهَا اللَّهُ لَهُ سِوَى الْعَقْل لِذَلِكَ كَانَ الْإِنْسَانُ ظَلُومًا جَهُولًا فَهُوَ ظُلْمٌ نَفْسَهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ عَقْلُه بِكُلّ طَاقَتِه وَلِأَنَّ الْغَرَائِز غَلَبَت عَقْلُه وَهُوَ جَاهِلٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْأَمَانَةِ تُمَيِّزُهُ عَنْ سَائِرِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَأَنَّ حَمَلَهَا

سَيَكُون ثِقَلًا كَبِيرًا سَيُؤَدَي فِي النَتِيجَةِ إِلَى الْهَلَاكِ لَوْ قَصَّرَ فِي حَمْلِهَا أَيْ فِي الْعَمَلِ بِهَا لِذَلِك يَقُولُ اللَّهُ عَنْهُمْ (أَم تَحْسِبُ أَنّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُون أويعقلون) فالأكثرية هُنَا وَقَعَتْ فِي فَخ الِاخْتِبَار وفشلت بِه .

الهَدَف وَالْغَايَة و الْعَبَث

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115]

أَكْثَر مايعني مِنْ الْإِنْسَانِ الْمَعَاصِر هَذِهِ الْأَيَّام هُو سُؤَالِه الْمُتَوَاصِل عَنْ مَعْنَى الحياة بشَكْلٍ عَامَ وَمَعْنَى خياته بِشَكْل خَاصٌ وَالْقَضِيَّة لاَتَنْتَهِي عِنْدَمَا يَضَع صُورَة لمستقبل مَنْشُود يَسْعَى لِتَحْقِيقِه وتتعدت هَذِهِ الصُّوَرِ المستقبلية وَتَتَنَوَع لكِن سَوَاءٌ اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَقَقَ طموخاته أَمْ لَا فَالسُّؤَال المصيري الدَّائِم لَن يُفَارِق مخيلتنا

هُنَاك دَائِمًا إِحْسَاس شُعُورِي عَصْرِيّ عَامَ بِأَنْ هُنَاكَ شَيْئًا مَا ينقصنا لَا يُعْرَفُ الْكَثِيرِين ماهُو وَهَذَا الشّي لَيْسَ مِنْ نَوْعِ المتع والغرائز وَالتَّمَلُّك بَلْ هُوَ أكبرهذه الْأَشْيَاءِ كُلَهَا مُجْتَمِعَةٌ هَذَا الشّي الْمَفْقُود الْمَطْلُوب يدلّنا عَلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ طَه 124

ماهُو هَذَا الْعَيْش الضَّنَّك ؟

الْبَعْض يَقُول تَعْنِي : الْمَعِيشَة الضَّنَك ، عَيْش الشَّقَاء ، عَيْش الضَّيَاع ، عَيْش الْإِحْبَاط ، عَيْش الإخفاق ، عَيْش السوداوية ، عَيْش التَّطَرُّف ، عَيْش الانْهِيَار .

هَذِهِ هِيَ الْآيَةُ 124مِنْ سُورَةِ طَه . يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ : "(من أَعرَض عَن ذكري) أَي خَالَفَ أَمْرِي وَمَا أنزَلته عَلَى رَسُولِي ؛ أَعرَض عَنْه وتناساه وأَخذ مِنْ غَيْرِهِ هَدَاه ، فإنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ، أَي ضَنْك فِي الدُّنْيَا فَلَا طُمَأْنِينَةٌ لَهُ وَلَا انْشِرَاح لِصَدْرِه ، بَلْ صَدْرُهُ ضِيق حَرَج لِضَلَالِه ، وَإِنْ نُثعِمْ ظَاهِرُه

وَلبِسَ مَا شَاءَ وَأُكِلَ مَا شَاءَ وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ فإنّ قَلْبِهِ مَا لَمْ يُخْلِصْ إلى الْيَقِين وَالْهَدى فَهُوَ فِي قَلق وَحِيرَة وَشَكّ فَلَا يَزَالُ فِي رِيبَةٌ يَتَرَدّد فَهَذَا مِنْ ضَنْك المعيشة" .

أَنّ السَّبَبَ الرَّئِيسِيّ وَرَاء ضَنْك الْمعِيشَة وَاضِحٌ فِي النّص الْمَذْكُورُ وَهُوَ الْإِعْرَاضُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَيْ خُلُوّ حَيَاةَ الْمَرْءِ مِنْ وُجُودِ اللَّهِ كُلِه فِي قَلْبِهِ عَقْلُه وَبِمَعْنَى آخَرَ هُوَ نُسَيَ اللَّه تَمَامًا وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ ذِكْرٌ فِي وِجْدَانِه وَهَذَا أَحَطّ أَنْوَاع التّيه وَالضَّيَاع .

هَذَا هُوَ السَّبَبُ الأَسَاسِيُّ فِي فَقْدِ مَعْنَى الْحَيَاة وَالْوُجُود وَخَاصَّةٌ بَيْن الشَّبَاب فِي وَقْتِنَا الرَّاهِنِ أَنَّ الْفَرَاغُ الَّذِي تَرَكَهُ اسْمُ اللَّهِ وَذَكَرَهُ فِي عُقُولِهِمْ وَقُلُوبُهُم كَبِيرٌ جِدًّا وَلَا يَمْلَؤُه كُلّ وَطَاهِرٌ ومباهج وَوَسَائِل الْحَيَاة الترفيهية الحَدِيثَة لِذَلِك تَرَاهُمْ قَدْ تَاهُوا وضاعوا وَظَنُّوا أَنّ خَلَقَهُم ووجودهم عَبَثًا فِي عَبَثٌ وَلَا طَعْمُهُ وَلَا لَوْنٌ لَهُ .

لِذَلِك كَثُرَت الْهُمُوم والمشاكل وَالْأَمْرَاض وَالْعُقْد النَّفْسِيَّة وَالْعَقْلِيَّة وَكَثُرَت اللّامُبالاَة وَفَقَدَت المعايير الأَخْلاَقِيَّة كُلُّ هَذَا سَبَبُهُ الْإِعْرَاضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ بِمَعْنَى نِسْيَانَه وَمِنْ ثَمَ التَّخَلي عَنْهُ .

مَعْنَى الْحَيَاةُ مِنْ مَنْظُورٌ غَرْبِيّ :

الْمَصْدَر : مَجَلَّة "لايف هاك" الأَمْرِيكِيَة ، بِقَلَم الْبَاحِثَة الْكَنَدِيَّة فِي عِلْمِ النَّفْسِ ، إيفلين مارينوف .

لَقَدْ كَانَ السُّؤَالُ حَوْل "معنى الحياة" وَالْغَرَضُ مِنْهَا ملحًا وأساسيًا عَلَى مَرّ التَّارِيخ ، جَذَب أَعْظَم الْعُقُول الْبَشَرِيَّة لقرون مِنْ الزّمَنِ . وَقَدْ كَانَتْ الإجابات عَلَى اختلافاتها تَرْجِعُ إلَى بدايات الْأَشْيَاء ، وَإِلَى أُصُول وجودنا ، وَإِلَى أَسْبَاب خَلْقِ الْبَشَر ، وَإِلَى سَعْيِنَا لِتَحْسِين الذّات ، وَكَذَلِكَ إلَى الدّين . وَيُمْكِن الْقَوْل أَنّ

الْعُقُولَ الفذة قُدَمت تَفْسِيرَاتٌ شَافِيه لِكُلَ مَا تَدُور حَوْلَه "الحياة الجيدة" ، وَلِكُلَ مَا يَجْعَلَنَا سُعَدَاء ومغمورين .

لَو تحدثتَ إِلَى أَحَدِ عُلَمَاءِ الفِيزِيَاء أَو الْإِحْيَاء حَوْل الْغَرَضَ مِنْ وجودنا ، فَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يُخْبِرَكَ الْقِصَّة الرَّائِعَة حَوْل الِانْفِجَار الْكَبِير (Big Bang) ، وَحَوّل أُصُول وُجُود الْكَوْن ، وتطور الْأَنْوَاع إِلَى حَيْثُ نَحْنُ الْيَوْمَ . لَكِن التَّطَوُّر لَيْسَ مَا يدفعنا حقًا إِلَى الكِفَاح مِنْ أَجْلِ الْعَيْش وَسَط مِحَن الْحَيَاة ، أَلَيْس كَذَلِك ؟ الْمَسْأَلَة أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ .

أَنَّ السُّؤَالَ حَوْل "معنى الحياة" يَتَمَحْوَرُ حَوْلَ وُجُود الْبَشَر ككائنات لَدَيْهَا عُقُول وطموحات وأحلام وَأَهْدَاف وإحساس بالوعي الذَّاتِيّ . وَلِذَلِك ، عِنْدَمَا تَفَكَّر فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي تدفعك إِلَى الْوُجُودِ ، فَعَلَيْك أَنْ تَفَكَّر فعليًا فِي مَجْمُوعِهِ خُطُوط تتمحور حَوْل الْقِيَم وَالْمُجْتَمَع والعائلة وَالتَّنَاسُل وَغَيْرِهَا مِنْ الْمَسَائِلِ .

كَيْف رَأَى الْحُكَمَاء الْغَرَضَ مِنْ الْحَيَاةِ عَبْرَ التَّارِيخِ ؟

اليونانيون

آمَن الإغريق الْقُدَمَاء بِمَفْهُوم "يودايمونيا " الَّذِي يَعْنِي "السعادة" و"الرخاء" . اعْتَقَدَ جَمِيعَ الْفَلَاسِفَة اليونانيون الْعِظَام –سقراط وأفلاطون وأرسطو– أَنَّ الْحَيَاةَ الْجَيِّدَة تَعْنِي الْعَيْشِ فِي حَالَةِ مِنْ "الرفاهية" . وَقَدْ اخْتَلَفْتُ التَّفْسِيرَات حَوْل مَا يَعْنِيه ذَلِك ؛ فَاعْتَقَد الْبَعْضِ إنْ "الغرض" يُمْكِن الْعُثُورُ عَلَيْهِ فِي الْفَضَائِلِ (مِثْل ضَبْطُ النَّفْسِ وَالشَّجَاعَة والحكمة) .

عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ، اعْتَقَد أَرِسْطُو أَنَّ "الرفاهية الإنسانية" لَا تَتَطَلَّب شَخْصِيَّةٌ جَيِّدَة فَحَسْب ، بَل تَحْتَاج كَذَلِكَ إِلَى مُمَارَسَةِ الْأَفْعَال وَتَحْقِيق التَّفَوُّق . بَيْنَمَا اعْتَقَد الْفَيْلَسُوف أبيكوروس أَنَّ الْحَيَاةَ الْجَيِّدَة تَتَحَقَّق بِاللَّذَّة والتحرر مِنْ الْأَلَم وَالْمُعَانَاة

الْفَلْسَفِيَّة الْكَلْبِيَّة (التشاؤمية)

اعْتَقَدَت هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ الْفِكْرِيَّة الْيُونَانِيَّة الشَّهِيرَة أَن الهَدَف مِنْ الْحَيَاةِ هُو عَيْش حَيَاة مَلِيئَة بِفَضَائِل تَتَّفِقُ مَعَ الطَّبِيعَة . بِالنَسْبَةِ لِهَذَا الْمَذْهَب الْفَلْسَفِيّ ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ السَّعِيدَة هِيَ الْحَيَاةُ الْبَسِيطَة ، المتحررة مِن الممتلكات ، الرَّافِضَة لِلرَّغْبَة بالثروات وَالْمُمْتَلَكَات وَالشُّهْرَة وَالْجِنْس .

الْفَلْسَفَة الرواقية

اُعْتُبِرَت الْمَدْرَسَة الرواقية أَنَّ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَة هِي "العيش فِي اتِّفَاقٍ مَع الطبيعة" . رَكَّز الرَّواقيّون عَلَى أَهَمِيَّة مَا هُوَ خَاضِعٌ لسيطرتنا ، وتجاهل مَا لَا يُمْكِنُ التَّأْثِير فِيه . فِي نَظَرِهِمْ ، "تكمن السَّعَادَةُ فِي قَبُولِ اللَّحَظَات الْحَالِيَّة كَمَا هِيَ ، وتقبلها دُون السَّمَاح لرغباتنا بالتحكم بِنَا مِنْ نَاحِيَةِ الْمُتْعَة وَالْخَوْف وَالْأَلَم ، مِنْ خِلَالِ اسْتِخْدَامُ عُقُولِنَا لِفَهْم مَعَالِم مَا حَوْلَنَا ، وبالتالي الْقِيَام بدورنا حَسَبَ خُطَّةٍ الطَّبِيعَة ، بِوَسَاطَة الْعَمَل معًا ، وَمُعَالَجَة الْآخَرِين بِطَرِيقِه عَادِلَةٌ ومنصفة" .

مَذْهَب المؤلهة (الإيمان بِوَحْدَانِيَّة الله)

آمَن الْمُؤْمِنُون بِوُجُود اللَّه ، الَّذِي خَلَقَ الْكَوْنُ . بِالنَسْبَةِ لَهُمْ ، يَتَماشَى هَدَف الْحَيَاةِ مَعَ هَدَف اللَّهُ فِي خَلْقِ الْكَوْنُ . حُسِبَ هَذَا الْمَذْهَبُ ، اللَّهُ هُوَ مِنْ يُعْطِي حَيَاتِنَا الْمَعْنَى وَالْغَرَض وَالْقَيم . وَبِدُون اللَّه ، تُصْبِح الْحَيَاة فَارِغَة .

الْفَلْسَفَة الْوُجُودِيَّة

وفقًا لفلسفة القَرْنِ العِشْرِينَ هَذِه ، الَّتِي تدعمها عُقُول شَهِيرَةٌ مِثْل سورين كيركغور ، وفيودور دوستويفسكي ، وَجَان بَوْل سارْتِر ، وفريدريك نيتشه ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْبَشَر يمتلكون إِرَادَة حُرَّةٌ . وبالتالي ، فَإِنَّ غَرَضَ كُلَ فَرْدٍ مِنْ الْحَيَاةِ فَرِيد ومتميز ، يَتَماشَى مَعَ ظُرُوف الْمَرْء وَالْكَيْفِيَّة الَّتِي يَفْهَمُ الأُمُورَ مِنْ خِلَالِهَا . وَبِمَعْنَى آخَر ، مَعْنَى حَيَاتِنَا هُوَ مَا نُقَرِرُه نَحْن .

مَفْهُوم الْحَيَاة عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ الْيُونَان

سُقْرَاط : اُعْتُبِر الْفَيْلَسُوف سُقْرَاط أَنّ لِلْحَيَاة جَانِبَيْن ؛ هُمَا الْجَانِب الفردي ، وَالْجَانِب الرُّوحِيّ ، وأَنّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يعطيهما حَقَهمَا بتساوٍ ، وَيُنَمِي الْجَوَانِب الْفَرْدِيَّة والروحية فِي حَيَاتِهِ ، وَذَلِك كَي تكُون حياتهُ كاملةً مكتملة ، وَلَا يُعَانِي مِنْ الضَّيَاعِ فِيهَا .

أَفْلَاطُون : بِالنَسْبَة لأفلاطون ، اُعْتُبِر أَنّ مَعْنَى الْحَيَاة يَتَحَقَّق بِتَحَقُّق معنىً مُهِمٌّ خَاصٌّ بِهَا ، وَهُوَ الْوُصُولُ إِلَى أَعْلَى مَرَاتِب الْمَعْرِفَة ، ويُمثل هَذَا الْوُصُول الْخَيْرُ فِي الْحَيَاةِ ، وَالَّذِي يُجْلَب لِلْإِنْسَان كُلُّ مَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ لَهُ ، وَقَدْ ذَكَرَ أَفْلَاطُون أَنّ حَيَاة الْفَرْد تُصْبِح سَيِّئَة عِنْدَمَا يَحْرُم نَفْسِهِ مِنْ التَّفْكِير بِشَأْن خُطَطِه فِي

الْحَيَاةِ بعقلانية وَمَن منطلقٍ مَنْطِقِي ؛ الْأَمْرُ الَّذِي يُوقِعُهُ فِي الأَخْطَاء الَّتِي تَوَجَّه حَيَاتِه لعواقب غَيْرَ مَحْمُودَةٍ .

أَرِسْطُو : عرّف أَرِسْطُو الْحَيَاةِ عَلَى أَنَّهَا ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي يُميز بَيْن الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ ، وَالْكَائِنَات غَيْر الْحَيَّة ، وَاعْتَبر أنّ الْحَيَاةُ الَّتِي تُمَيزُ كُلٌّ مَا هُوَ حَيٌّ تَمْنَحُه الْقُدْرَةِ عَلَى احْتِمَالِ والصمود فِي .

وَجْه الاضْطِرَابَات والتشويشات الَّتِي يَتَعَرَّضْ لَهَا ، سواءً أَكَانَت خَارِجِيَّة الْمَصْدَر أَم دَاخِلِيَّة ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ ، اُعْتُبِر أَرِسْطُو أنّ الْحَيَاةُ هِيَ تَغْيِيرُ تَخْضَع لَهُ ذَاتُ الْإِنْسَانِ بشكلٍ مُسْتَمِرٌّ .

ديكارت : يَشْتَرِك الْفَيْلَسُوف الفَرَنْسِيّ رِينِيه ديكارت (بالفرنسية : René Descartes) مَع الْفَلَاسِفَة الْقُدَمَاءِ فِي تَصَوُّرِه حَوْل الْحَيَاة وَعَلَاقَتُهَا بِالْفَلْسَفَة ؛ حَيْث اتَّفَق مَعَهُم أنّ مِنْ الْغَايَاتِ الأَسَاسِيَّة للفلسفة تَحْقِيق حَيَاة سَعِيدَة وفُضلى لِلنَّاس ، وَاعْتَبَر ديكارت كَذَلِك أنّ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَ لِلْحَيَاة يَتَحَقَّقُ إِذَا اِتَّسَم الْفَرْد بِالْقُدْرَة الْجَيِدَة عَلَى التَّخْطِيط والتنظيم ، وِسَاد هَذِهِ الْحَيَاةَ الهُدوء الْعَقْلِيّ ، وَرَاحَة الْبَال .

لُوك : تَطَرَّق الْفَيْلَسُوف الإنجليزي جَوْن لُوك لِلْحَدِيث عَنْ الْحَيَاةِ فِي مَعْرِض حَدِيثِه عَنْ الْمُسَاوَاة وَالْحُقُوق الطَّبِيعِيَّة لِلْبَشَر ؛ حَيْثُ قَالَ إنّه مَا مِنْ أحدٍ يَمْلِكُ حَقَّ أَذِيَّة فردٍ آخَرَ فِي ممتلكاتِه ، وصحتِه ، وَحُرِيَّتُه ، وَحَيَاتِه ، وأنّ الْحَيَاة ، وَالْحُرِيَّة ، وَالْمِلْكِيَة هِي حُقُوق طَبِيعِيَّةٌ وَهَبَهَا اللهُ لِجَمِيعِ الْأَفْرَادِ بتساوٍ ، وَهِيَ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّصَرُّف فِيهَا أَوْ التَّنازُل عَنْهَا .

هَيُوم : مِنْ وَجْهِهِ نَظَرِ الْفَيْلَسُوف الاسكتلندي دِيفِيد هَيُوم تُعْتَبَر الْمَشَاعِر والأحاسيس الشَّيْءُ الَّذِي يسيطر عَلَى حَيَاةِ الْفَرْد ، وَلَيْس العقلانية ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَرَى أَنّ الْعَقْلُ هُوَ بِمَثَابَةِ "عبد"للعاطفة ، وأنّ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ تَدْفَعُه الْمَشَاعِر أَكْثَرَ مِنْ الدوافع والتصورات العقلانية .

كانط : فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنْ الْحَيَاةِ ، تَطَرَّق الْفَيْلَسُوف الألماني إِيمانُويل كانط فِي أَحَدِ جَوَانِب حَدِيثِه عَنْهَا عَنْ عَلَاقَتُهَا بِالسَّعَادَة؛ حَيْثُ اُعْتُبِرَ أَنّ كُلَ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةَ محددٌ وَمَحْدُودٌ ، وأنّ الْإِنْسَان بِسَبَبِ هَذَا لَا يَقْدِرُ أَنْ يُحَقَقَ جَمِيع المعايير الَّتِي يُحَدَدُهَا لِتَحَقُّق سَعَادَتُه فِي الْحَيَاةِ ، وارتأى أنّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْعَى فِي حَيَاتِهِ لِالْتِزَام الْأَخْلَاق ، لأنّ هَذَا مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي تَقْبَلُ الْحَيَاة تَحَقُّقَهَا خِلَالِهَا .

نيتشه : مِن مَنْظُورٌ الْفَيْلَسُوف الألماني فريدريك نيتشه فَإِن لِلْحَيَاة مَعْنَى ، وَهُو الْعَيْش بتصميم وَقُوَة ، وَقِيَام الْفَرْد بِوَضْع الْقَيَم وَتَحْدِيد الأَهْدَاف لِنَفْسِه ، إِلَى جَانِب ذَلِكَ ، يَرَى نيتشه أَنّه لَيْس مفروضًا عَلَى الْإِنْسَانِ عَيْش حَيَاتِه بناءً عَلَى مَا يَضَعُه الْمُجْتَمِع مِنْ قَوَاعِدِ تَفْتَقِرُ إِلَى المرونة ، وَاعْتَبَر أَنّ الْإِنْسَان كائنٌ يمتلك الْقُدْرَةِ عَلَى تَقْرِيرِ مَصِيرَه بِنَفْسِه ، كَمَا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْإِتْيَانِ بِكُلَ مَا يُرْشِدُهُ فِي حَيَاتِهِ ويشجعه عَلَى عَيْشِهَا ، مِن أفكارٍ ، وأهدافٍ ، وَمَبَادِئ . [١٢][١٣]

الْحَيَاة عِنْد رَاسَل : فِي حَدِيثِهِ عَنْ الْحَيَاةِ ، اُعْتُبِر الْفَيْلَسُوف البْريطانِيّ بيرتراند رَاسَل أَنّ الْحَيَاةِ لَا بدّ أَنْ تكُونَ حياةً جَيِدَة لِيَتَحَقَّق مَعْنَاهَا الْحَقِيقِيَ ، وَالْحَيَاة الْجَيِدَة هِيَ الَّتِي يَمْلَؤُهَا الْحَبّ تُجَاه الْآخَرِين ، وَالْمَعْرِفَة بِخُصُوص كُلَ شَيْءٍ .

الهَدَف الْحَقِيقِيِّ مِنْ الْحَيَاةِ

لَقَدْ وَجَدْنَا هَذَا التَّخَبُّط الْكَبِيرِ فِي تَنَاوُلِ مَعْنَى الْحَيَاةِ فِي الْفَلْسَفَةِ الْغَرْبِيَّة مُنْذ أَرِسْطُو ليومنا هَذَا وَكَذَاك فالحياة الَّتِي يعيشها الْإِنْسَان الْيَوْم مُعَقَّدَة وَصَعْبَة بِالرَّغْمِ مِنْ كُلَ الوَسَائِلِ وَالْخَدَمَات وَالإِمْكَانات الَّتِي وفرتها لَه التكنلوجيا هَذِهِ الْأَيَّام وَذَلِك لِسَبَب بَسِيطٌ وَهُوَ حَيَّرْته فِي فَهْم مَعْنَى حَيَاتِه وَوُجُودُه لِذَلِك يَقَعُ فِي شبائك الْإِلْحَاد وَالْكُفْر وَالْعَيْش العبثي فَالْمَوْضُوع لَا يَتَعَلَّقُ بِتَجْرِبَة شَخْصِيَّةٌ مِن يَتَوَفَّق فِي تَحْقِيقِهَا فَهُوَ سَعِيدٌ وفرحت لَهُ الْحَيَاةُ وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ بِالنِسْبَة للفاشلين فَالْأَمْر أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِحَيَاة أُخْرَى دَائِمَة لاموت فِيهَا وَالْمَصِير هُنَا لَن يَتَمَكَّنُ الْمَرْءُ مِنْ تَغْيِيرِهِ أَوْ فِعْلٍ أَيْ شَيْءٍ تُجَاهَه .

فَمَا هُوَ إِذْن الهَدَف الْحَقِيقِيِّ مِنْ الْحَيَاةِ ؟

يُكْثِرُ الْحَدِيثَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ عَنْ التَّخْطِيط الاستراتيجي والتشغيلي وَالشَّخْصِيّ ، وَعَن وَضَع الأَهْدَاف الاستراتيجية والأهداف المرحلية والأهداف الْعَامَّة والأهداف الْخَاصَّة ، وَفِي سَبِيلِ تَوْضِيحَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ تُعقد الدورات التدريبية وَتُقَام الْمُحَاضَرَات وتؤلف الْكُتُب وتنشر الْمَقَالَات مُوضِحَة أَهَمِيَّة الأَهْدَاف وَطُرُق صِيَاغَتِهَا ومواصفاتها .

هَذَا التَشَاطُ الْمُهْتَمّ بِصِنَاعَة الأَهْدَاف يُعد مِنْ الْأُمُورِ الْجَيِدَة والمفيدة ، وَلَكِنَّهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْحَالَاتِ لَا يُحقق الأَهْدَاف الْحَقِيقِيَّة مِنْه ، مِمَّا يَعْكِس وُجُود مُشْكِلَةٌ فِي التَّفْكِيرِ ، وَضَعَّفَ فِي إِدْرَاكِ الأَهْدَاف مِنْ وَضْعِ الأَهْدَاف ! إِنّ الْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يُعْرَفُ وَجِهَتُه فِي هَذِهِ الْحَيَاةَ وَلَيْسَ لَدَيْه أَهْدَاف يَعْمَل لتحقيقها ، يَعِيش دُونَ أَنْ يُدْرِكَ هَلْ هُوَ ضَائِعٌ أَمْ لَا ! وَلَا يُعْرَفُ الْوَقْتَ الَّذِي سَيَصِل فِيهِ إِلَى حَيْثُ لَا

يَدْرِي ! يَدُورُ فِي حَلَقَات مُفْرَغَة وَهُوَ لَا يَعِي ! يَنْتَقِلُ مِنْ حَلْقِهِ إِلَى أُخْرَى دُونَ أَنْ يَشْعُرَ ! يَعِيشُ فِي فَلَكِ الْآخَرِين ، وَيَسِير مَعَ التَّيَار ، وَحَسَبَ الظُّرُوفِ ! وَلَا يُمْكِنُ لِلْآخَرِين مُسَاعَدَتَه ، لِأَنَّهُ لَا يُعْرَفُ وَجِهَتُه ! يَقْضِي عُمْرَة منتظراً مَا سيَسفر عَنْه شُؤُون الْحَيَاة ، وَمَا ستمليه الْأَحْدَاث حَتَّى يتكيف مَعَهَا محققاً لَهَا أَهْدافَها مِنْه ، دُونَ أَنْ يُحَقق هُو أَهْدَافَه مِنْهَا ، لِأَنَّهُ بِلَا أَهْدَاف ، وَأُمُور الْحَيَاة تَملُكُه وَلَا يَمْلِكُها .

إنّ مِنْ أَهَم الْحَقَائِق الَّتِي لابَدّ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ الْعَاقِلِ عَلَى دِرَايَة تَامَّةٌ بِهَا : أنّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَم يَتْرُكْهُ عِرْضَه لِلضَّيَاع والتخبط ، يَضَع أَهْدَافَه بِنَفْسِه ، ويصوغ اتجاهاته الاجْتِمَاعِيّة والإنسانية وَالْمَالِيَّة والإدارية والسياسية دُون تَوْجِيه إِلَهِي .

هَذَا الْإِنْسَانُ رُبَّمَا يُكْمِل دِرَاسَتِه ، وَرُبَّمَا يَقْرَأ كتاباً ، أَو يحضُر مُحَاضَرَة أَو دَوْرُه تدريبية ، وَرُبَّمَا يَكْسِب مالاً وفيراً أَو قليلاً مِنْ عَمَلِهِ ، وَرُبَّمَا يُحَقق نجاحاً هُنَا أَوْ هَنَّاَك ، لكِنَه بِالتَّأْكِيد لَن يُشْعِر بمشاعر الرَّقِيّ وَالْإِنْجَاز ، وَلَن يَقْوى عَلَى لِاسْتِمْرَار فِي النجاحات العَابِرَة الَّتِي حَقَّقَهَا ، لِأَنَّهُ لَا يُعْرَفُ هَلْ مَا حَقَّقَهُ كَان هدفاً حقيقياً لَه ، أَم أَنَّه سِيق إِلَيْهِ دُونَ إِرَادَة !

هَذِه الْوَضْعِيَّة المأساوية الَّتِي يعيشها هَذَا الْإِنْسَانُ ، يُشَارِكُهُ فِي نَتَائِجهَا الكارثية إنسانٌ آخَرُ وَضَعَ لِنَفْسِهِ أهدافاً وخططاً رُبَّمَا تَكُونُ جَيِدَة ، لكِنَهُ لَم يَضَعْهَا بِنَاءً عَلَى الْوِجْهَة الْحَقِيقِيَّةُ لَه ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِطَبِيعَة الطَّرِيق الْآتِيَةِ الَّتِي يَسْلُكُها ، فَأَصْبَحت أَهْدَافَه غَيْر حَقِيقِيَّةٌ ، تَهْتَمّ بِالْمُتْعَة الْآنِيَةِ الَّتِي لَا تَتَجَاوَزُ حُدُود الْمَأْكَل وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَسْكَنِ ، وَرُبَّمَا تَصِلُ إِلَى حُدُودِ التَّفْكِيرُ فِي الْأَمْن وَالِاسْتِقْرَار ، وَفِي أَحْيَان قَلِيله تَتَجَاوَز هَذِهِ الْحُدُودِ كُلَهَا لِتَصِلَ إِلَى حدودٍ مَالِيَّةَ أَوْ إِجْتِمَاعِيَّةٌ أَو إِدَارِيَّة وَرُبَّمَا سِيَاسِيَّةٌ .

وَلَكِنَّهَا رَغِم هَذَا لَن تنتشله مِنَ الوَحْلِ ! وَلِذَلِك سَيَصِل إِلَى نَفْسِ الضَّيَاع الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ الَّذِي عَاش بِلَا أَهْدَاف ، مَعَ اخْتِلَافِ سُبُل الْوُصُولِ إِلَى هَذَا الضَّيَاع .

يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ، فَهَذَا هُوَ الهَدَف الْأَهَمّ وَالْأَسْمَى مِنْ الْحَيَاةِ . وَقَد فصّلَتْه الْآيَات تفصيلاً دقيقاً وَرُسِمَت الطَّرِيق لِتَحْقِيقِه رسماً واضحاً ، وَبَيَّنْت نَتَائِج تَحْقِيقِه بياناً تاماً . وَفِي آيَةٌ أُخْرَى يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ نَحْن أولياؤكم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسَكُم وَلَكُمْ فِيهَا مَا تدعون" [فصلت : 30] . . وَيَقُول تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف : 13] ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : 124]

إنّ الهَدَف مِنْ الْخَلْقِ هُوَ : الْعُبُودِيَّة لِلَّهِ تَعَالَى ، وَالطَّرِيق الْمُحَقَّقَة لِهَذِه الْعُبُودِيَّة هِي : الِاسْتِقَامَة ، وَالنَّتِيجَةُ هِيَ : سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ . وَتَأْتِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ ، وَرِعَايَة الِاسْتِخْلَافُ فِيهَا كَعَامِل مِن عَوَامِل تَحْقِيق السَّعَادَة للبشرية . مِنْ هُنَا نُدْرِك أنّ الْجَهْد الْبَشَرِيّ وَحْدَهُ لَيْسَ كافياً لِمَعْرِفَة كَيْفِيَّة تَحْقِيق الهَدَف النهائي ، وَلَا لِمَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ الْمُوَصَلَ إِلَى تَحْقِيقِه ، وأنّ نُصُوص الشَّرْعِ الْحَكِيم جَاءَت لترسم الطَّرِيق وَالْمَنْهَج لِتَحْقِيقِه ، ثُمَّ يَأْتِي دُورَ الْإِنْسَان لِيَضَع أَهْدَافَه المرحلية ، وخطط سَيْرِه عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقِ ، لِتَوَصُّلِه بَرَامِجه الْعَمَلِيَّة فِي نِهَايَةِ الْمَطَاف ، إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الهَدَف النهائي الْأَسْمَى .

لِذَا نَجِد أنّ الْقُرْآن يُرْبَط الْإِيمَانِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَان بِالْعَمَلِ الصَّالِح ، بِاعْتِبَارِهِمَا شَرْطَيْن لَازِمَيْن لِتَحْقِيق أَهْدَاف الْحَيَاة وسعادة الْإِنْسَان ، وبفقدهما يَكُونُ الْخُسْرَانُ ، يَقُول عزّ وجلّ : "والعصر . أَنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات" . والمتأمل فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِد أنّ التَّلَازُم بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلَ الصَّالِح قَدْ وَرَدَ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْمَوَاضِعِ . مِمَّا يُؤَكِّدُ أنّ قُوَّة الْعَمَل لِتَحْقِيق الهَدَف الْأَسْمَى وَالِاسْتِقَامَة عَلَيْه وَعُمَارَة الْأَرْض فِي ضَوْئِه تَعْتَمِدُ عَلَى قُوَّةِ أَيْمَانِ الْإِنْسَانِ، وَلَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ ! فَكُلَّمَا زَاد الْإِيمَان زَاد وُضُوح الرُّؤْيَة للهدف ، لِيَرْتَفِع بِذَلِك الرَّصِيد الْعَمَلِيّ الْمُحَقَق له... وَصَدَقَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ يَقُولُ : "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" .

والأهداف السامية تَتَّصِف بِالْكَمَال التَّامّ ، بَيْنَمَا أَهْدَاف الْإِنْسَان تَأْتِي نَاقِصَة مَهْمَا بَلَغَتْ ، لِأَنّ الْجَهْد الْإِنْسَانِيّ لَا يَصِلُ حَدَّ الْكَمَال أبداً . إِذْن فالراغب فِي إِكْمَال جَوَانِب الْقُصُور الْحَتْمِيّة فِي أَهْدَافه ، يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَصُوغ أَهْدَافه بِنَاءً عَلَى الأَهْدَاف السامية ، لِتَكُون منضوية تَحْتَهَا ، وَمُحَقِّقُه لَهَا ، فتستنير بِنُورِهَا ، وتسموا بسموّها . وَعِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَة بِالتَّحْدِيد ، يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ ثَلَاثَةٍ أنواعٍ مِنْ الْبَشَرِ : نَوْع يَسِيرٍ بِلَا أَهْدَاف وَيَنْتَهِي إِلَى الضَّيَاع ، وَيَنْدَرِجُ تَحْتَهُ أَغْلَب الْبَشَر ، وَنَوْعٌ يَسِير بأهداف آنِيَة أَرْضِيَّةٌ وَيَنْتَهِي إِلَى نَفْسِ الضَّيَاع ، وَيَنْدَرِجُ تَحْتَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَلَكِنَّهُم أَقَلَّ مِنْ النَّوْعِ الْأَوَّلُ ، وَنَوْعٌ ثالثٌ يَسِير بأهداف شَامِلَةٌ سَمَاوِيَّة وأرضية عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ ، صاغَها مستنيراً بِنُور الهَدَف الْأَسْمَى مِنْ خَلْقِهِ ، لِيَسِير فِي طَرِيقٍ وَاضِحَةٌ الْمَعَالِم تَنْتَهِي بِهِ إِلَى تَحْقِيق النَجَاح ، وَتَحْقِيق الأَهْدَاف الْحَقِيقِيَّة ، وَيُعَدّ المدرجون تَحْتَ هَذَا النَوْعِ أَقَلَّ الْقَلِيلِ مِنْ الْبَشَرِ !

حَقِيقَةِ النَّفْسِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَمَعَانِيهَا

قَبْل الْحَدِيثِ عَنْ النَفْسِ كَما هُوَ مَطْلَبُ الْبَحْثِ هُنَا ، نُشِير أولًا إلى تعريفِ النَفْسِ فِي اللُّغَةِ وَالاصْطِلَاح ، وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلنَّفْس كثيرًا مِنْ الْمَعَانِي ،ِ بَعْضَهَا لَهُ صلةٌ بِمَا أُرِيدُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الْحَدِيثُ عَنْ النَفْسِ الْإِنْسَانِيَّة الَّتِي تُكون الشَّخْصِيَّة وَتُؤَثِر فِي سُلُوكِها ، وَبَعْضُهَا الْآخَر بعيدٌ عمّا وددتُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ ، وَسَوْف أَكْتَفِي هُنَا بِذِكْرِ بَعْض هَذِهِ الْمَعَانِي تَحْتَ الْعِنْوَانِ التَّالِي :

النَّفْس بَيْن اللُّغَة وَالِاصْطِلَاح وَأَلْفَاظٌ الْقُرْآن :

بَعْض تَعْرِيفَات النَفْسِ فِي اللُّغَةِ :

أولًا : النَفْسِ بِمَعْنَى الرُّوح ، يُقَال : خَرَجَت نَفْس فُلَان ؛ أَي : رُوحَه وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : فاضَتْ نَفْسه ؛ أَي : خَرَجَتْ رُوحُهُ .

ثانيًا : النَفْسِ بِمَعْنَى "حقيقة الشَّيْءِ وَجُمْلَتُه ، يُقَال : قُتِل فلانٌ نَفْسه ؛ أَي : ذَاتِه وَجُمْلَتِه ، وَأَهْلَك نَفْسه ؛ أَي : أَوقَع الإِهلاكَ بِذَاتِه كلِها[3] ، وَمِنْهُ قَوْلُ صَاحِبِ الصَحَاح "والتكبر : هُوَ أَنْ يَرَى الْمَرْءُ نَفْسه أَكْبَرُ مِنْ غيره"؛ أَي : ذاته[4] .

ثالثًا : النَفْس بِمَعْنَى "الحسد ، وَالْعيْن ، يُقَال : أَصَابَتْه نَفْسٌ ؛ أَي : عَيْن[5] ، والنافس الْعَائِن .

رابعًا : النَفْسِ بِمَعْنَى الدَمِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إذَا فُقِد الدَّمُ مِنْ الْإِنْسَانِ فَقَد نَفْسه ؛ أَوْ لِأَنّ النَفْس تَخْرُج بِخُرُوجِه ، يُقَال : سَالَت نَفْسِه ، وَفِي الْحَدِيثِ : ((ما لَيْسَ لَهُ نَفْسٌ سَائِلَةٌ لَا يُنجس الْمَاءَ إذَا مَاتَ فيه))[6] .

خامسًا : التَفْسِ مَا يَكُونُ بِهِ التَّمْيِيزُ ، وَالْعَرَبُ قَدْ تُجْعَلُ التَفْسَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا التَّمْيِيزُ نَفْسَيْن ؛ وَذَلِكَ أَنَّ التَفْس قَد تَأْمُرُه بِالشَّيْء وتنهَى عَنْه ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْإِقْدَامِ عَلَى أَمْرٍ مَكْرُوهٍ ، فَجَعَلُوا الَّتِي تَأْمُرُه نَفْسًا ، وَجَعَلُوا الَّتِي تنهاه كَأَنَّهَا نَفْس أخرى[7] .

سادسًا : التَفْس بِمَعْنَى الأخ[8] ، وَشَاهِدُه قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾[النور : 61] .

وَجَمع التَفْس : أنفُس وَنُفُوس ، أَمَّا التَفَس ، فَهُوَ خُرُوجُ الْهَوَاء وَدُخُولِه مِنْ الْأَنْفِ وَالْفَم ، وَجَمْعُه أَنْفَاس ، وَهُو كالغِذاء للتَفْس ؛ لِأَنّ بِانْقِطَاعِه بطلانَها .

تَعْرِيف التَفْسِ فِي الِاصْطِلَاحِ : قَالَ صَاحِبُ كِتَابِ التَّعْرِيفَات : "التَفْس هِي الْجَوْهَر البخاريُّ اللَّطِيف ، الْحَامِل لِقُوَّة الْحَيَاة وَالْحِسّ وَالْحَرَكَة الْإِرَادِيَّة ، وَسَمَّاهَا الْحَكِيم : الرُّوح الْحَيَوَانِيَّة ، فَهُو جوهرٌ مُشْرِق لِلْبَدَن ، فَعِنْد الْمَوْتِ يَنْقَطِعُ ضَوْؤُه عَنْ ظَاهِرِ الْبَدَنِ وَبَاطِنُه ، وَأَمَّا فِي وَقْتِ النَوْمِ ، فَيَنْقَطِع عَنْ ظَاهِرِ الْبَدَنِ دُون باطنه" .

تعْرِيف النَّفْسِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ الْمُعَاصِرِين

ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ المعاصرون لِلتَفْس عدةَ تَعْرِيفَات ؛ مِنْهَا : أَنَّ التَفْسَ "هي جَوْهَرٌ الْإِنْسَان ، ومحرك أَوْجُه نَشَاطَه الْمُخْتَلِفَة ؛ إدراكيةً ، أَو حركية ، أَوْ فِكْرِيَّةٍ ، أَو اِنْفِعالِيَّة ، أَو أَخْلاقِيَّة ؛ سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ عَلَى مُسْتَوَى الْوَاقِع ، أَوْ عَلَى مُسْتَوَى الْفَهْم ، وَالتَفْس هِي الْجُزْءُ الْمُقَابَلُ لِلْبَدَن فِي تفاعلهما وتبادلهما التَّأْثِير

الْمُسْتَمِرّ وَالتَّأَثُّر ، مكونين معًا وحدةً مُتَمَيِّزَة نطلق عَلَيْهَا لَفْظ (شخصية) تُميز الْفَرْد عَنْ غَيْرِهِ مِنْ النَاس ، وَتُؤَدي بِهِ إِلَى تُوَافِقُه الْخَاص فِي حياته" .

مَعَانِي النَّفْسِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

وَرَدَت (النَفْس) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَة ، وتعدَّدت مَعَانِيهَا بِحَسَب سِيَاق الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ الْوَارِدَةِ فِيهَا ، وَمِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي :

أولًا : النَّفْسِ بِمَعْنَى الرُّوح ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[البقرة : 44] ؛ أَي : تَتْرُكُون ، وَيُقَال : خَرَجَت نَفْسه ، خَرَجَت رُوحه ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ النَفْسَ هِيَ الرُّوح قَوْله تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[الزمر : 42] ؛ يُرِيد الْأَرْوَاح .

وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾[الأنعام : 93] ، ذَلِكَ أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا احتُضِر بشَّرته الْمَلَائِكَة بِالْعَذَاب والنكال ، والأغلالِ وَالسَّلَاسِل ، وَالْجَحِيم والحميم ، وَغَضَب الرَّحْمَن الرحِيم ، فتتفرَّق رُوحه فِي جَسَدِه ، وتعصى وتأبى الْخُرُوج ، فَتَضْرِبهم الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَخْرُجَ أَرْوَاحَهُم مِن أَجْسَادُهُم ، قَائِلِين لَهُم : ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقَ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[الأنعام : 93] ؛ أَي : الْيَوْم تُهانون غَايَة الْإِهَانَة ، كَمَا كُنْتُمْ تكذِبون عَلَى اللَّهِ ، وتستكبرون عنِ اتَبَاعِ آيَاتِه ، وَالِانْقِيَاد لرسله .

ثانيًا : النَّفْسِ بِمَعْنَى الْإِنْسَان ؛ أَي : الشَّخْصِيَّة الْبَشَرِيَّة بِكَامِل هيئتِها ، وَهِيَ الْإِنْسَانُ بِكَامِل دَمُه وَلَحْمُه وشخصيته ، وَهَذَا كَثِيرٌ وَغَالِب فِي الْقُرْآنِ ، فمِن ذَلِك الْآيَات التَّالِيَة :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مخاطبًا النَّاسِ عَامَّةً وَبَنِي إِسْرَائِيلَ خَاصَّة ، بِأَن يُحْذَرُوا يَوْمَ الْحِسَابِ وَيَعْمَلُوا صالحًا ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَأْتِي رَبَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فردًا وَلَا تَنْفَعُهُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾[البقرة : 48] ، وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾[آل عِمْرَان : 145] .

وَقَدْ شَاعَ استعمالُ النَّفْس فِي الْإِنْسَانِ خَاصَّة ؛ حَيْثُ تَطْلُقُ وَيُرَادُ بِهَا هَذَا المركَّب وَالْجُمْلَة الْمُشْتَمِلَة عَلَى الْجِسْمِ والروح[13] ، وَيَظْهَرُ هَذَا فِي غيرِ مَا سَبَق ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى أيضًا : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾[القصص : 33] ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا الرجلُ الَّذِي قَتَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَرْضِ مِصْر

ثالثًا : النَّفْسِ بِمَعْنَى الْقُوَى الْمُفَكِّرَة فِي الْإِنْسَانِ (العقل) :

وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾[المائدة : 116] ؛ قَال الطَّاهِرِ بْنُ عَاشُورٌ فِي تَفْسِيرِهِ : "والنَّفْس تُطلَق عَلَى الْعَقْلِ وَعَلَى مَا بِهِ الْإِنْسَانُ إِنْسَانٌ ، وَهِيَ الرُّوحُ الْإِنْسَانِيّ ، وَتُطْلَقُ عَلَى الذَّات ، وَالْمَعْنَى هُنَا : تَعْلَمُ مَا اعْتَقَدَهُ ؛ أَي : تَعْلَمُ مَا أَعْلَمُهُ ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ مقرُّ الْعُلُومِ فِي الْمُتَعَارَفِ ، وَإِضَافَة النَّفْسِ إِلَى اسمِ الْجَلَالَة هُنَا بِمَعْنَى الْعِلْمِ الَّذِي لَمْ يطَّلِع عَلَيْهِ غَيْرُهُ ؛ أَي : وَلَا أَعْلَمُ مَا تَعْلَمُهُ ؛ أَي : مِمَّا انْفَرَدَت بِعَمَلِه ، وَقد حسَّنه هُنَا الْمُشَاكَلَةِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي الْكَشَّافِ .

رابعًا : النَّفْسِ بِمَعْنَى قُوى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي الْإِنْسَانِ :

النَّفْس بِمَعْنَى قُوَى الْخَيْرِ وَالشَّرَ لَهَا صِفَات وَخَصَائِص كَثِيرَةٌ ؛ مِنْهَا : الْقُدْرَة عَلَى إِدْرَاكِ الْخَيْرِ وَالشَّرَ ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا ، وَالِاسْتِعْدَاد لَهُمَا ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾

[الشمس : 7، 8] ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[البلد : 10] ؛ أَي : بيَّنا لَه الطَّرِيقَيْن ، طَرِيقِ الْخَيْرِ وَطَرِيقَ الشَّرِ ، وَهُنَاكَ إِلَى جَانِبِ الاستعدادات الفطرية الْكَامِنَة قوةٌ وَاعِيَة مُدْرِكَة مُوَجَّهَة فِي ذَاتِ الْإِنْسَانِ ، فَمَن اسْتَخْدَم هَذِهِ الْقُوَّةِ فِي الْخَيْرِ وغلَّبها عَلَى الشَّرِ ، فَقَدْ أَفْلَحَ ، ومَن أَظْلَم هَذِهِ الْقُوَّةِ وجناها وَأَضْعَفُهَا ، فَقَد خاب[15] ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : 9، 10] .

حَقِيقَةِ النَّفْسِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

بِالنَّظَرِ فِي التَّعْرِيفَاتِ السَّابِقَة نَرَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يُحدَث عَنْ النَّفْسِ ، عَلَى أَنَّهَا كائنٌ لَهُ وُجُودٌ ذَاتِيٌّ مستقلٌّ ، وَبِمَعْنَى آخَرَ فَإِنْ الْقُرْآنَ يُخَاطَب الْإِنْسَانِ فِي ذَاتِ نفسِه ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ النَّفْسَ هِيَ الْقُوَّةُ الْعَاقِلَةُ الْمُدْرَكَة فِيه ، فَيَقُول سُبْحَانَه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[الشمس : 7، 8

وَيَقُول جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[الفجر : 27 – 30] .

وَيَقُول سُبْحَانَه : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِي ﴾[يوسف : 53] .

وَيَقُول : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾[يوسف : 18] .

وَيَقُول سُبْحَانَه : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[الطلاق : 1] .

وَيَقُول سُبْحَانَه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[التحريم : 6] .

فالنَّفْس هُنَا وَفِي مَوَاضِعِ أُخْرَى كثيرةٍ مِنْ الْقُرْآنِ ، هِيَ الْإِنْسَان الْعَاقِل الْمُكَلَّف ، وَهِيَ الْإِنْسَانُ الَّذِي يُتوقَّع مِنْهُ الْخَيْرُ أَوْ الشَّرّ ، وَالْهُدَى أَوْ الضَّلَالُ ، ثُمَّ هِيَ الْإِنْسَانِ بِجَمِيعِ مشخصاته جسدًا ورُوحًا .

إذًا فَمَا النَّفْس ؟

يَقُول الدكتور عَبْدالكَرِيم الْخَطِيبُ فِي تَفْسِيرِهِ – مجيبًا عَنْ هَذَا السُّؤَالِ – : وَالْجَوَاب الَّذِي نُعْطِيه عَنْ هَذَا السُّؤَالِ مستَمَدٌّ مِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، بعيدًا عَن مَقُولَات الْفَلَاسِفَة وَغَيْر الْفَلَاسِفَة مِمَّنْ لَهُمْ حَدِيثٌ عَنْ النَّفْسِ ، وَعَلَى هَذَا نَقُولُ : يُشخَص الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ النَّفْس وَيَجْعَلُهَا الْكَائِن الَّذِي يُمثل الْإِنْسَان إمَام اللَّه ، بَل إمَام الْمُجْتَمَع أيضًا ؛ فَالْقَتْلُ الَّذِي يُصِيبُ الإِنْسَانَ هُوَ قَتَلَ لِلنَّفْس ؛ كَمَا يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[النساء : 29] ، وَيَقُول جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَاسَ جَمِيعًا ﴾[المائدة : 32] ، وَفِي مَقَامِ الْقِصَاص تُحْسَب ﴿ النَفْسَ بِالنَفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِنَّ بِالسِنَ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾.

[المائدة : 45] ، وَفِي مَقَامِ التَّنْوِيه بِالْإِنْسَان ، وَدَعْوَتُه ليلقَى الْجَزَاءِ الْحَسَنِ ، تُخاطَب النَّفْس وتُدعَى ، فَيَقُول سُبْحَانَه : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[الفجر : 27 – 30] ، وَالنَّفْس فِي الْقُرْآنِ هِي الْإِنْسَان الْمَسْؤُول المحاسَب : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾[آل عِمْرَان : 30] ، وَإِن بِالْفَهْم الَّذِي يَسْتَرِيح إِلَيْهِ العَقْلُ فِي شَأْنِ النَّفْس ، هُوَ أَنَّهَا شَيْءٌ غَيْرُ الرُّوح وَغَيْر الْعَقْل ، وَأَنَّهَا هِيَ الذَّاتُ الْإِنْسَايَّة أَوْ الْإِنْسَانَ الْمَعْنَوِيّ ، إِنْ صَحَّ هَذَا التَّعْبِير ، أَنَّهَا تتخلَّق مِنْ الْتِقَاءِ الرُّوح

بِالْجَسَد ، أَنَّهَا التركيبة الَّتِي تَخَلَّق فِي الْإِنْسَانِ ذاتيةً يعرِفُ بِهَا أَنَّهُ ذَلِكَ الإِنْسَانِ بأحاسيسه ووجدانه ومُدرَكاته ، فَالنَّفْس هِيَ ذَاتُ الْإِنْسَانِ ، أَوْ هِيَ مشخصات الْإِنْسَانِ الَّتِي تُنبِئُ عَنْ ذَاتِهِ ، وَلَا نُرِيدُ أَنْ نَذْهَب إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هَذَا ، وَحَسَبْنَا أَنَّ نُؤمِن بِأَنَّ الرُّوحَ مِن أَمَرَ اللَّهُ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْكَشْفِ عَنْها ؛ كَما يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِي ﴾[الإسراء : 85] ، وَأَنَّ النَّفْسَ جهازٌ خفيٌّ عَامِلٌ فِي الْإِنْسَانِ ، فَهِي الْإِنْسَان الْمَعْنَوِيّ ، وَلِهَذَا كَانَتْ موضعَ الْخَطَّابِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، كَما أَنَّهَا كَانَتْ مَوْضِع الْحِسَاب وَالثَّواب والعقاب[16] ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . .

آيَات تكْرِيمٌ الْإِنْسَانِ فِي الْقُرْآنِ

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : 70]

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4]

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [التين : 5]

اخْتَصّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْإِنْسَانِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ كَيْ يَكُونَ معززًا مكرمًا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَلَقَد خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْإِنْسَان مختلفًا عَنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَلَقَد خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ بِنَفْسِه وَنَفَخ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، كَما أَنَّ الْمَلَائِكَةَ سَجَدَت لِأَوَّل إِنْسَانٍ وَهُوَ آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَما أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ مِنْ هَذَا الْإِنْسَانُ هُوَ مَوْضِعُ حِكْمَتِه وَأَرْسَل لِلْبَشَر رسلًا كَي يَخْتَصُّوا بِعِبَادَتِه دونًا عَنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ، كَما وَرَدَتْ بَعْضُ آيَاتِ قُرْآنِيَّةً عَن كَرَامَة الْإِنْسَان وَلَكِن الْكَرَامَة كَما وَصْفِهَا اللَّهُ تَعَالَى مُخْتَلِفَةٌ عَن مَفَاهِيم الْبَشَر ، لِذَلِك إِلَيْك سِتّ مَوَاضِع تَوَضَّح مَفْهُوم الْكَرَامَةِ فِي الْإِسْلَامِ كَما يَأْتِي :

الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ : تكْرِيمٌ الذَّات

خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ معززًا مكرمًا وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقْنَا اللَّهُ عَلَيْهَا ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) مِنْ سُورَةِ التَّغَابُن ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْإِنْسَان دُور كَبِيرٌ فِي أَعْمَارِ الأَرْضِ وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (هُوَ أَنْشَأَكُم مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) مِنْ سُورَةِ هُودٍ ، مِمَّا سَبَقَ يَتَّضِحُ أَنَّ تَكريم الْإِنْسَانِ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ مَفْهُومٌ يَتَضَمَّن كلَ خَيْر وشَرَف وَفَضِيلَةٌ حَصَّلَ عَلَيْهَا الْإِنْسَان .

الْمَوْضِعُ الثَّانِي : الْإِيجَاد

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ مِنْ أَوْجَد الْإِنْسَانِ مِنْ بَعْدِ عَدَمٍ ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) مِنْ سُورَةِ الْإِنْسَان ، أَيْ إِنْ الْإِنْسَانَ أَوْجَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تُرَابٍ ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَلامٍ : لَمْ يَكُنْ شيئًا مذكورًا فِي الخَلْق ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ شيئًا مذكورًا .

الْمَوْضِعُ الثَّالِثُ : الْفِطْرَةِ الَّتِي خَلَقْنَا اللَّهُ عَلَيْهَا .

خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ مفطورًا عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ عَلَى غَيْرِ فِطْرَةِ اللَّهِ فَلَقَدْ تَبَدَّل عَنْ الْفِطْرَةِ الَّتِي فِطْرِهَا اللَّه عَلَيْه ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِينُ الْقَيِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) مِنْ سُورَةِ الرُّومِ ، وَالْمَعْنَى مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ خُلِقَ جَمِيعِ الْبَشَرِ عَلَى نَفْسِ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَة ، وَأَنَّ النَّاسَ جَمِيعِهِمْ مُتَسَاوُونَ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، وَإِن أَيْ تَغَيَّرَ فِي الْإِنْسَانِ فَهُوَ مِنْ نَفْسِهِ .

الْمَوْضِعُ الرَّابِعُ : إِعْمَارُ الأَرْضِ

أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الْمَخْلُوقُ الْوَحِيد الْمُكَلَّف بإعمار الْأَرْض وَهَذِه السمَة تَعْكِس أَعْلَى مَظَاهِر التَّكْرِيم الْإِلَهِيّ الَّذِي كَرَّمَهُ اللَّهُ لَنَا نَحْن مَعْشَر الْبَشَر ، فَنَحْن مُكَلَّفُون بإعمار هَذِهِ الْأَرْضَ حَتَّى نَعْبُدَ اللَّهَ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ

الْمَوْضِعُ الْخَامِسُ : نِعْمَة الْعَقْل

إِنَّ أَهَمَّ مَا يُمَيِزُ الْإِنْسَانُ عَنْ بَاقِي الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ هُوَ امْتِلَاكِه الْعَقْل ، عَقْل هُوَ الْمَرْجِعُ الْأَوَّلَ وَالْأَخِيرَ لِلْإِنْسَان ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَي فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) .

الْمَوْضِعُ السَّادِسُ : إِيدَاعٌ مَفَاتِيح الْمَعْرِفَة وَالْإِدْرَاك فِي الْإِنْسَانِ

خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ هُوَ الْكَائِن الْوَحِيد الَّذِي لَدَيْه مَفَاتِيح الْعِلْم وَالْمَعْرِفَةِ ، كَمَا أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ اسْتِيعَاب وَتَعَلُّم واكتشاف الْعُلُوم الْمُخْتَلِفَة ، وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مَا يَأْتِي : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ) ، (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى) ، (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) ، (مَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) .

مَا الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ لِلْإِنْسَان الْوَارِدَة فى الْقُرْآن الكريم ؟

1- صِفَةُ الضَّعْف

(ضَعَفَ) الضَّادُ وَالْعَيْنُ وَالْفَاءُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى خِلَافِ الْقُوَّةِ وَهُو الضَّعْفُ وَالضُّعْفُ ، يُقَالُ : ضَعُفَ يَضْعُفُ ، وَرَجُلٌ ضَعِيفٌ ، وَقَوْمٌ ضُعَفَاءُ وَضِعَافٌ ، وَيَدُلُّ الْآخَرُ عَلَى أَنْ يُزَادَ الشَّيْءُ مِثْلَهُ يقال : ضْعَفْتُ الشَّيْءَ إِضْعَافًا ، وَضَعَّفْتُهُ تَضْعِيفًا ، وَضَاعَفْتُهُ مُضَاعَفَةً ، (الفارابى ، 1407ه) ، (ابن فَارِس ، 1406ه) ، (ابن فَارِس ، 1399ه) (الرازى ، 1420ه) ، (ابن مَنْظُورٌ ، 1414ه) وَالْمَعْنَى اللغوى الْمَقْصُود فى وَصْفِ الْإِنْسَانِ بِالضَّعْف ؛ أى أَنَّه ليس قوياً .

وَقَدْ وَرَدَ فى الْقُرْآن وَصْفِ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ ضعيف ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ سُورَةِ النَسَاءِ : آية 28 .

قَال الطبرى (1420ه) فى مَعْنَى الآية : "أى خُلِقتم ضُعَفَاء عجزةً عَن ترك جِمَاعُ النَسَاءِ ، قليلى الصَّبْر عنه" .

وَجَاءَ عِنْدَ القرطبى (1384ه) فى مَعْنَى الضَّعْف أيضاً : أَنَّ هَوَاهُ يَسْتَمِيلُهُ وَشَهْوَتُهُ وَغَضَبُهُ يَسْتَخِفَّانِهِ ، وَهَذَا أَشَدُّ الضَّعْفِ فَاحْتَاجَ إِلَى التَّخْفِيفِ ، وَهُو يشبه كلام الطبرى ، بينما يرى ابْن عَاشُورٌ (1384ه) أَنَّ الْمَعْنَى السعدى (1420ه) وذكر بِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالضَّعْف هُنَا ضَعْفٌ الْإِنْسَانِ مِنْ جميع الْوُجُوه ، كضعف البنية ، وَضَعَّف الْإِرَادَة ، وَضَعَّف العزيمة ، وَضَعَّف الإيمان ، وَضَعَّف الصَّبْر .

ويرى أَبُو زُهْرَة (د . ت) أَنَّ الضَّعْفَ مُلَازِمٌ لِلْإِنْسَان عِنْدَمَا خَلَقَهُ اللَّهُ ، وَإِن الضَّعْف يشمل الْبَدَن و النَّفْس ، ولذلك كانت كل التكليفات يسهل تعويد النَّفْس عليها لمراعاتها ذلك الضَّعْف عِنْدَه ، ، فأبيح لَهُ مِنْ الشَّهَوَاتِ مَا لَا يجعله عَبْدًا لشهوته ، بَل سيدا عليها ، وَإِن أَبْرَز مَظَاهِر الضَّعْف فيه إِنَّمَا يكون أَمَامِ النِّسَاءِ ، لِذَا أبيح لَه الزَّوَاج بمثنى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ بِشَرْط الْعَدْل بينهن .

ويرى الهلالى (د . ت) أَنَّ هَذَا الضَّعْفُ الْمُتَعَدَد الْجَوَانِب مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يجعل الْإِنْسَان دَوْمًا بِحَاجَةٍ إِلَى مَصْدَرٌ لِلْقُوَّة يلجأ إليه ليحتمى بِه ويدفع عَنْه كل مَا يثير مَخَاوِفه ويعكر صَفْوَة ، وَلَو تخيلنا أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلق قويا أَقْوَى مِنْ كل شئ فى الْأَرْض ، هَل تظنه سيلجأ يوما إِلَى رَبَهِ يطلب مِنْهُ العَوْنَ والمدد ؟ ! وَلِمَاذَا يفعل ذلك وَهُو يرى قُوَّته تَحَقُّقَ لَهُ مَا يريد : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى ﴾ سُورَة الْعَلَق : آية 6، 7 .

وَأَمَّا عَنْ كيفية تزكية الْإِنْسَانِ مِنْ ذلك الضَّعْف وَخَاصَّةٌ إِمَام الشَّهْوَة الْمُحَرَّمَة ففى الآتى :

أ- أَنَّ الْإِنْسَانَ بِضَعْفِه إِمَامِه خياران : أَمَّا الميل بِضَعْفِه لِلشَّهْوَة الْمُحَرَّمَة فتهلكه ، وَأَمَّا الميل لِلشَّهْوَة الْمُبَاحَة فيسعد وينجح ، وَالْحِلّ فى رأى ابْن تيمية (1407ه) أَنَّهُ لَا بُد لَهُ مِن شَهْوَة مُبَاحَة تغنيه عَن الْمُحرمَة ، وَاسْتَدَلّ عليه بحديث "فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِى نَفْسِهِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَاسْتَنْبَطَ مِنْهُ ابْنُ قيم الجوزية (1429ه) الْإِرْشَادُ إِلَى التَّسَلَى عَنِ الْمَطْلُوبِ بِجِنْسِهِ ، والْأَمْرُ بِمُدَاوَاةِ الْإِعْجَابِ بِالْمَرْأَةِ الْمُوَرَثِ لِشَهْوَتِهَا بِأَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ ، وَهُوَ قَضَاءُ وَطَرِهِ مِنْ أَهْلِهِ ، وَذَلِكَ يَنْقُضُ شَهْوَتَهُ لَهَا ، ثُمَّ نَبَّهَ ابْنُ القيم (د . ت) أَن هَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِى أَشَارَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ عَقِيبَ إِحْلَالِ النِّسَاءِ حَرَائِرِهِنَّ وَإِمَائِهِنَّ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِقَوْلِهِ : "يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً "سُورَة

النِّسَاءِ : آية 28، فذِكْرُ تَخْفِيفِهِ فِى هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَإِخْبَارِهِ بِضَعْفِ الْإِنْسَانِ عَنِ احْتِمَالِ هَذِهِ الشَّهْوَةِ ، وَأَنَّ اللَّه خَفَّفَ عَنْهُ أَمْرَ الشَّهْوَةِ بِمَا أَبَاحَهُ لَهُ مِنْ أَطَايِبِ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، وَأَبَاحَ لَهُ مَا شَاءَ مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ ، ثُمَّ أَبَاحَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِالْإِمَاءِ إِنِ احْتَاجَ إِلَى ذَلِكَ عِلَاجًا لِهَذِهِ الشَّهْوَةِ ، وَتَخْفِيفًا عَنْ هَذَا الْخَلْقِ الضَّعِيفِ ، وَرَحْمَةً بِه .

ويعتقد البَاحِث أَنَّ الْمَرْأَةَ كالرجل فى ذلك تَمَامًا ؛ غير أَنَّهُ مِنْ حَقِّهَا الْخُلْع – فى مُقَابِل زَوَاج الرَّجُل بأكثر مِنْ زَوْجَةٍ – لَوْ لَمْ يحصل لَهَا الْعِفَّة مِنْ زَوْجِهَا لأى سَبَبٍ مِنْهُ ، وَالزَّوَاج بغيره مِمَّن يتحقق مَعَه الْعَفَاف .

ب– الميل إِلَى الشَّهْوَة عَامٌّ فِى طَبْعِ جَمِيعِ بَنِى آدَمَ ، فَالْوَاجِبُ عَلَى مَنْ أُبْتُلِىَ بالميل لِلشَّهْوَة الْمُحَرَّمَة مُجَاهَدَة نَفْسَهُ ؛ كما أَشَارَ إِلَى ذلك ذكر ابْن تيمية (1416هـ) مُعَلِّلًا ذلك بِأَن اللَّهَ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ، ومِنْ التَّقْوَى أَنْ يَعِفَّ عَنْ كُلِّ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ مِنْ نَظَرٍ بِعَيْنٍ وَمِنْ لَفْظٍ بِلِسَانٍ وَمِنْ حَرَكَةٍ بِيَدٍ وَرِجْلٍ .

ت– جَاء الْمَنْهَج التربوى الإسلامى بواقعيته ، لتقوية الْإِرَادَة ثُمّ تربيتها لِلتَّغَلُّبِ عَلَى ذلك الضَّعْف أَمام الرَّغَبَات وَالشَّهَوَات قَبْلُ وَبَعْدُ السُّقُوط فى الْحَرَام ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا ابْنُ الجوزى (1425هـ) فَقَال فى التنفير مِنْ الزَنى : "إنه يفسد الْفُرُش ، ويغير الْأَنْسَاب ، وَهُو بالجارة أقبح"، وَقَال أيضاً : "فكم يتعلق بِالزَنى مِنْ مِحَنٍ لَا يفى مِعْشَارِ عُشْرِهَا بِلَذَّة لَحْظَة ، مِنْهَا هتك الْعَرْض بين النَّاس وكشف الْعَوْرَات المحرّمة ، وخيانة الْأَخ الْمُسْلِم فى زَوْجَتِهِ إِنْ كانت مُتَزَوِّجَةٌ ، وفضيحة المزنى بِهَا وهى كأخت لَهُ أَوْ بِنْتُ ، فَإِن عَلِقَتْ مِنْهُ وَلَهَا زَوْجٌ أَلْحَقَتْه بذلك الزَّوْج ، وكان هَذَا الزانى سببًا فى ميراث مَنْ لَا يستحق وَمَنَعَ مِنْ يستحق ، ثُمّ يتسلسل ذلك مِنْ وَلَدٍ إِلَى وَلَدٍ ، وَأَمَّا سَخَط الْحَقّ سُبْحَانَهُ فمعلوم"، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : آية 32، ثُمّ بيّن– رَحِمَهُ اللَّهُ – أَنَّ سَبَبَ انْغِمَاس العاصى فى المعاصى ، وَعَدَم إِحْسَاسِه بِهَا ، هُو شَهَوَاتِه التى تَحْجُب عَنْهُ مَا فيها مِن عيوب ونقائص ، فَإِذَا انْجَلَتْ هَذِه الْغِشَاوَة رَأَى الشَّهَوَاتِ عَلَى حقيقتها ، فوجّهها بِمَا يرضى اللَّهُ تَعَالَى . (عطار 1419هـ)

ث – التَّوْبَة الصَّادِقَة النَصُوح ، التى تقوى الْإِرَادَة الخيرة ، وتقمع النَفْس الْمَحَبَّة لِلشَّهَوَات ، وَتُطَهِّرُ الْقَلْبَ وَالْجَوَارِحِ مِنْ الْآثَام ، فتندفع النَفْس لمرضاة اللَّهُ تَعَالَى ، وَالتَّقَرُّب مِنْه بِالطَّاعَات .

وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ فى تزكية الْإِنْسَانِ مِنْ صِفَةِ الضَّعْف عِنْدَه تتلخص فى أمرين : الْأَوَّل : التخلية : بِأَن يدرك عَوَاقِب إِقْدَامَهُ عَلَى الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَة وَضَرَرُهَا عليه فى الدنيا وَالْآخِرَة فيبتعد عَنْهَا ويحذرها ، والثانى : التحلية : بِأَن يستعف عَنْ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَة بِالشَّهَوَات الْمُبَاحَةِ مِنْ خِلَالِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الزَّوَاجِ

2– اليأس وَالْقُنُوط .

اليأْسُ : بِمَعْنَى القنوطُ . وَقَد يَئِسَ مِن الشئ ييأس ، وفيه لُغَةٌ أُخْرَى : يَئِسَ يَيْئِسُ بالكسر فيهما ، وَهُوَ شَاذٌّ . وَرَجُلٌ يؤوس . (الفارابى ، 1407ه) ، (ابْنُ فَارِسٍ ، 1406ه)

والقُنوطُ : بِمَعْنَى اليأسُ . وَقَد قَنَطَ يقنط قُنُوطا مِثْل جَلَس يجلس جُلُوسًا . (الفارابى ، 1407ه) ، (ابْنُ فَارِسٍ ، 1406ه)

يستحق ، ثُمّ يتسلسل ذلك مِنْ وَلَدٍ إِلَى وَلَدٍ ، وَأَمَّا سَخَط الْحَقَ سُبْحَانَهُ فمعلوم"، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : آية 32، ثُمّ بيّن– رَحِمَهُ اللَّهُ – أَنَّ سَبَبَ

انْغِمَاس العاصى فى المعاصى ، وَعَدَم إِحْسَاسِه بِهَا ، هُو شَهَوَاتِه التى تَحْجُب عَنْهُ مَا فيها مِن عيوب ونقائص ، فَإِذَا انْجَلَتْ هَذِه الْغِشَاوَة رَأَى الشَّهَوَاتِ عَلَى حقيقتها ، فوجّهها بِمَا يرضى اللَّهُ تَعَالَى .

(عطار 1419هـ)

ث – التَّوْبَة الصَّادِقَة التَصُوح ، التى تقوى الْإِرَادَة الخيرة ، وتقمع التَفْس الْمَحَبَّة لِلشَّهَوَات ، وَتُطَهِّرُ الْقَلْبَ وَالْجَوَارِحِ مِنْ الْآثَام ، فتندفع التَفْس لمرضاة اللَّهُ تَعَالَى ، وَالتَّقَرُّب مِنْه بِالطَّاعَات .

وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ فى تزكية الْإِنْسَانِ مِنْ صِفَةِ الضَّعْف عِنْدَه تتلخص فى أمرين : الْأَوَّل : التخلية : بِأَن يدرك عَوَاقِب إِقْدَامَهُ عَلَى الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَة وَضَرَرُهَا عليه فى الدنيا وَالْآخِرَة فيبتعد عَنْهَا ويحذرها ، والثانى : التحلية : بِأَن يستعف عَنْ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَة بِالشَّهَوَات الْمُبَاحَةِ مِنْ خِلَالِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الزَّوَاجِ

2– اليأس وَالْقُنُوط .

اليأْسُ : بِمَعْنَى القنوطُ . وَقَد يَئِسَ مِن الشئ ييأس ، وفيه لُغَةٌ أُخْرَى : يَئِسَ يِيْئِسُ بالكسر فيهما ، وَهُوَ شَاذٌّ . وَرَجُلٌ يؤوس . (الفارابى ، 1407ه) ، (ابْنُ فَارِسٍ ، 1406ه)

والقُنوطُ : بِمَعْنَى اليأسُ . وَقَد قَنَطَ يقنط قُنُوطا مِثْل جَلَس يجلس جُلُوسًا . (الفارابى ، 1407ه) ، (ابْنُ فَارِسٍ ، 1406ه)

وَأَمَّا الْفرق بَين الْيَأْس وَالْقُنُوط : فَإِن الْقُنُوط أَشد مُبَالغَة مِن الْيَأْس ، وَالرَّجَاء واليأس نقيضان يتعاقبان . (العسكرى ، د . ت) ، وقيل اليأس : انْقِطَاع الطَّمَع مِن الشئ ، وَالْقُنُوط : أَخَصُّ مِنْهُ ، فَهُوَ أَشَدُّ اليأس . (العسكرى ، 1412ه)

وفى الِاصْطِلَاح : عَرَفَة الأصفهانى (1412ه) بِأَنَّه "انْتِفَاء الطَّمَع "، وَعَرَّفَهُ ابْنُ الجوزى (1404ه) بِأَنَّه : "الْقطع عَلَى أَن الْمَطْلُوب لَا يتَحَصَّل لتحقيق فَوَاته"، وَقَال المناوى (1410ه) : هُو "الْقَطْعُ بِأَنَّ الشئ لَا يكون ، وَهُوَ ضِدُّ الرجاء"، وَجَمَع الخالدى وَآخَرُون (2016م) بين التعاريف السَّابِقَة فَقَال : "اليأس هُوَ انْتِفَاءُ الطَّمَع فى أَمْرٍ مَّا لِتَحَقُّق فَوَاته ، وَالْقَطْع بِأَنَّه غير ممكن الْحُصُول "، وَهَذَا جَمْعٌ جيد .

وَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ اليأس وَالْقُنُوط ؛ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ سُورَة فَصَلَّت : آية 49 .

وَالْمَعْنَى : أى أَنَّ الْإِنْسَانَ ذُو يأس مِنْ رَوْحِ اللَّهُ وَفَرْجه ، قُنُوط مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَمِنْ أَنَّ يكشف ذلک الشرّ النَازِلَ بِهِ عَنْهُ . (الطبرى ، 1420ه)

وذكر الرازى (1420ه) – حَوْل مَعْنَى هَذَا الْوَصْفُ وعلاقته بنقيضه – أَنَّه فى حَال الْإِقْبَال ومجئ الْمُرَادَات لَا ينتهى فى الطَّلَب للزيادة وَالطَّمَع ، ولكن فى حَال الْإِدْبَار وَالْحِرْمَان يصير آيساً قانطاً ، فَالِانْتِقَال مِن ذلک الرَّجَاء الذى لَا آخِرَ لَهُ إِلَى هَذَا اليأس الكلى يدل عَلَى كونه متبدل الصَفَة متغير الْحَال ، و وَصْفِ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ "يَؤُسٌ قَنُوطٌ"؛ مُبَالَغَةٌ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا : مِنْ طَرِيقِ بِنَاءِ فَعُولٍ وَالثَّانِى : مِنْ طَرِيقِ التَّكْرِيرِ .

وَأَشَارَ ابْنُ حيان (1420ه) إِلَى أَنْ الْيَأْسُ مِنْ صِفَةِ الْقَلْبِ ، وَهُوَ أَنْ يَقْطَعَ رَجَاءَهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَالْقُنُوطُ : أَنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ آثَارُ الْيَأْسِ فَيَتَضَاءَلُ وَيَنْكَسِرُ ، وَأنه بَدَأَ بِصِيغَةِ الْقَلْبِ لِأَنَّهَا هِىَ الْمُؤَثِرَةُ أولاً فِيمَا يَظْهَرُ عَلَى صُورَة الْوَجْه مِنَ الِانْكِسَارِ .

واليأس فى الْأَصْلِ نَوْعَانِ : مَذْمُومٌ وَمَحْمُودٌ ؛ فَالْمَذْمُوم مِنْهُ بِأَنْ يقطع الرَّجَاءُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهُ وَفَرْجه ، وَهُو الذى وَرَد النهى عَنْه فى الْقُرْآن صَرَاحَة ، لِأَنَّه يفيد سُوءُ الظَّنَ بِاَللَّهِ ، وَأَمَّا الْمَمْدُوح مِنْهُ فَهُوَ أَنْ يقطع الرَّجَاء بِمَا فى أيدى النَاس ، وَلَم يذكر فى الْقُرْآن بِصُورَة مُبَاشَرَة لكنه كما يشير إليه الخالدى وَآخَرُون (2016م) مَوْجُودٌ فى ثنايا كتب الْأَخْلَاق وَالزُّهْد .

ويرى الخالدى وَآخَرُون (2016م) أَن هناك تَلَازُم قوى بين الكفر و اليأس ، وَهَذَا يؤكد خُطُورِه اليأس عَلَى الْإِنْسَانِ وَأَنَّهُ لَا يجتمع مَع الإيمان إطلاقاً ، بَلْ إِنْ الْقُنُوط واليأس ليس مِنْ شَأْنِ الْمُسْلِم مَهْمَا عَظْم كربه وَاشْتَدّ خُطْبَة ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ سُورَة يوسف : آية 87، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ سُورَة الْحَجَر : آية 56، فليس اليأس– إذن– إِلَّا خديعة مِن الشيطان يريد بِهَا قَطَعَ صِلَة الْعَبْد بِرَبَه ورجائه فيه ، يقول المنفلوطى فى هَذَا الْمَعْنَى : "اليأس هُو الخديعة الكبرى التى يدسها الشيطان دَائِمًا فى نُفُوس الْأُمَم الضعيفة التى يريد الفتك بِهَا وَالْقَضَاء عليها" . (سحنون ، 1992م)

وَلَا شك بِأَنَ مَعْرِفَة أَسْبَاب اليأس مِنْ رَحْمَةِ اللَّهُ تَعَالَى كفيلة بِمَعْرِفَة الطريق لتزكية الْإِنْسَانُ مِنْهَا ، فَمَن أَهَمّ أَسْبَابه الآتى (الحماد ، 2010م) :

أ– إِسْرَافٌ الْعَبْدِ عَلَى نَفْسِهِ فى المعاصى ، وَالْإِفْرَاط فيها ، والاستكثار مِنْهَا ، ففى قَوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ بِسَبَبِ إسرافهم فى المعاصى ، وَعَدَم التَّحَرُّز مِنْهَا ، سيستولى عليهم الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهُ .

ب- الْجَهْل بِسَعَة رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَهَذَا هُوَ صريح قَوْل النبى صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّم : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَرْسَلَ فِى خَلْقِهِ كُلِهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً ، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلَ الَّذِى عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلَ الَّذِى عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَارِ » رَوَاه البخارى : (حديث رُقم 6469) .

ج- الْجَهْل بِالْأَسْبَاب الْجَالِبَة لِرَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَمَن أَغْفَل مَعْرِفَة ذلک ، وَلَم يحرص عَلَى تَعَلُّمِهِ وَالْبَحْثِ عَنْهُ ؛ اسْتَوْلَى عليه الْقُنُوط .

وَقَدْ جَاءَتْ العقيدة الإسلامية بِعِلَاج شَامِلٌ وواف لِمِثْلِ هَذِهِ الانحرافات العقدية والسلوكية ، وبيّنت الْوَاجِبِ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يتبعه فى حياته عقيدة وَعُبَادَة وسلوكًا ، وحذرته مِنْ الْإِفْرَاطِ والتفريط ، وَالْغُلُوّ والتقصير ، فَمِمَّا يعالج بِه الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يلى : (الحماد ، 2010م)

أ- الْإِقْلَاعُ عَنْ المعصية ، وَالْمُبَادَرَة فى التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَالْإِسْرَاع إليها ، وَعَدَم التسويف فيها .

ب- حُسن الظَّنّ بِاَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَد حثّ النبى صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّم ، عَلَى حُسْنِ الظَّنّ بِاَللَّهِ حيث قَال : « لَا يَمُوتَنَّ أحدكم إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ (حديث رُقم 2877) .

وَمَعْنَى حُسْنِ الظَّنّ بِاَللَّهِ تَعَالَى : أى يظن إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يرحمه ، ويرجو ذلک ، ويتدبر الآيات والأحاديث الْوَارِدَة فى كرم اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

ج- التَنَظُرُ إِلَى سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَغْفِرَتُه ، وعظيم فَضْلِه وَبْرَة ، وكريم جُودِه وَإِحْسَانِه .

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ اليأس شُعُور نفسى سلبى يتسلل لِلنَّفْس بِسَبّ التَّصَوُّرَات الْخَاطِئَة النَّاشِئَةِ عَنْ الْجَهْلِ ، والهزيمة إمَام الْعَدُوّ الأزلى وَهُو الشيطان مِنْ خِلَالِ الْوُقُوع فى حَبَائِل مكره وغوايته ، وَأَنَّهُ لَا سبيل لِلتَّخَلُّصِ مِنْ اليأس إلَّا بِالِاسْتِعَانَة بِاَللَّه أَوَّلًا ، ثُمَّ الْعِلْمُ الذى يدفع بِه اليأس كالعلم بِسَعَة رَحِمَهُ اللَّهُ وَعَفْوِهِ

3- **الْجُحُود لِنِعَمِ اللَّهِ .**

الْجُحُود فى اللُّغَة : ضدُّ الْإِقْرَار وَهُو الإنكار مَعَ الْعِلْمِ ، يقال : جَحَدَهُ حقّه وبحقّه ، جَحْداً وَجُحُودًا ، والْجَحدُ : مِن الضيَق والشُحَ ، ورجُلٌ جَحْدٌ : قليلُ الخير . (الفراهيدى ، د . ت) ، (الجوهرى ، 1407هـ)

ويرى الكفوى (د . ت) بِأَن الْجُحُود فِى عَامَّة كتب اللُّغَة يعنى إنْكَار الْعلم .

وَقَدْ دَلَّ عَلَى وَصْفِ الْإِنْسَانِ بِهَذِهِ الصَفَةِ قَوْله تَعَالَى : "وَكَانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً "سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : آية 67 وَالْمَعْنَى : وكان الْإِنْسَان ذَا جَحَد لِنعَم رَبّه . (الطبرى ، 1420هـ) ، ويذكر ابْن كثير (1419هـ) أَن سَجِيَّتُه الْجُحُود ، فَيَنْسَى النَعَمَ وَيَجْحَدُهَا ، إلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ ، بينما يرى ابْن عَاشُورٌ (1984م) بِأَن كَثْرَةُ كُفْرَانِ الْإِنْسَانِ هِىَ تَكَرُرُ إعْرَاضِهِ عَنِ الشُّكْرِ فِى مَوْضِعِ الشُّكْرِ ضَلَالًا أَوْ سَهْوًا أَوْ غَفْلَةً لِإِسْنَادِهِ النَعَمَ إِلَى أَسْبَابِهَا الْمُقَارِنَةِ دُونَ مُنْعِمِهَا وَلِفَرْضِهِ مُنْعِمِينَ وَهْمِيَينَ لَا حَظَّ لَهُمْ فِى الْإِنْعَامِ ، وَإِنْ ذِكْرُ فِعْلِ (كَانَ) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْكُفْرَانَ مُسْتَقِرٌ فِى جِبلَّةِ هَذَا الْإِنْسَانِ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَلَّمَا يَشْعُرُ بِمَا وَرَاءَ عَالَمِ الْحِسَ فَإِنَّ الْحَوَاسَّ تَشْغَلُهُ بِمُدْرِكَاتِهَا عَنْ التَّفَكُّرِ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِى الْمُسْتَقِرَّةِ فِى الْحَافِظَةِ وَالْمُسْتَنْبَطَةِ بِالْفِكْرِ .

ويلاحظ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الْجُحُود عِنْدَ الْإِنْسَانِ فى وَصْفُ الْقُرْآنُ لَهُ لَا يلزم أَن يكون إنكاره الْعِلْم بِالْمُنْعِم ؛ بَل بنسيانه وَعَدَم شكره لِلْمُنْعَم جَلَّ وَعَلَا ، وَهَذَا لَا يكاد يسلم مِنْهُ أَحَدٌ .

وَمَن الصُّوَر المتكررة لِهَذِه الصَفَة الْمَذْمُومَة فى وَاقِعْنَا الْمَعَاصِر ؛ مَا يرى مِنْ بَعْضِهِمْ نَسَبَه نِعْمَةُ الْعِلْمِ وَالْحُصُولِ عَلَى الشَّهَادَات العالية إِلَى جَدَهِ وَاجْتِهَادُهُ وذكائه ، أَوْ نَسَبَهُ نِعْمَة صَلَاح الْأَوْلَادِ إِلَى حُسْنِ تربية الوالدين لَهُم ، أَوْ نَسَبَهُ نِعْمَة الصَحَّة فى الْبَدَنِ إِلَى مُمَارَسَةِ الرياضة وَالْغِذَاء الصحى ، وَنَحْوِهَا مِنْ صِفَاتِ تتكرر فى الْمَشْهَد الاجتماعى .

وَهَذَا الذكاء وَحُسْن التربية والرياضة وَنَحْوِهَا مُجَرَّد أَسْبَاب قَد تعطى نتيجة حَسَّنَهُ وَقَدْ لَا تَنْفَعُ أَلْبَتَّة ، فالمنعم الحقيقى هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وَمِنْ آثَارِ هَذِهِ الصَفَةِ الْمَذْمُومَة : قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِى لَشَدِيدٌ "سُورَة ابراهيم : آية 7، فَجَحَد النَعَم سَبَبٌ لَز والها ، كما أَن الشكر سَبَبٌ لِبَقَائِهَا وزيادتها .

وَإِنْ أَهَمَّ سُبُل التزكية مِن الْجُحُود لِنِعَمِ اللَّهِ يكون مِنْ خِلَالِ مَا يأتى :

أ- الْإِقْرَار وَالِاعْتِرَاف بِالْمُنْعِم جَلَّ وَعَلَا ، وَنَسَبَه النَعَم كلها لَه ، ودليل ذلك إِنَّ اللَّهَ عَاقَب قَارُون عَلَى نِسْبَتُهُ نِعْمَةِ الْمَالِ لغير الْمُنْعِم جَلَّ وَعَلَا ، وَأَنَّه أوتى الْمَال – كما يزعم – عَلَى عِلْمٍ عِنْدَهُ .

ب- دَوَام الشكر وَالْحَمْد لِلْمُنْعَم جَلَّ وَعَلَا قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا ، فالشكر يكون بِاللِسَان بِقَوْل الْحَمْدُ لِلَّهِ والشكر لِلَّه وَنَحْو ذلك ، وَبِالْقَلْب بِأَن يعتقد أَن الْمُنْعِم هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَأَنَّه الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ ،

وبالجوارح بِأَن يستخدم هَذِهِ النعَمَ فيما يعينه عَلَى الخير وَطَاعَةُ اللَّهِ ، فَلَا يستخدمها فى معصية اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَدْ دَلَّ عليه الآية السَّابِقَة فى سُورَة إبراهيم .

4- كثرة الظُّلْم لِلنَّفْس .

أَصْلُ (الظُّلْمِ) فى اللُّغَة : وَضْعُ الشَّيْءِ فِى غَيْرِ مَوْضِعِهِ . الرازى (1420هـ) ، (الدينورى ، 1397ه)

وفى الِاصْطِلَاح : عِبَارَةٌ عَنْ التعدى عَنْ الْحَقَ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَهُو الْجَوْر ، وقيل : هُوَ التَّصَرُّفُ فى ملك الغير وَمُجَاوَزَةُ الْحَدَ . (الجرجانى ، 1403ه)

ويقصد بِهِ هُنَا : تعدى الْإِنْسَان وجوره عَلَى نَفْسِهِ بِفِعْلِ مَا يخالف أَمَرَ اللَّهُ ويعرضه لِلْعُقُوبَة .

ويدل عَلَى هَذَا الْوَصْفُ قَوْله تَعَالَى : "وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً"سُورَةِ الْأَحْزَاب : آية 72، أى ظلوماً لِنَفْسِه . (الطبرى ، 1420ه)

وَعَلَّلَ ابْنُ عَاشُورٌ (1984هـ) وَصْفِ الْإِنْسَانِ بالظلوم ؛ بِسَبَب تقصيره عَنْ عَمْدٍ فِى الْوَفَاءِ بِحَقَ مَا تَحَمَّلَهُ مِنْ أَمَانَة ، و رَجَّحَ أَنَّ الظُّلْمَ فى الآية خَاصٌّ بِظُلْم الْعَبْدَ لِنَفْسِهِ .

وَظَلَم النَّفْس نَوْعَان هُمَا : ظَلَم النَّفْس بالشرك الذى لَا يغفره اللَّهُ إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ عليه قَبْلَ التَّوْبَةِ مِنْهُ ، وَظُلْمِهَا بالمعاصى غير الشرك إِذَا لَمْ يتب مِنْهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ غَفَرَ لَهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ بِقَدْر معصيته ثُمّ يخرجه مِنْ النَّارِ ويدخله الْجَنَّة . (القحطانى د . ت)

لكن لَفْظ "ظُلْمُ النَّفْسِ " : إِذَا أُطْلِقَ فيعنى جَمِيعِ الذُّنُوبِ ، وَأَمَّا لَفْظُ "الظُّلْمِ الْمُطْلَقِ "فَيَدْخُلُ فِيهِ الْكُفْرُ وَسَائِرُ الذُّنُوبِ . (ابن تيمية ، 1416هـ)

أَنَّ مَعْرِفَةَ آثَار الظُّلْم وعواقبه فى الدنيا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَعْظَمِ المعينات عَلَى تزكية الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ مِنْ تلك الصِّفَة الْمَذْمُومَة ، فَمَن أَهَمّ آثَار ظَلَم التَفْس :

أ- عَدَم الْفَلَاح فى الدنيا وَالْآخِرَة : قَالَ تَعَالَى : " أَنَّهُ لَا يفلح الظالمون" . سُورَةِ الْأَنْعَامِ : آية 135 .

ب- حِرْمَان الهداية والتوفيق ، قَالَ تَعَالَى : "إِن اللَّهِ لَا يهدى الْقَوْم الظالمين" . سُورَةِ الْمَائِدَةِ : آية 51 .

ج- سَبَبٌ لمصائب الدنيا مِن أَوْجَاع وأسقام وَفَقْر وَذَهَاب الْأَوْلَاد وَالْأَمْوَال وَالْقَتْل والتعذيب ، قَالَ تَعَالَى : "وإن للذين ظَلَمُوا عذاباً دُون ذلك ولكن أكثرهم لَا يعلمون" . سُورَةِ الطُّورِ : آية 47 .

د- حِرْمَان مَتَّع الدنيا ، فَمَا ضَاعَت نِعْمَة صَاحِب الجنتين إِلَّا بِظُلْمِه "ودخل جَنَّتَه وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنَّ تبيد هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَة قَائِمَةٌ وَلَئِن رَدَدْت إِلَى ربى لأجدن خيرا مِنْهُمَا مُنْقَلَبًا " . سُورَة الكهف : آية 35 .

ه- أَنَّهُ سَبَبٌ لإهلاك الْأُمَم ، فكلما كثر الْفَسَاد فى الْأَرْض نَزَل الهلاك وَالْعِقَاب الأليم ، قَالَ سُبْحَانَهُ : "وكم قَصَمْنَا مِنْ قرية كانت ظَالِمه وأنشأنا بَعْدَهَا قَوْمًا آخرين"سُورَة الأنبياء : آية 11 .

و- أَنَّه يصيب صَاحِبه التَدَم وَالْحَسْرَةِ يوم القيامة : فكل ظَالِم سيندم هناك ، وَلَات سَاعَة مَنْدَم ، قَالَ تَعَالَى : "ولو أَن لكل نَفْس ظَلَمْت مَا فى الْأَرْض لافتدت بِه وَأَسَرُوا التَدَامَة لَمَا رَأَوْا الْعَذَابَ وقضى بينهم بِالْقِسْط وَهُمْ لَا يظلمون" . سُورَة يونس : آية 54 .

وَأَمَّا سُبُل التزكية مَنْ ظَلَمَ التَفْس ؛ فَمَن خِلَال الآتى :

أ- الْإِقْلَاعُ عَنْ المعاصى وكثرة التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ فى كل وَقْت وحين ، وَقَدْ جَاءَ الْأَمْرُ بِالِاسْتِغْفَارِ فى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَى الدَّوَامِ ، فَقَالَ تَعَالَى : "والذين إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذكروا اللَّه . فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يغفر الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يصروا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يعلمون "سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : آية 135 .

وقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ ، فَإِنِّى أَتُوبُ ، فِى الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ ، مَرَّةٍ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، حديث رُقِم 2702 .

ب- مُجَاهَدَةِ التَفْسِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَاجْتِنَابُ معصيته ، قَالَ تَعَالَى : "وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى التَفْسَ عَنِ الْهَوى "سُورَةِ التَازِعَاتِ آية 40 .

ج- اسْتِشْعَار عَاقِبَة ظَلَم التَفْس بِالذُّنُوب أَو بالتقصير فى الْوَاجِبَات ، سَوَاءٌ فى الدنيا أَو يوم القيامة .

د- اسْتِشْعَار ثَوَاب مُجَاهَدَةِ التَفْسِ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وترك المنكرات .

5- صِفَةُ الْجَدَل وَالْخُصُومَة .

وَالْجَدَل فى اللُّغَة : اللَّدَد فى الْخُصُومَة وَالْقُدْرَة عليها ، وَهُو أيضا شِدَّةُ الْخُصُومَةِ وَمُقَابِلُه الْحِجَّة بِالْحُجَّة ، يقال رَجُلٌ جَدَل : إِذَا كان أَقْوى فى الْخِصَام ، أَمَّا الْمُجَادَلَة : فتعنى الْمُنَاظَرَة وَالْمُخَاصَمَة . (ابْن مَنْظُورٌ ، 1414ه) ، (الهروى ، 2001م)

وَالْجَدَل فى الِاصْطِلَاح : الْمُفَاوَضَةُ عَلَى سبيل الْمُنَازَعَة والمغالبة . (الأصفهانى ، 1420ه)

وَقَال الجرجانى (1403ه) : "هو دَفَع الْمَرْء خَصْمِه عَنْ إفْسَادِ قَوْلُه بِحَجَّةٍ أَوْ شُبْهَةٍ ، أَو يقصد بِه تصحيح كلامه " .

وفى الحديث : "مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ "رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ وَحَسَّنَهُ الالبانى .

وَالْمَعْنَى : الْجَدَل عَلَى الْبَاطِلِ وَطَلَب الْمُغَالَبَة بِه ، لَا إِظْهَارِ الْحَقّ ، كما أَشَارَ إِلَى ذلك الجوينى (1399ه) فى تفريقه بين الْجِدَال الْمَحْمُودُ وَالْمَذْمُومُ ، وَإِن الْمَذْمُوم مِنْهُ مَا يكون لِدَفْع الْحَقّ أَوْ تحقيق الْعِنَاد ، أَو ليلبس الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، أَو للمماراة وَطَلَب الْجَاه ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : "مَا ضَرَبُوهُ لك إِلَّا جدلاً "الزُّخْرُف : آية 58، وَأَمَّا الْمَمْدُوح مِنْهُ فَهُوَ الذى يظهر الْحَقّ ، ويكشف عَنْ الْبَاطِلِ ، ويهدف إِلَى الْإِقْنَاع بِالرُّجُوعِ عَنْ الْبَاطِلِ ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : "وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ"سُورَةِ النَّحْلِ : آية 125 .

وَقَدْ جَاءَ وَصْفِ الْإِنْسَانِ فى الْقُرْآن بِأَنَّه أكثر شئ مُرَاء وَخُصُومُه ، فهو–كما أَشَار الطبرانى (1420ه) – لَا ينيب لِحَقٍّ وَلَا ينزجر لموعظة فَقَالَ تَعَالَى : "وَكَانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا"الكهف : آية 54، ويؤكد ابْن عَاشُورٌ (1984م) أَن فى كل إِنْسَانٌ طُبِع الْحِرْصُ عَلَى إِقْنَاعٌ الْمُخَالِف بأحقية مُعْتَقَدِه أَوْ عَمَلِه لكن الْجَدَل مِن حيث الْأَصْلِ صِفَةٌ قبيحة ، خَاصَّةً إِذَا لَمْ يكن يهدف إِلَى الْوُصُولِ لِلْحَقّ ، فَالْمُؤْمِن لَا يكون مجادلا ، بَل مستسلما لِلْحَقّ لَا يجادل فيه . (ابن عثيمين ، 1423ه)

وَمِنْ آثَارِ الْمُجَادَلَة بِالْبَاطِل تعريض النَفْس لِسَخَطِ اللَّهِ ، ففى الحديث : "وَمَنْ خَاصَمَ فى بَاطِلٍ وَهُوَ يعلمه لَم يزل فى سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى ينزع "رَوَاه أبوداود وَصَحَّحه الألبانى .

وَمِنْ آثَارِ ترك الْجِدَال الْمَذْمُوم ، قَوْل النبى صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّم : "أَنَا زعيم بيت فى رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ ترك الْمِرَاءَ وَإِنْ كان محقاً "رَوَاه أبوداود وَحَسَّنَه الألبانى .

وَقَد ذكر الخريف (1435ه) و المنجد (1430ه) أَهَمّ الْآثَار السيئة للجدال الْمَذْمُوم والتى مِنْهَا مَا يأتى

أ- حِرْمَان الخير العظيم ، فَقَدْ قَالَ الأوزاعى : "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شراً أَلْزَمَهُم الْجَدَل وَمَنَعَهُم العمل" .

ب- أَنَّه يقود صَاحِبَهُ إِلَى الكذب أَو الزَّلَل ، قَالَ مُسْلِمٌ بْنُ اليسار : "إياكم وَالْمِرَاء فَإِنَّه سَاعَة جَهل الْعَالِم وَبِهَا يبتغى الشيطان زَلَّتَه " .

ت- أَنَّه يدعو إِلَى التشفى مِن الآخرين .

ث- أَنَّهُ رُبَّمَا يؤدى إِلَى تكفير أَو تفسيق الآخرين .

ج- أَنَّه يورث الشَقَاق وَالْعَدَاوَة والضغائن وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ ، قَال الشافعى رَحِمَهُ اللَّهُ : "الْمِرَاء فى الدين يقسى الْقَلْب ويورث الضَّغَائِن " .

ح- أَنَّه يؤدى إِلَى رَدَ الْحَقُّ وإنكاره .

خ- أَنَّ أَقَلَّ مَا يقال عَنْهُ أَنَّهُ مِنْ فُضُولِ الكلام الذى يعاب عَلَى صَاحِبِهِ الِانْشِغَال بِه .

وَهَذِهِ الْآثَارُ السيئة تكفى الْعَاقِل للابتعاد عَنْ صِفَةِ الْجَدَل .

وَمَن أَهَمّ سُبُل تزكية الْإِنْسَانِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ الْمَذْمُومَة مَا يأتى :

أ- مَعْرِفَة أَنَّ الْجِدَالَ مِنْهُ مَا هُوَ مَذْمُومٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مَحْمُودٌ ، فيترك الْمَذْمُوم ويأتى الْمَحْمُود مِنْه بضوابطه وَشُرُوطُه .

ب- أَن يجادل الْإِنْسَان لِإِظْهَار الْحَقّ وَإِبْطَال الْبَاطِل ولكن وَفْق ضَوَابِط وَشُرُوط مِنْهَا : أَن يكون بالتى هى أَحْسَن ، وَإِن يكون الْمُخَالِف يرِيد الْوُصُول لِلْحَقّ وليس مُجَرَّد الْجِدَال ، وَإِن يكون الْمُجَادِل لديه مِنْ الْعِلْم مَا يحصل بِهِ إِظْهَارُ الْحَقّ ، وَالْأَدِلَّة عَلَى تلك الشُّرُوطِ مِنْ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ كثيرة ليس هَذَا مجالها .

ت- أَن يدرك الْإِنْسَان الْآثَار الوخيمة للجدال الْمَذْمُومُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى حَاضِرٌ أَمَرَه وَمُسْتَقْبَلُه .

ث- إدراك الْإِنْسَان لِلثِّمَار التى يجنيها مِنْ خِلَالِ تركه للجدال الْمَذْمُوم ، سَوَاءٌ كانت دنيوية أَو أخروية ، وَأَنَّه مُثَابٌ عَلَى تركه الْجَدَل الْمَذْمُوم .

6-**الْعَجَلَة** .

الْعَجَلَةُ فى اللُّغَة : ضِدُّ الْبُطْءِ والتأنى ، أَو هى السُّرْعَةُ (الرازى ، 1420ه) (ابن مَنْظُورٌ ، 1414هـ) .

وفى الِاصْطِلَاح : هى فَعَل الشَىْءِ قبلَ أَوانِهِ . (الزَّبيدى ، د . ت)

وهى صِفَةٌ مَذْمُومَةً فِى عامَّةِ الْقُرْآنِ ، حَتَّى قيلَ : أَن العَجَلَةُ مِنَ الشَيْطَانِ (الحدادى ، 1410ه) .

وَقَدْ دَلَّ عَلَى تلك الصِّفَة قَوْله تَعَالَى : "خُلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجِلٍ" . سُورَة الأنبياء : آية 37 .

وَالْمَعْنَى كما ذكر القرطبى (1384ه) : أَىْ رُكِبَ عَلَى الْعَجَلَةِ فَخُلِقَ عَجُولًا ، أَىْ طَبْعُ الْإِنْسَانِ الْعَجَلَةُ ، فَيَسْتَعْجِلُ كَثِيرًا مِنَ الْأَشْيَاءِ وَإِنْ كَانَتْ مُضِرَّةً ، وَنَظِيرُهُ قَوْله تَعَالَى : "وَكَانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا" . سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : آية 11

قَالَ أَبو إِسحاق : "خُوطِبَ الْعَرَبُ بِمَا تَعْقِل ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلَّذِى يُكْثِر الشئَ : خُلِقْتَ مِنْهُ ، كَما تَقُولُ : خُلِقْتَ مِنْ لعِبٍ إِذا بُولغ فِى وَصْفِهِ باللَّعِب . وخُلِقَ فُلَانٌ مِنَ الكَيْس إِذا بُولغ فِى صِفَتِهِ بالكَيْس" . (ابن مَنْظُورٌ ، 1414هـ)

وأكد الماتريدى (1426هـ) عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ عُجُولًا فَلَا يصبر عَلَى حَالِهِ وَاحِدَةٍ ؛ وَإِن كانت الْحَالَةِ حَالَةِ نِعْمَة وَرَخَاءٌ حَتَّى يمل عَنْهَا ويسأم ويريد التَّحَوُّلُ إِلَى حَالَةٍ هى دُون تلك الْحَالَة ويرضى بشئ دُون .

وَالْعَجَلَةُ مِنْ الصَفَاتِ التى يحبها الشيطان ؛ لِأَنَّهَا تُوقِعُ الْإِنْسَان فى كثير مِن الأَخْطَاء ، كما إِنَّ التَّخَلُّقَ بالتأنى وترك الْعَجَلَة مِمَّا يحبه اللَّه ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّم لِأَشَجَ عَبْدِ القيس : (إن فيك لخصلتين يحبهما اللَّه ؛ الْحِلْم والأناة) رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، رُقِم الحديث(17، 18) .

وهناك أَنْوَاعٍ مِنْ الْعَجَلَةِ مَحْمُودَةٌ ، كما قَالَ حَاتِمٌ : « كَانَ يُقَالُ الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا فِى خَمْسٍ , إِطْعَامُ الطَّعَامِ إِذَا حَضَرَ الضَّيْفُ ، وَتَجْهِيزُ الْمَيِّتِ إِذَا مَاتَ , وَتَزْوِيجُ الْبِكْرِ إِذَا أَدْرَكَتْ , وَقَضَاءُ الدَّيْنِ إِذَا وَجَبَ , وَالتَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا أَذْنَبَ » . (الأصبهانى ، 1394ه)

أَنَّ اتَصَافَ الْإِنْسَان بِالْعَجَلَة الْمَذْمُومَة ستقوده إِلَى المهالك ، بَلْ وَ النَدَم .

وَعَلَّلَ ابْنُ القيم (د . ت) كون الْعَجَلَةُ مِنْ الشَّيْطَان ؛ لِأَنَّهَا خفَّة وطيش وَحْدَه فِى العَبْد تَمنعهُ مِن التَّثَبُّت وَالْوَقار وَالْحِلْم ، وَتُوجب لَهُ وَضع الْأَشْيَاء فِى غير موَاضعهَا ، وَتَجلّب عَلَيْهِ أَنْوَاعًا مِنْ الشُّرُور ، وَتَمْنَعُه أَنْوَاعًا مِنْ الْخَيْر ، وَهِى قرين النَّدَامَة فَقل مَنْ اسْتَعْجَلَ إِلَّا نَدم .

فتبين مِن كلام ابْن القيم السَّابِق تلك الْآثَار السيئة للعجلة ، وهى آثار تَنْفِرُ مِنْهَا الطَّبَاع السليمة .

وَأَمَّا عَنْ كيفية تزكية النَّفْس مِنْ الْعَجَلَةِ ، فيرى الماتريدى (1426ه) أَن ذلك يكون مِنْ خِلَالِ رياضة نَفْسِهِ حَتَّى يصير صبورًا متأنياً ، فبالرياضة لِلنَّفْس يتحول عَنْ الْحَالَة التى خَلَق عليها وهى الْعَجَلَةِ إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى هى التأنى وَالصَّبْر ، فيعتاد الأَنَاة ويدع الْعَجَلَة .

ويقصد برياضة النَّفْس هُنَا : ترويضها ومجاهدتها لتزكو وتترك مَا يحول دُون الكمال الإنسانى .

وَهَذَا مَا يؤكد الحسينى(1990م) الذى يرى بِأَن الْعَجَلَة مِنْ غَرَائِزِ الْإِنْسَانِ الْقَابِلَةِ لِلتَّأْدِيبِ وَالتَّثْقِيفِ ، حَتَّى لَا تَطْغَى بِهِ فَتُورِدَهُ الْمَوَارِدَ ، لكنه عَلَّل اسْتِعْجَالُهُ بِالْخَيْرِ وَالْحَسَنَةِ بِسَبَبِ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى مَنَافِعِهِ وَقِلَّةِ صَبْرِهِ عَنْهَا ، وَعَلَّل اسْتِعْجَالُهُ بِالضُّرِ وَالسَّيِّئَةِ بِسَبَبِ عَارِضٍ كَالْغَضَبِ وَالْجَهْلِ وَالْعِنَادِ .

وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّعْجِيزِ ، لِلنَّجَاةِ مِمَّا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ ، كَما يَفْعَلُ الْيَائِسُونَ مِنَ الْحَيَاةِ ، أَوِ النَّجَاةِ مِنْ ذُلٍّ وَخِزْيٍ أَوْ أَلَمٍ لَا يُطَاقُ ، حيث يَتَقَحَّمُونَ الْمَهَالِكَ أَوْ يلجأون إِلَى الانتحار .

وَقَد وجّه الْخَالِق تلك الْفِطْرَة العجولة لَدَى الْإِنْسَانِ إِلَى مَعْنَى يتوافق مَعَهَا ، لكنه جَالِب لِلْبرّ والخير ، وَهُوَ الْمُسَارَعَةُ إِلَى الخيرات ، ثُمَّ إِنَّ الْحِلْمَ هِىَ الصِّفَةُ الْمُعْتَدِلَةُ التى تَمْنَعُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْعَجَلَةِ .

7- الْبُخْل .

وَهُو عِنْدَ الْعَرَبِ : مَنْعُ السَّائِلِ مِمَّا يَفْضُلُ عِنْدَهُ . (الفيومى ، د . ت)

وفى الشَّرْع : مَنْعُ الْوَاجِبِ ، (الحدادى ، 1410ه) وقيل : إمساك المقتنيات عَمَّا لَا يحل حَبَسَهَا عَنْه وَضِدُّه الْجُود . (الحدادى ، 1410ه)

لكن الغزالى (د . ت) يرى أَنَّ مَنْ أَدَّى وَاجِبَ الشَّرْعِ وَوَاجِبَ الْمُرُوءَةِ اللَّائِقَةِ بِهِ فَقَدْ زكى نَفْسه مِنَ الْبُخْلِ .

إمَّا وَاجِبُ الشَّرْعِ فَمَعْلُومٌ بالزكاة خَاصَّة وَالصَّدَقَة وَالْبَذْل عَامَّة ، إمَّا وَاجِبُ الْمُرُوءَةِ فيرى البَاحِث أَنَّهُ بِحَسَبِ الْعُرْفِ الاجتماعى الذى يتغير بتغير الزَّمَان والمكان .

والدليل عَلَى هَذِهِ الصِفَةِ قَوْله تَعَالَى : "وَكَانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً " . سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : آية 100، وَالْمَعْنَى : وَكَانَ الْإِنْسَانُ بَخِيلًا مُمْسِكًا . (الطبرى ، 1422ه)

وَمِنْ آثَارِ الْبُخْل مَا يراه ابْن تيمية (1399ه) مِن كونه مِنْ أَمْرَاضِ النُفُوس ؛ إن أَطَاعَه أَوْجَب لَهُ الْأَلَم ، وَإِن عَصَاهُ تَأَلَّم كأمراض الْجِسْم .

وَمَعْنَى كلامه أَنَّ الْبُخْلَ وَالْجُودِ كليهما يشعر بِالْأَلَم مَعَ الْفَارِقِ فى النتيجة .

فَالْبُخْل مِنْ أَشَدَ الْأَمْرَاض النفسية فتكاً بِصَاحِبه وبالمجتمع ، وَمَنْشَأُه مِنْ عَدَمِ التصديق بِوَعْدِ اللَّهِ ، وإيثار التَفْسِ عَلَى غيرها مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَالِاسْتِهَانَة بِسُوء السُّمْعَة بين النَّاس . (السباعى ، 1418ه)

كما أَنَّهُ مِنْ مَسَاوِي الْأَخْلَاق ، وَمَن المخلات بالدين وَالْمُرُوءَة ، وَهُوَ مِمَّا يجلب الشَّقَاء لِصَاحِبه فى الدنيا وَالْآخِرَة ، فالبخيل بعيد مِنْ اللَّهِ ، بعيد مِنْ النَّاسِ ، بعيد مِنْ الْجَنَّةِ ، قريب مِنْ النَّارِ ، والبخيل

ضيق الصَّدْر ، صغير النَّفْس ، قليل الْفَرَح ، كثير الْهَمّ وَالْغَمّ ، لَا يكاد يقضى لَهُ حَاجَةٌ ، وَلَا يعان عَلَى مَطْلُوبٍ . (الحمد ، د . ت)

ويعلل الماتريدى (1426ه) كون الْإِنْسَان جَبَل وَفِطْر عَلَى الْبُخْل ؛ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ يمتحنه اللَّه بذلك فيرى مِنْه مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى الْجُود والكرم أَوْ الْبَقَاءَ عَلَى الْبُخْل والتقتير .

وَأَمَّا مَا يتعلق بتزكية الْإِنْسَانِ مِنْ الْبُخْلِ فَمَن خِلَال مَا يأتى :

أ- ترويض النَّفْس ومجاهدتها عَلَى الْجُود واعتيادها عَلَى ذلك وَالِاسْتِعَانَة بِاَللَّهِ عَلَى تحقيق ذلك ، دَلّ عليه قَوْله تَعَالَى : "وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ" . سُورَة التَّغَابُن : آية 16

يقول الغزالى (د . ت) حَوْلَ هَذَا الْمَعْنَى : "إِنَّمَا تَزُولُ صِفَةُ الْبُخْلِ بِأَنْ تَتَعَوَّدَ بَذْلَ الْمَالِ ، فَحُبُّ الشَّيْءِ لَا يَنْقَطِعُ إِلَّا بِقَهْرِ النَّفْسِ عَلَى مُفَارَقَتِهِ حَتَّى يصير ذلك اعتياداً ، فالزكاة بِهَذَا الْمَعْنَى طُهْرَةٌ أَيْ تُطَهِّرُ صَاحِبَهَا عَنْ خَبَثِ الْبُخْلِ الْمُهْلِكِ وَإِنَّمَا طَهَارَتُهُ بِقَدْرِ بَذْلِهِ وَبِقَدْرِ فَرَحِهِ بِإِخْرَاجِهِ وَاسْتِبْشَارِهِ بِصَرْفِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى" .

وَقد ذكر السعدى (1420ه) أَنَّ الشُّحَّ المجبول عليه أكثر النُّفُوس آفَةٌ تَمْنَعُ مِنْ النَّفَقَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا ، فنفوسهم تَشِحّ بِالْمَالِ ، وَتُحِبّ وُجُودِه ، وتكره خُرُوجِهِ مِنْ اليد غاية الكراهة ، لكن مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ شُحَّ نَفْسِهِ بِأَنْ سَمَحَتْ نَفْسُهُ بِالْإِنْفَاق النَافِع لَهَا ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ لِأَنَّهُم أدركوا الْمَطْلُوب ، وَنَجَوْا مِنْ المرهوب .

وَهَذَا الكلام يفهم مِنْهُ أَنَّ تزكية النَّفْس مِنْ الْبُخْلِ يكون بِدُعَاء اللَّهُ أَنْ يقيك الشُّحّ ، وَإِن تدرك حقيقة الْأُمُور وَإِنْ اللَّهَ لَا يأمرك إِلَّا لينفعك ، وَلَا ينهاك إِلَّا ليدفع عنك الضَّرَر ، فَمَا يعين الْإِنْسَانِ عَلَى الْبُعْدِ عَنْ الْبُخْلِ فيفلح وينجح مِثْل الدُّعَاء وَالْمُجَاهَدَة لِلنَّفْس تَقَرُّبًا لِلَّه .

ب- أَنَّ الْمَرْءَ وَإِن جَبَلٍ عَلَى حُبَ مَا يتلذذ بِه ، وَبُغْضَ مَا يتألم ويتوجع مِنْه ، فَقَد جَبَل أيضا عَلَى ترك مَا هُوَ فيه مِنْ اللَّذَّةِ ؛ لِلَّذَّة هى أَعْظَمُ مِنْهَا ، وَعَلَى التَّصَبُّر لِاحْتِمَال الْأَذَى والمكروه ؛ ليتخلص عَمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذلك المكروه وَالْأَلَم ، وَإِذَا كان كذلك فَهُوَ إِذَا قَابِل نعيم الدنيا بنعيم الْآخِرَة ، وَأَقْرَب اللذتين بأبعدهما ، فَرَأَى لَذَّة الْآخِرَة أَعْظَم وَأَبْقَى ، فَخَفّ عليه ترك أَقْرَبُهُمَا لأبعدهما وَأَقَلَهمَا لأكثرهما ، وَإِذَا قَابَلَ مكروه الدنيا بمكروه الْآخِرَة ، وَعَذَابِهَا بِعَذَاب الْآخِرَة ، فَرَأَى عَذَاب الْآخِرَة أَشَدُّ وَأَبْقَى ، خُفّ عليه تَحْمِل المكاره فى الدنيا .

ج- مِمَّا يعالج بِه الْبُخْل الِاشْتِغَال بِضِدَهِ وَهُوَ الكرم وَالْجُود ، ويذكر القاسمى (1415هـ) أَنَّ سَبَبُ الْبُخْلَ حُبُّ الْمَال ، وَلِحُبَ الْمَال سَبَبَان : أَحَدُهُمَا : حُبُّ الشَّهَوَاتِ الَّتِى لَا وُصُولَ إِلَيْهَا إِلَّا بِالْمَال مَعَ طُول الْأَمَل ، والثَّانِى : أَنْ يُحِبَّ عَيْنَ الْمَال وَيَلْتَذَّ بِوُجُودِهِ وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ زَائِدٌ عَنْ حَاجَاتِهِ بَقِيَّةَ عُمُرِهِ ، و وَيرى أَنَّ عِلَاجَ كُلَ عِلَّةٍ بِمُضَادَّةِ سَبَبِهَا ، فَيُعَالَجُ حُبُّ الشَّهَوَاتِ بِالْقَنَاعَةِ بِالْيَسِيرِ وَبِالصَّبْرِ ، وَيُعَالَجُ طُولُ الْأَمَلِ بِكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَالتَّنَظِرِ فِى مَوْتِ الْأَقْرَانِ وَطُولِ تَعَبِهِمْ فِى جَمْعِ الْمَالِ وَضَيَاعِهِ بَعْدَهُمْ ، وَيُعَالَجُ الْتِفَاتُ الْقَلْبِ إِلَى الْوَلَدِ بِأَنَّ خَالِقَهُ خَلَقَ مَعَهُ رِزْقَهُ ، وَكَمْ مِنْ وَلَدٍ لَمْ يَرِثْ مِنْ أَبِيهِ مَالًا ، وَحَالُهُ أَحْسَنُ مِمَّنْ وَرِثَ ، وَبِأَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَجْمَعُ الْمَالَ لِوَلَدِهِ يُرِيدُ أَنْ يَتْرُكَ وَلَدَهُ بِخَيْرٍ وَيَنْقَلِبُ إِلَى شَرَ ، وَيُعَالَجُ قَلْبُهُ أَيْضًا بِكَثْرَةِ التَّأَمُّلِ فِى الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِى ذَمَ الْبُخْلِ وَمَدْحِ السَّخَاءِ وَمَا تَوَعَّدَ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْبُخْلِ مِنَ الْعِقَابِ الْعَظِيمِ .

د- وَمِنَ الْأَدْوِيَةِ النَّافِعَةِ لِلْبُخْل : كَثْرَةُ التَّأَمُّلِ فِى أَحْوَالِ الْبُخَلَاءِ وَنَفْرَةُ الطَّبْعِ عَنْهُمْ وَاسْتِقْبَاحُهُمْ لَهُ ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ بَخِيلٍ إِلَّا وَيَسْتَقْبِحُ الْبُخْلَ مِنْ غَيْرِهِ ، وَيَسْتَثْقِلُ الْبَخِيلُ مِنْ أَصْحَابِهِ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُسْتَثْقَلٌ وَمُسْتَقْذَرٌ فِى قُلُوبِ النَّاسِ مِثْلُ سَائِرِ الْبُخَلَاءِ فِى قَلْبِهِ .

ذ- أَنْ يَتَفَكَّرَ فِى مَقَاصِدِ الْمَالِ وَأَنَّهُ لِمَاذَا خُلِقَ فَلَا يَحْفَظُ مِنْهُ إِلَّا قَدْرَ حَاجَتِهِ وَالْبَاقِى يَدَّخِرُهُ لِنَفْسِهِ فِى الْآخِرَةِ بِأَنْ يَحْصُلَ لَهُ ثَوَابُ بَذْلِهِ ، فَهَذِهِ الْأَدْوِيَةُ مِنْ جِهَةِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ ، فَإِذَا عَرَفَ بِنُورِ الْبَصِيرَةِ أَنَّ الْبَذْلَ خَيْرٌ لَهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْإِمْسَاكِ ؛ هَاجَتْ رَغْبَتُهُ فِى الْبَذْلِ إِنْ كَانَ عَاقِلًا ، فَإِذَا تَحَرَّكَتِ الشَّهْوَةُ فَيَنْبَغِى أَنْ يُجِيبَ الْخَاطِرَ الْأَوَّلَ ، وَلَا يَتَوَقَّفَ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُهُ الْفَقْرَ وَيُخَوِّفُهُ وَيَصُدُّهُ عَنْهُ .

ويرى مرسى(1425ه) بِأَن الْبُخْل يمكن عِلَاجُه مِنْ خِلَالِ نَوْع التربية التى يخضع لَهَا الْإِنْسَان ، وَالتَّنْشِئَة التى نَشَأ عليها ، وَهُو رأى مَعْقُول جِدًّا ، فتربية الطِّفْلِ عَلَى الْجُود والكرم تُبعِدُه عَنْ صِفَةِ الْبُخْلِ بَعْدَ أَنْ يكبر ويصبح رَجُلًا ، وكم مِنْ إِنْسَانٍ عُرِف عَنْه الْجُود والكرم فَتَبعَه عَلَى ذلك أَوْلَادِه ، بَلْ إِنْ الْقَبَائِلَ تُتَوَارَث صِفَةُ الْجُود والكرم مِنْ آبَائِهِمْ الأقدمين وتنشئ عَلَى ذلك أطفالها .

ح- تَدَبَّر عِقَابِ اللَّهِ تبارك وَتَعَالَى لِمَن يمنع مَالَهُ مِنْ إِنْفَاقِه فى سبيله ، فَإِنَّه سيتعظ وينفق بِسَخَاء ، وَهُوَ مَا أَشَارَ إليه عَطّار (1419ه) كعلاج لِلْبُخْل .

8- **الْجَهْل** .

وَهُو فى اللُّغَة : نقيض العِلْم .

وفى الِاصْطِلَاح : اعْتِقَاد الشئ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عليه . (الجرجانى ، 1403ه)

وَهُوَ نَوْعَانِ : بسيط : وَهُوَ عَدَمُ الْعِلْمِ عَمَّا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يكون عالمًا ، ومركب : وَهُوَ اعْتِقَادُ جَازِمٍ غير مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ . (الجرجانى ، 1403ه)

وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : "وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " . سُورَةِ الْأَحْزَابِ : آية 72

قَالَ ابْنُ عَاشُورٌ (1984م) مبينا الْمُرَاد بِالْجَهْل فى الآية أَنَّهَا "انْتِفَاءُ عِلْمِ الْإِنْسَانِ بِمَوَاقِعِ الصَّوَابِ فِيمَا تَحَمَّلَ بِهِ" .

وَهُوَ الْمَقْصُودُ فى وَصْفِ الْإِنْسَانِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ .

وَمَن خِلَال الآية وَمَعْنَاهَا يتضح قُبْح الْجَهْل ، يقول ابْن القيم (1410ه) : أَن "الإنسان مِن حيث هُو ؛ عَارٍ عَنْ كل خير مِنْ الْعِلْمِ النَافِعُ ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَإِنَّمَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الذى يكمله بذلك ، ويعطيه إياه ، وليس لَه ذلك مِنْ نَفْسِهِ ، بَل ليس لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْجَهْل الْمُضَادّ لِلْعِلْم ، وَالظُّلْم الْمُضَادّ لِلْعَدْل ، وكل عَلِم وَعَدَل وخير فيه فَمَن رَبّه ، لَا مِنْ نَفْسِهِ " .

وَالْجَهْل لَهُ آثَارٌ سيئة مِنْهَا : مَوْتُ الْقَلْبِ بِالْجَهْلِ الْمُطلق ، وَمَرَضِه بِنَوْع مِن الْجَهْل ، وَمَرَض الْقلب إِذا وَرَد عَلَيْهِ شُبْهَة أَو شَهْوَة قُوت مَرضه وَإِن حَصَلَت لَهُ حِكْمَة وَمَوْعِظَة كَانَت مِن أَسبَاب صَلَاحه وشفاءه . (ابْن تيمية ، 1399ه)

فَإِذَا كان الْجَهْل مَرَض ؛ فشفاؤه الْعِلْم وَالْهُدَى ، وَمَرَضه يؤلم الْقَلْب ، وَبَعْضُ النَّاس يداويه بِعُلُوم لَا تَنْفَعُ ، ويعتقد أَنَّهُ قَدْ صَحَّ مِنْ مَرَضِهِ بتلك الْعُلُوم ، وَهَى فى الحقيقة إِنَّمَا تزيده مَرَضًا إِلَى مَرَضِه . (ابْن قيم الجوزية ، د . ت)

وَأَمَّا تزكية الْإِنْسَانِ مِنْ الْجَهْلِ فَقَدْ قَالَ أَهْل الْعلم : لَا دَاء أَعْظَمُ مِنْ الْجَهْل ، وَلَا دَوَاء أَعَزُّ مِنْ دَوَاء الْجَهْل ، وَلَا طَبِيب أَقَلَّ مِنْ طَبِيب الْجَهْل ، وَلَا شِفَاء أَبْعَدُ مِنْ شِفَاء الْجَهْل . (السمعانى ، 1418ه)

وَإِنَّمَا دَوَاءُ الْجَهْلِ التَّعَلُّمُ .

9- **الهلع وَالْجَزَع**.

الهَلَعُ : الحِرْصُ ، وَقِيلَ : الجَزَعُ وقِلّةُ الصبرِ ، وَقِيلَ : هُوَ أَسْوأُ الجَزَعِ وأَفْحَشُه . (ابن مَنْظُورٌ ، 1414ه)

والهلع فى الِاصْطِلَاح : شدّة الجَزَع مَع شدّة الْحِرْص وَالضَّجَر . (الطبرى ، 1420ه)

والجَزَع : نقيض الصَّبْر ، فَإِذا كثُر مِنْهُ الْجزع فَهُوَ جَزُوع . (الهروى ، 2001م)

وَالْجَزَع فى الِاصْطِلَاح : حُزْن يصرف الْإِنْسَان عَمَّا هُوَ بِصَدَدِه ويقطعه عَنهُ ؛ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ الْحزن لِأَن الْحزن عَام . (الكفوى ، د . ت)

وَقَد اِسْتَخْلَص ابْن عَاشُورٌ (1984م) مِنْ تَتَبُّعِه لاسْتِعْمَالَاتِ كَلِمَةِ "الْهَلَعِ "؛ أَنَّ الْهَلَعَ قِلَّةُ إِمْسَاكِ النَّفْسِ عِنْدَ اعْتِرَاءِ مَا يُحْزِنُهَا أَوْ مَا يَسُرُّهَا أَوْ عِنْدَ تَوَقُّعِ ذَلِكَ وَالْإِشْفَاقِ مِنْهُ ، بينما الْجَزَعُ يكون مِنْ آثَارِ الْهَلَعِ ، فَإِن كان بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ قَد فَسَّرَ الْهَلَعَ بِالشَّرَهِ ، وَبَعْضُهُمْ بِالضَّجَرِ ، وَبَعْضُهُمْ بِالشُّحِ ، وَبَعْضُهُمْ بِالْجُوعِ ،

وَبَعْضُهُمْ بِالْجُبْنِ عِنْدَ اللَقَاءِ ؛ فَمَا ذكره ابْن عَاشُورٌ فِى ضَبْطِهِ يَجْمَعُ هَذِهِ الْمَعَانِىَ وَيُرِيكَ أَنَّهَا آثَارٌ لِصِفَةِ الْهَلَعِ كما يقول .

وَقَدْ دَلَّ عَلَى هاتين الصفتين قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : "إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) "سُورَة الْمَعَارِج : آية 19–20 .

وَمَعْنَى خُلِقَ هَلُوعاً : أى أَنَّ الْهَلَعَ طَبِيعَةٌ كَامِنَةٌ فِيهِ مَعَ خَلْقِهِ تَظْهَرُ عِنْدَ ابْتِدَاءِ شُعُورُه بالنافع والضار فَهُوَ مِنْ طِبَاعِهِ الْمَخْلُوقَةِ كَغَيْرِهَا مِنْ طِبَاعِهِ الْبَشَرِيَّةِ التى عَلَيْهِ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ عَلَى مُقَاوَمَةِ التَقَائِصِ وَإِزَالَتِهَا عَنْهُ . (ابن عَاشُورٌ ، 1984م)

وَالْهَلَعُ وَالْجَزَع : صِفَتَان غَيْرُ مَحْمُودَةٍ ، فَوَصْفُ الْإِنْسَانِ هُنَا بِهَما لَوْمٌ عَلَيْهِ فِى تَقْصِيرِهِ عَنِ التَّخَلُّقِ بِدَفْعِ آثَارِهَا .

أَنَّ خُلُوَّ الْقَلْبِ مِنْ الإيمان ينتج الهلع وَالْجَزَع ، فَهُو دائماً فى قَلِق وَخَوْف ، أَمَّا حين يعمر قَلْبه بالإيمان فَهُوَ مِنْهُ فى طمأنينة وعافية ، لِأَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِخَالِق الكون وَمُدَبَّر الْأَحْوَال ، مُطْمَئِنٌّ إِلَى قُدْرَةِ ، شَاعِرٌ بِرَحْمَتِه ، مُقَدَّر لابتلائه ، مُتَطَلِع إِلَى فَرْجِهِ ، مُنْتَظِرٌ لِإِحْسَانِه ، فَالْمُؤْمِنُون لَا يصيبهم الْجَزَع وَلَا الهلع . (التويجرى ، د . ت)

وَقَد ذكر اللَّهُ مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ الإيمان مَا يدفعون بِهِ هَذِهِ الصَفَةِ الْمَذْمُومَة ؛ وذلك بَعْدَمَا ذكر وَصْفِ الْإِنْسَانِ بِالْهَلَع وَالْجَزَع ، فَقَالَ تَعَالَى : "إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ

مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35) "سُورَة الْمَعَارِج : آية 19–35، حيث اسْتَثْنَى مِنْ الذين يهلعون ويجزعون ويمنعون مَنْ اتَّصَفَ بِالصِّفَات الآتية :

أ– الْمُصَلُّون : فَقَد أَعْطَاهُمُ اللَّهُ الصَّلَاةَ ، فَالصَّلَاة فَوْق أَنَّهَا ركن مِن أركان الْإِسْلَام وَعَلَامَة الإيمان هى وسيلة الِاتِّصَال بِاَللَّه ، وَمُظْهِر العبودية الْخَالِصَة ، وهى صِلَة بِاَللَّه مُسْتَمِرَّة غير مُنْقَطِعَة للتعظيم وَالْحَمْد ، وَالسُّؤَال وَالِاسْتِغْفَار .

ب– المزكون لِأَمْوَالِهِم : فَهُم يؤدون الزكاة وَالصَّدَقَات الْمَعْلُومَة الْقَدْر ، ويجعلون فى أَمْوَالِهِم نصيباً معلوماً يشعرون أَنَّهُ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ .

ت– أَنَّهُم يصدقون بيوم الدين : وَهَذَا لَهُ أَثَرُه الحاكم لمنهج الحياة شعوراً وسلوكاً ، فالذى يصدق بيوم الدين يعمل وَهُوَ نَاظِرٌ لِحِسَاب الْآخِرَة لَا لِحِسَاب الدنيا ، ويتقبل الْأَحْدَاث خيرها وَشَرُّهَا ، وفى حِسَابِه أَنَّهَا مُقَدَّمَات نَتَائِجهَا يوم القيامة ، ويقضى حياته مطيعاً لِرَبِّه ، منتظراً جَزَاءَه يوم يلقاه ، أَمَّا المكذب بيوم الدين فَلَا يعرف إِلَّا الدنيا ، فَهُو يحسب كل شئ يقع لَه فى هَذِه الحياة القصيرة الْمَحْدُودَة ، فَهُو بَائِس مسكين ، مُعَذَّبٌ قَلِق ، لِأَنَّ مَا يقع لَه فى هَذِه الحياة الدنيا قَدْ لَا يكون مطمئناً وَلَا مريحاً وَلَا عادلاً وَلَا

معقولاً مَا لَمْ يضف إليه حِسَاب الشَّطْرُ الْآخَرُ ، وَهُو أكبر وَأَطْوَل وأهول ، وَمِنْ ثَمَّ يشقى بِهِ مِنْ لَا يحسب حِسَاب الْآخِرَة .

ث- أَنَّهُم يخافون مِنْ عَذَابِ اللَّهِ : فَهُم يقضون أَوْقَاتِهِم يراقبون رَبَهِم ، ويشعرون بالتقصير فى جَنْبِ اللَّهِ مَعَ كَثْرة عِبَادَتِهِم ، وَالْخَوْفُ مِنْ تَقَلُّبِ الْقَلْب ، وَاسْتِحْقَاقِه لِلْعَذَاب فى كل لَحْظَة ، وَالتَّطَلُّعِ إِلَى اللَّهِ ليحميهم و يقيهم الْعَذَاب .

فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْصُول بِاَللَّه يحذر ويرجو ، ويخاف ويطمع ، وَهُو مُطْمَئِنٌّ لِرَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى كل حَال ، مُنْتَظِرٌ لكرامته فى الدنيا وَالْآخِرَة ، فالإيمان بِاللَّهِ هُوَ أَصْلُ الدين الذى ينبثق مِنْه كل فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ الخير ، وَتَتَعَلَّقُ بِهِ كل ثَمَرِهِ مِنْ ثِمارُه .

10-الطغيان

وَمَعْنَى الطغيان فى اللُّغَة : مُجَاوَزَةُ الْحَدَ ، يُقَالُ : هُوَ طَاغٍ ، وَطَغَى السَّيْلُ ، إِذَا جَاءَ بِمَاءٍ كَثِيرٍ ، وَطَغَى الْبَحْرُ : هَاجَتْ أَمْوَاجُهُ . وَطَغَى الدَّمُ : تَبَيَّغَ ، قَالَ الْخَلِيلُ : "الطُّغْيَانُ وَالطُّغْوَانُ لُغَةٌ . وَالْفِعْلُ مِنْهُ طَغَيْتُ وَطَغَوْتُ ، وكل شئ يجاوز الْقَدْرِ فَقَدْ طَغَى مثْلَ مَا طَغَى الماءُ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ ، وكَمَا طغتِ الصَّيحةُ عَلَى ثَمُودَ . والطَّاغِيةُ : الْجَبَّار العنيد . (الرازى ، 399ه) (الفراهيدى ، د . ت)

والطغيان فى الِاصْطِلَاح : مُجَاوَزَةُ الْحَدَ فِى الْعِصْيَانِ . (التميمى ، 377ه)

وَقَدْ دَلَّ عليها قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : "كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (7) "سُورَةِ الْقَلَمِ : آية 6-

وَمَعْنَى الآية : أَنَّ نَوْعَ الْإِنْسَانِ مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ إِذَا فَازَ بِمَقْصُودِهِ وَوَصَلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ اغْتَرَّ وَصَارَ غَافِلًا عَنْ عُبُودِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى مُتَمَرِّدًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، فَمِنْ طَبْعِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَطْغَى إِذَا أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ الِاسْتِغْنَاءَ . (الرازى ، 1420ه) ، (ابن عَاشُورٌ ، 1984ه)

وَقَالَ ابْنُ عثيمين – مُوَضِّحًا الْمَعْنَى بالتفصيل – (1423ه) : "إِذَا رَأَى نَفْسَهُ اسْتَغْنَى فَإِنَّه يطغى ، مِن الطغيان وَهُو مُجَاوَزَةُ الْحَدَ ، إِذَا رَأَى أَنَّهُ اسْتَغْنَى عَنْ رَحْمَةِ اللَّهُ طَغَى وَلَم يبالِ ، إِذَا رَأَى أَنَّهُ اسْتَغْنَى عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فى كشف الكربات وَحُصُول الْمَطْلُوبَات صَارَ لَا يلتفت إِلَى اللَّهِ وَلَا يبالى ، إِذَا رَأَى أَنَّهُ اسْتَغْنَى بِالصَّحَّة نسى الْمَرَض ، وَإِذَا رَأَى أَنَّهُ اسْتَغْنَى بِالشَّبَع نسى الْجُوع ، إِذَا رَأَى أَنَّهُ اسْتَغْنَى بالكسوة نسى العرى ، وهكذا فَالْإِنْسَان مِن طبيعته الطغيان والتمرد مَتَى رَأَى نَفْسَهُ فى غِنًى ، ولكن هَذَا يخرج مِنْه الْمُؤْمِن ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يرى أَنَّهُ اسْتَغْنَى عَنْ اللَّهِ طَرْفَةَ عين ، فَهُو دائماً مُفْتَقِرٌ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، يسأل رَبه كل حَاجَة ، ويلجأ إليه عِنْد كل مكروه ، ويرى أَنَّهُ إِنْ وكله اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ وكله إِلَى ضَعْفِ وَعَجز وَعَوْرَة ، وَأَنَّهُ لَا يملك لِنَفْسِه نفعاً وَلَا ضًّرا ، هَذَا هُوَ الْمُؤْمِنُ ، لكن الْإِنْسَانِ مِنْ حيث هُوَ إِنْسَانٌ مِنْ طبيعته الطغيان " .

والطغيان مِنْ مُوجِبَاتِ النَار ، كما قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَر الحياة الدنيا * فَإِن الجحيم هى الْمَأْوَى ﴾ سُورَةِ النَازِعَاتِ : آية 37–39 .

والطغيان يحمل صَاحِبِهِ عَلَى الظُّلْمِ ، كما يمنع مِنْ وُصُولِ الْعَبْدُ إِلَى مَقَامِ رِضْوَان الرَّحْمَن ويوقعه فى الْخُسْرَان وَالْخِذْلَان وَغَضَبِ الْجَبَّارِ سُبْحَانَه ، قَالَ تَعَالَى : "كُلُوا مِنْ طَيِبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُم غَضَبِى "، سُورَةِ طَه : آية 81، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أى لَا تَظْلِمُوا . (الطبرى ، 1420ه)

إمَّا عَنْ كيفية تزكية الْإِنْسَانِ مِنْ الطغيان فَتَتَمَثَّل فى الآتى :

أ- الإيمان بِاَللَّه : فَلَا يعصم الْإِنْسَانِ مِنْ الطغيان إلَّا الإيمان بِاَللَّه ، فَمَن خِلَالِه يعرف كيف يرعى اللَّه فى كل إمكانات أَو ثَرَاء يمنحه لَهُ اللَّهُ ، وينشر مَعُونَتِه ليستظل بِهَا الْمُحْتَاج غير الْوَاجِد . (الشعراوى ، 1997م) ، والإيمان بِاَللَّه – بِمَفْهُومِه الإسلامى- هُوَ الْعَامِلُ الحاسِم فى تقرير حَالَات الصَحَّةِ أَوْ الْمَرَضِ ، فإحساس الْإِنْسَان بالمسئولية إمَام اللَّه يبقيه فى مَنْزِلَة -الوسطية- فيمنعه مِن "الطغيان"، وَتَجَاوَز الْحُدُود والاعتداء عَلَى وُجُودِ الآخرين إذَا كان فى حَالَة الْقُوَّة وَالْغِنَى ، ويقيه مِن "الهوان"والسكوت عَلَى اسْتِبَاحَةِ الطاغين لحرماته إذَا كان فى حَالَةِ الضَّعْفِ وَالْفَقْر ، فَإِذَا غَابَ -الإيمان بالله- مِنْ وُجُودِ الْإِنْسَانِ تَذَبْذَب بين مرضى الطغيان وَالْهَوَان ، وَتَرَاءَى لَه -عند الْمَرَض الأول- أَنَّه مُسْتَغْنٍ بِنَفْسِهِ لَا حَاجَةَ لَهُ لغيره ، وَأَنَّه قَادِرٌ عَلَى الإمساك بِسُنَن الْوُجُود وَإِحْدَاثِه وَضَرْبَةٌ الْفَرَح ، وَالْفَخْر وَالْبَطَر وَادَّعَى الْقُدْرَة وَالْعِلْم . (الكيلانى ، 1419ه)

ب- شكر اللَّهُ عَلَى نِعَمِهِ ، وَاسْتِعْمَالُهَا فى طَاعَتِه . (طنطاوى ، 1998م)

د- أَن يتذكر ضَعْفَه وَأَنَّه رَاجِعٌ إلَى رَبِّهِ ، فَقَد ذكر اللَّهُ بَعْدَ وَصْفٍ الْإِنْسَانِ بالطغيان أَن مَرْجِعُه اليه تَعَالَى فَقَالَ : "إِنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعى " . (ابن حميد وَآخَرُون ، د . ت)

ه- أَن يعلم أَنَّ هَذَا الرِزْقِ الذى قَد ينشأ بِسَبَبِه الطغيان ؛ إنَّمَا هُوَ عَلَى حَسَبِ مشيئة اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ أَعْلَمُ بِأَحْوَال عُبَادَة ، "وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ " ، فَعَلَى صَاحِبِ الْمَالِ إلَّا يبالغ فى الْفَرَح بِه ، لِأَنَّ ذلك الْفَرَح يؤدى بِهِ إلَى الْبَطَر والترف كما أَنَّه يؤذى الْفُقَرَاء والمحرومين ويؤدى بِالْإِنْسَانِ إلَى الاسْتِهْتار بِالنِّعْمَة وترك الحيطة لصروف الزَّمَان .

هَل الْإِنْسَانُ مُخَيَّرٌ أم مَسِير

أَن تَرْكِيب الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ الْخَلْق يَخْتَلِفُ عَنْ أَيّ مَخْلُوقٍ آخَرَ فَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ مَادَّةٍ تَخْضَع لِكُلَ مَا تَخْضَع لَهُ أَيْ مَادَّةُ مِنْ قَوَانِينِ طَبِيعِيَّةٌ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَهُوَ مِنْ مَزِيج رُوحِي أَو رُوحَانِيٌّ مُكَوَنٌ مِنْ عَقْلٍ وَرَوْح وَنَفْس وَهِيَ أُمُورٌ تُعْرَفُ مِنْ آثَارِهَا لِكِنْ لَا تُعْرَفُ بطبيعتها وَتكْوينَها .

مِنْ هَذَا الْمُنْطَلِق فَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَم طَبِيعَة هَذَا الْكَائِن الَّذِي خَلَقَهُ

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : 16]

هَذَا الثُّنَائِيَّة فِي التَّكْوِين تَسْتَلْزِم أَنْ يَكُونَ التَّعامُل مَعَهَا بِتَدْبِير وَهَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِوَى الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ فَمِنْ جِهَةِ أَخْضَع الْإِنْسَانَ لَهُ كَمَا خَضَعَت سَائِر مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ الْأُخْرَى مِنْ أَرْوَاح وجماد وَنَبَات وَحَيَوَانٌ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لانعلمه مِنْ خَلْقِهِ لِذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُه دَائِمًا بِذَلِك لناخذ مَثَلًا هَذِهِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّة الثَّلَاث

وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿ الصّافّات : 96 ﴾

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : 30] .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : 29] .

إِنَّ اللَّهَ يُخَاطَب الْإِنْسَان هُنَا بِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا خَاضِعا مُرْغَما لَا مَحَالَةَ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَلَا يُمْكِنُهُ بِأَيّ شَكْلٍ مِنْ الْإِشْكَالِ التَّمَلُّص أَو الإِفْلاَتُ مِنْهَا لِذَلِكَ فَالْإِنْسَان وَكُلّ مايفعله يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الدَّائِرَة الْجَبْرِيَّة بِاعْتِبَارِه كَمَا قُلْنَا كَسَائِر خَلَقَ اللَّهُ .

أَمَّا فِي الْآيَاتِ التَّالِيَة :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الْكَهْف : 29]

وَقَالَ تَعَالَى : وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا [آل عِمْرَان : 145] .

وَقَالَ تَعَالَى : إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً [الإنسان : 29] .

فَإِنَّ الْمَوْلَى الْقَدِيرِ يُخَاطَب الْإِنْسَان ككائن وَهِبَةُ اللَّهِ الْعَقْلَ وَأَوْدَعَه أَمَانَته وَأَنَّ هَذَا الْعَقْل مَخْلُوقٍ أَوْ مُبَرْمَج إنْ صَحَّ التَّعْبِيرُ عَلَى حُرِّيَّةِ الاخْتِيَار حَتَّى يَكُونَ مَسْؤُولاً عَن تَصَرُّفِه وبالتالي الْحِسَابُ عَلَى أَسَاسِ هَذَا التَّصَرُّفَ الْإِرَادِيّ فَإِن لِلْإِنْسَان إذْن حُرِّيَّةَ الاخْتِيَارِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِحَيَاتِه وَمَن أَهَمَهَا حُرِّيَّةُ الاِعْتِقَادِ

وَسَأَضْرِب مَثَلًا لَوْ انّنَا ربطنا طَيْرًا أَوْ عُصْفُورًا بِخَيْط طَوِيلٌ جِدًّا بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ هَذَا الطَّائِرُ أَنْ يَذْهَبَ حَيْثُ يَشَاءُ بِدُون أَي إعاقَةٌ وَبِذَلِك يَطْمَئِنّ مِنْ أَنَّهُ يَطِير بِحُرِّيَّة لَكِنْ فِي الْوَاقِعِ هُوَ مَرْبُوطٌ بِخَيْط وَرَأْسَ هَذَا الْخَيْطَ هِي بِيَد إنْسَانٌ الَّذِي بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَسْحَبَ الْخَيْط فَيَتَوَقَّف الطَّيْر عَنْ الطَّيَرَان تِلْكُم هِي الْقِصَّة فَنَحْن تَمَامًا مِثْلِ هَذَا الطَّائِرُ فَمِنْ جِهَةِ نَحْن مربوطون بقوانين اللَّه وَبِمَشِيئَته أَيْضًا لكنّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نفكر بِحُرِّيَّة وَإِن نَذْهَب بتفكيرنا إلَى أَبْعَدَ نُقْطَةٍ وَهَذَا كُلُّهُ مَسْمُوحٌ لَنَا كَمَا هُوَ مَسْمُوحٌ لِلطَّائِر بِالطَّيَرَان لَكِن عملياوفعليا نَحْن خَاضِعِين لِمَشِيئَةِ اللَّهِ فَهُوَ المتحكم فِينَا وبأصغر ذَرَّة بِالْكَوْن وبأكبر مَخْلُوقَاته .

يَبْدُو الْأَمْر بَسِيطًا لَكِن لِمَاذَا أَذِنَ كُلُّ هَذَا النّقَاش وَالْجَدَل الَّذِي أَثَارَهُ قَضِيَّة هَل الْإِنْسَانُ مُخَيَّرٌ أَم مَسِير وَالسَّبَبُ فِي اعْتِقَادِي يَعُودُ إلَى الْغَايَةِ مِنْ وَرَاءِ طُرِح هَذَا الْمَوْضُوعُ فَالْعَقْل الدينِيّ الْعَرَبِيّ اسْتَطَاعَ أَنْ يُوَظِّف هَذَا الْأَمْر لِغَايَة سِيَاسِيَّةٌ حِينَمَا اخْتَرَع مَا يُسَمَّى بِالْجَبْر الْإِلَهِيّ وَمَذْهَب الْقَدَرِيَّة .

كَمَا أَنَّ لَهُ غَايَات فِقْهِيَّةٌ جَدَلِيَّةٌ لَا أَكْثَرَ .

أَنَّ مَسْأَلَةَ التَّخْيِيرِ والتسيير وَمَوْقِف الْإِنْسَانُ مِنْهَا هَلْ هُوَ مُخَيَّر أَم مُسَيَّر فِي هَذِهِ الْحَيَاةَ أُخِذَتْ مِنْ الْعَقْلِ الْإِسْلَامِيّ حيزًا كبيرًا لَا تَسْتَحِقُّهُ ، وَأَضَاع الْفَلَاسِفَة الْمُسْلِمُون وقتًا ثمينًا فِيهَا مَعَ أَنَّ الْمَسْأَلَة وَاضِحٌ حلها

وُضُوح الشَّمْسِ فِي رَائِعَة النَّهَارِ إذَا تأمَّلنا الْوَاقِع وتدبرنا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : مَوْقِفِ الْإِنْسَانِ الْبَسِيط سُلَيْم الْفِطْرَة : أَنَّ مَعْرِفَةَ مَوْقِفِه لَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ جهدًا عقليًا لِأَنَّه تَعَامَل مَع الْوَاقِع مباشرةً . فَهُو عِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ يُصَلِّيَ فَإِنَّهُ يَقُومُ لِيَتَوَضَّأ وَيُصَلِّي وَعِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ يُحْصَدَ الزَّرْعِ فَإِنَّهُ يَحْصُدَه بِبَساطَة . فاحتمال أَنَّه مُسَيَّر لَا نَجِدُهُ يُداعِب خَاطِرِه أبدًا ! فَالْأَمْرُ وَاضِحٌ جَلِيٌّ ، وَلَرُبَّمَا أُتُّهِم هَذَا الْإِنْسَانُ المفطور عَلَى التَّفْكِير الْبَسِيط الْقَوِيمُ مِنْ يَقُولُ بِالتَّسْيِير بِالْبَلَّة وَقِلَّة الْعَقْل ، وَذَلِكَ لَا يَتَعَارَض مَعَ إدْرَاكِهِ أَنَّه يُفرض عَلَيْهِ عِدَّةٌ أُمُورٍ كَمَكَان وَزَمَان مِيلاَدِه وَأَبِيه وأُمّه . . . وَلَكِنَّه يُعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورِ لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِهِ بَلْ هِيَ مِنْ قَدْرِهِ .

شَرْح الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْمَسْأَلَة للبسطاء مِنْ النَّاسِ : أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمِ يُعْطِي حلًا يَتَنَاسَب مَعَ الْإِنْسَانِ الْبَسِيط عقلُه حَتَّى لَا يَحار فِي هَذَا الْأَمْرِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مثلًا : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : 29] صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيم . ونلاحظ هُنَا منهجًا هامًا اتَّبَعَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمِ فِي تَبسيطُ الْمَعْلُومَة وَهُوَ عَدَمُ الْإِخْلَال بِصِحَّة الْمَعْلُومَةِ مِنْ أَجْلِ تبسيطها كَمَا يَفْعَلُ عَكْسُ ذَلِكَ الْكَثِيرِ مِنْ الْآبَاءِ – حَتَّى يُبسَطوا الْمَعْلُومَة لِأَوْلَادِهِم الصَغَار فَتَرَاهُم يُغيَرون ويُبدَلون فِي الْمَعْلُومَة ليستطيع الطِفْلِ إنْ يتخيلها كَانَ يَسْأَلُ "أين اللَّه ؟ "فنجيبه خطأً "فِي كُلّ مكان" . . !

الْإِنْسَان أَيًّا كَانَ يَتَعَرَّض لِنَوْعَيْن مِنْ التَّصَرُّفَاتِ :

كَمَا أَنَّ لَهُ غَايَات فِقْهِيَّةٌ جَدَلِيَّةٌ لَا أَكْثَر .

أَنَّ مَسْأَلَةَ التَّخْيِيرِ والتسيير وَمَوْقِف الْإِنْسَانُ مِنْهَا هَلْ هُوَ مُخَيَّر أَم مُسَيَّر فِي هَذِهِ الْحَيَاةَ أُخِذَتْ مِنْ الْعَقْلِ الْإِسْلَامِيّ حيزًا كبيرًا لَا تَسْتَحِقُّهُ ، وَأَضَاع الْفَلَاسِفَة الْمُسْلِمُون وقتًا ثمينًا فِيهَا مَعَ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ وَاضِحٌ حلُها

وُضُوح الشَّمْسِ فِي رَائِعَة النَّهَارِ إِذَا تأمَّلنا الْوَاقِع وتدبرنا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : مَوْقِفِ الْإِنْسَانِ الْبَسِيط سُلَيْم الْفِطْرَة : أَنَّ مَعْرِفَةَ مَوْقِفِه لَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ جهدًا عقليًا لِأَنَّه تَعَامَل مَع الْوَاقِع مباشرةً . فَهُو عِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ يُصَلِّيَ فَإِنَّهُ يَقُومُ لِيَتَوَضَّأَ وَيُصَلِي وَعِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ يُحْصَدَ الزَّرْعِ فَإِنَّهُ يَحْصُدَه بِبَساطَة . فاحتمال أَنَّه مُسَيَّر لَا نَجِدُهُ يُداعِب خَاطِرِه أبدًا ! فَالْأَمْرُ وَاضِحٌ جَلِيٌّ ، وَلَرُبَّمَا اُتُّهِم هَذَا الْإِنْسَانُ المفطور عَلَى التَّفْكِيرِ الْبَسِيط الْقَوِيمُ مِنْ يَقُولُ بِالتَّسْيِيرِ بِالْبَلَّة وَقِلَّة الْعَقْل ، وَذَلِكَ لَا يَتَعَارَض مَعَ إِدْرَاكِهِ أَنَّه يُفرض عَلَيْهِ عِدَّةٌ أُمُورٍ كَمَكَان وَزَمَان مِيلَادِه وَأَبيه وأُمّه . . . وَلَكِنَّه يُعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورِ لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِهِ بَلْ هِيَ مِنْ قَدْرِهِ .

شَرْحِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْمَسْأَلَة للبسطاء مِنْ النَّاسِ : أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمِ يُعْطِي حلًا يَتَنَاسَب مَعَ الْإِنْسَانِ الْبَسِيط عقلُه حَتَّى لَا يَحار فِي هَذَا الْأَمْرِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مثلًا : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : 29] صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيم . ونلاحظ هُنَا منهجًا هامًا اتَّبَعَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمِ فِي تَبْسِيطُ الْمَعْلُومَة وَهُوَ عَدَمُ الْإِخْلَال بِصِحَّة الْمَعْلُومَةِ مِنْ أَجْلِ تبسيطها كَمَا يَفْعَلُ عَكْسُ ذَلِكَ الْكَثِيرِ مِنْ الْآبَاءِ – حَتَّى يُبسَطوا الْمَعْلُومَة لِأَوْلَادِهِم الصِّغَار فَتَرَاهُم يُغيرون ويُبدَلون فِي الْمَعْلُومَة ليستطيع الطِّفْلِ إِنْ يتخيلها كَانَ يَسْأَلُ "أين اللَّه ؟ "فنجيبه خطأً "فِي كُلِّ مكان" . . !

الْإِنْسَان أَيًّا كَانَ يَتَعَرَّض لِنَوْعَيْن مِنْ التَّصَرُّفَاتِ :

سبينوزا Spinozaفَيْلَسُوفٌ هولندي يَرَى أَنَّ قَانُونَ الطَّبِيعَة (الله) قَدْر لَنَا جَمِيعِ الْأَفْعَال ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ بِيَدِ اللَّهِ كالغضار بِيَد صَانِعٌ الْخَزَف . غَرِيزَةٌ اللَّذَّة تَقَرَّر الرَّغْبَة ، وَالرَّغْبَة تَقَرَّر الفِكْرَة ، وَالْفِكْرَة تَتَحَوَّلُ

إِلَى عَمَلٍ ، يَقُول : يَظُنّ النّاسَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ لِأَنَّهُمْ يُدْرِكُون رغباتهم ومشيئتهم ، لَكِنَّهُم يَجْهَلُون الْأَسْبَابِ الَّتِي تسوقهم إِلَى أَنْ يَرْغَبُوا .

الْحَتْمِيّة الاجْتِمَاعِيَّة الْفَرْد يَتَأَثَّر بِوَسَطِه الاجْتِمَاعِيّ ، يُضْطَرُّ إِلَى تَنْظِيم نَشَاطَه وَفْق مَا تمليه الْعَادَات والتقاليد والقوانين ، كَمَا يَتَصَرَّفُ تبعًا لِلْجَمَاعَةِ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا بِهَدَف الاندماج فِي الْمُجْتَمَعِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ الِانْعِزَال عَنْهَا ، فَيُصْبِحُ بِذَلِكَ صُورَةَ طِبْقَ الْأَصْلِ لمجتمعه يَقُول دوركايم Durckeime (الفرد صُورَة مجتمعه) .

الْحَتْمِيّة النَّفْسِيَّة تَرْجِع مَدْرَسَة التَّحْلِيلُ النَفْسِيُّ أَغْلَب الْأَفْعَالَ إِلَى الدوافع النَّفْسِيَّة اللاشعورية كالرغبات المكبوتة ، والنزوات الْخَفِيَّةِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي السُّلُوكِ بِطَرِيقه غَيْر إِرَادِيَّة . أَمَّا الْمَدْرَسَة السلوكية ، فتخضع السُّلُوكَ إِلَى إِلَيْه الْمُنَبَّه والاستجابة ، وَإِن نَفْس المنبهات تُعْطِي نَفْس الاستجابات .

الْحَتْمِيّة البيُولُوجِيَّة يَقُول البيولوجيون (إننا تَحْت رَحِمَه غددنا الصماء) ، فَإِذَا زَادَ إِفْرَازٌ الْغُدَّةُ الدَّرَقِيَّةُ كَانَ الشَّخْصُ كَثِير الْحَرَكَة ، وَإِذَا نَقَصَ إِفْرَازِهَا كَان خاملًا وبطيء الْحَرَكَة ، وَإِذَا زَادَ إِفْرَازٌ الأدرينالين كَانَ الشَّخْصُ سَرِيع التهيج وَالْعَكْس .

مُنَاقَشَةٌ لَوْ كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يُخْلَقُ الْأَفْعَال ، فَلِمَاذَا يحاسبنا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِمَاذَا أَرْسَل الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ؟ وَمَا الْفَائِدَةِ مِنْ وُجُودِ الْعَقْلِ ؟ يُمْكِن لِلْفَرْد أَنْ يَتَجَاوَزَ الْحَتْمِيّة الاجْتِمَاعِيَّة بالتمرد عَلَى الْعَادَات والتقاليد كَمَا يَفْعَلُ المصلحون ، فَرْضِيَّة اللاشعور لَا تَنْطَبِقُ عَلَى جَمِيعِ الْأَفْعَالِ ، وَنَفْس المنبهات لَا تُعْطِي دائمًا نَفْس الاستجابات ، البيولوجيون أَهْمَلُوا الْعَوَامِل النَّفْسِيَّةِ فِي تَوْجِيهِ السُّلُوك .

إثْبات الْحُرِّيَةِ

الْبُرْهَان النَفْسِيّ يَتَوَقَّفُ عَلَى شَهَادَةِ الشُّعُور ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ فِي إثْبَاتِ الْحُرِّيَةِ ، مِنْ بَيْنِهِمْ الْمُعْتَزِلَة – فِرْقَةٌ كَلَامِيه أَسَّسَهَا وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ – تَرَى أَنَّ شُعُورَ الْإِنْسَان بِالرِّضَا تَارَة وبالندم تَارَةً أُخْرَى لِدَلِيل عَلَى أَنَّهُ حُرٌّ ، وَصَاحِب الْفِعْل ، تَقُول : أَنَّ الْإِنْسَانَ يُحَسّ مِنْ نَفْسِهِ وُقُوعِ الْفِعْلِ . فَإِذَا أَرَادَ الْحَرَكَة تَحَرَّك ، وَإِذَا أَرَادَ السُّكُون سَكَن . .

ديكارت يَقُول : أَنَّ الْحُرِيَّةَ خَاصِيَّة مُلَازِمَة لِلْكَائِنَات الْعَاقِلَة ، كُلّ تَفْكِير هُوَ اخْتِيَارُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ ، وَالِاخْتِيَار هُوَ دَلِيلٌ الْحُرِّيَة ، يَقُول : أَنَّ الْحُرِيَّةَ تُدْرِك بِلَا بُرْهَانٍ ، بَل بِالتَّجْرِبَة النَّفْسِيَّة الَّتِي لَدَيْنَا عَنْهَا .

برغسون : الْحُرِيَّة حَالَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَجْرِي فِي الْأَنَا الْعَمِيق كَالنَهْر الْمُتَدَفِّق الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْ السَّيَلَانِ ، وَمَا الْأَنَا السطحي ، إلَّا أَدَاهُ تَنْفِيذ لقراراتنا الْحُرَّة ، يَقُول : الْحُرِيَّة إحْدَى ظَوَاهِر الشُّعُور .

الْبُرْهَان الأَخْلاقِي تَرَى الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّ لِلْإِنْسَانِ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّمْيِيز بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِ وَالْقُدْرَةُ عَلَى الِاخْتِيَارِ ؛ لِأَنَّهُ مُكَلَّفٌ ، وَالْمُكَلَّف لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حرًا يَخْتَار بَيْنَ الْفِعْلِ أَوْ التَّرْكِ ، وَإِلَّا فَقَدْ التَّكْلِيف مَعْنَاه ، وَمِنْه يُصْبِح الْإِنْسَان خالقًا لِأَفْعَالِه ، خَيْره كَانَتْ أُمُّ شريرة ، ومسؤول عَنْهَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ إذَا أَصَابَ ، وَالْعِقَاب إذَا أَسَاءَ ، وَالتَّكْلِيف مُثْبِتٌ شرعًا ؛ قَالَ تَعَالَى : لَا يُكَلَّفُ اللَّهُ نفسًا إلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمِ .

كانط : يَرَى أَنَّ الْوَاجِبَ الَّذِي يمليه الضَّمِير لِدَلِيل عَلَى وُجُودِ الْحُرِّيَّة (إذا كَانَ يَجِبُ عَلَيْك فَأَنْتِ إذْن تستطيع) ، وَيَقُول (يجب التَّسْلِيم بِالْحُرِّيَّةِ مِنْ أَجْلِ تَأْسِيس الأخلاق) ؛ لِأَنَّنَا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُدْرِكَ قِيمَة الْفِعْلِ مِنْ النَاحِيَةِ الخلقية مَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ حرًا .

الْبُرْهَان الْوُجُودِيّ سارْتِر الْإِنْسَان حُرٌّ ، وَهَذِه الْحُرِّيَّة تُعَبرُ عَنْ صَمِيم وُجُودِه ، فَالْإِنْسَان عِنْدَمَا يَخْتَار بَيْن الرَّغَبَات ، فَإِنَّهُ يُشْعِرُ بِذَاتِه الْمُسْتَقِلَّة والمتميزة ، يَقُول : الشُّعُور بِالذَّات يَقْتَضِي الْحُرِّيَّة ، وَالْحُرِّيَّة تَقْتَضِي الإمكانية ؛ لِأَنَّ الْحُرِّيَّةَ تَتَضَمَّن الِاخْتِيَار ، وَكُلُّ اخْتِيَارٍ هُوَ اخْتِيَارُ بَيْن مُمْكِنَات .

التَّرْكِيب : أَن الحَتْمِيّة وَالْحُرِّيَّة غَيْر متعارضتين مِنَ النَاحِيَةِ الْعَمَلِيَّة ؛ لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَحَرَّر الْإِنْسَانِ مِنْ الْقُيُودِ الطَّبِيعِيَّة والنفسية والاجْتِماعِيَّة ، إِنْ لَمْ يَكْتَشِفْ الْقَوَانِين الَّتِي تَكُونُ وَرَاءَ هَذِهِ الْقُيُودُ ، يَقُول بَوْل فولكيي : الحَتْمِيّة شَرْطٌ مُمَارَسَة الْحُرِّيَّة ، وَهَكَذَا تَنَاوَل الْفَلَاسِفَة المعاصرون مُشْكِلَةْ الْحُرِّيَّةِ مِنْ جَانِبٍ وَاقِعِيٍّ ، وَتَحَوَّلَت إِلَى سُلُوكٍ تَحَرُّرِي يُسْتَعْمَل الْعِلْم وَالْعَمَلِ الواعي مِنْ أَجْلِ فَرْضْ الْوُجُود وَبِنَاء الحَضَارَة الْإِنْسَانِيَّة .

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد : 11]

ان هذه الآية الكريمة تتضمن قاعدة أساسية من القواعد التي وضعها الله سبحانه تعالى يبين فيها للبشر سنة التغيير او قانون التغيير الذي يحكمهم .

والذي يفهم منها بشكل عام ان التغيير الذي تريده من الله لحالك وأوضاعك يبدأ من عندك والمبادرة نحو الله كما قلنا تبدأ من الانسان نحو ربه وعليه اذا توفقت في احداث تغيير جوهري في حياتك وتقلبها رأسا على عقب تغييرا يرضي الله ويضعك في خانة المؤمنين والمتقين فالله سبحانه وتعالى قد تكفل بأن يغيير أحوالك الى أفضل وأحسن ومن كافة جوانب الحياة ولمزيدا من التوضيح سنطلع على ما يقوله المفسرين في هذه الاية الكريمة :

فإن معنى الآية هو أن الله لا يغير حال قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وذلك شامل لتغيير حالتهم الدنيوية من خير إلى شر، أو من شر إلى خير، فبسبب معاصيهم يتغير حالهم من سعادة لشقاء، والعكس كذلك، وعلى هذا يدور أغلب كلام المفسرين.

قال الشيخ الشنقيطي : قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿الرعد:11﴾ . بين تعالى في هذه الآية

الكريمة: أنه لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة الله جل وعلا. والمعنى: أنه لا يسلب قوما نعمة أنعمها عليهم حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿لأنفال:53.

وقوله: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿الشورى:30﴾ . وقد بين في هذه الآية أيضاً: أنه إذا أراد قوما بسوء فلا مرد له، وبين ذلك في مواضع أخر كقوله: وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿الأنعام: 147﴾ . ونحوها من الآيات. وقوله في هذه الآية الكريمة حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ يصدق بأن يكون التغيير من بعضهم كما وقع يوم أحد بتغيير الرماة ما بأنفسهم فعمت البلية الجميع، وقد سئل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثير الخبث. اهـ.

وقال ابن القيم: وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿الرعد:11﴾ .

وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا قُصَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ الَّذِين أَزَال نِعْمَة عَنْهُم وُجِدَ سَبَبُ ذَلِكَ جَمِيعَهُ إِنَّمَا هُوَ مُخَالَفَةُ أَمْرِهِ وَعِصْيَانُ رُسُلِه ، وَكَذَلِكَ مَنْ نَظَرَ فِي أَحْوَالِ أَهْلِ عَصْرِهِ وَمَا أَزَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ نِعَمِهِ وُجِدَ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ سُوءِ عَوَاقِبِ الذُّنُوبَ كَمَا قِيلَ :

فَمَا حَفِظْت نِعْمَةَ اللَّهِ بِشَيْءٍ قَطُّ مِثْلُ طَاعَتِه ، وَلَا حَصَلَت فِيهَا الزِّيَادَةُ بِمِثْل شَكَرِه ، وَلَا زَالَتْ عَنْ الْعَبْدِ بِمِثْل مَعْصِيَتِه لِرَبِه ، فَإِنَّهَا نَار النِّعَمِ الَّتِي تُعْمَلُ فِيهَا كَمَا تَعْمَل النَّارِ فِي الْحَطَبِ الْيَابِس . . . اهـ

وَقَالَ السَّعْدِيُّ : إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَرَغَدِ الْعَيْشِ ، حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ بِأَن يَنْتَقِلُوا مِنْ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ وَمِنْ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ ، أَوْ مِنْ شُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ إِلَى الْبَطَرِ بِهَا فيسلبهم اللَّهَ عِنْدَ ذَلِكَ إِيَّاهَا . . وَكَذَلِكَ إِذَا غَيَّرَ الْعِبَادَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ الْمَعْصِيَةِ ، فَانْتَقَلُوا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، غَيْرِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ الشَّقَاءِ إِلَى الْخَيْرِ وَالسُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ وَالرَّحْمَةِ . انْتَهَى .

وَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ رَشِيد عَلِيّ رِضًا فِي تَفْسِيرِ الْمَنَار :

كُلُ مُذْنِبٍ يَقَعُ عَلَيْهِ عِقَابٌ ذَنْبَهُ فِي الدُّنْيَا يَنْدَم وَيَتَحَسَّر وَيَعْتَرِف بِظُلْمِه وَجُرْمِه إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ هُوَ سَبَبُ الْعِقَاب ، وَمَا كُلُّ مُعَاقَب يَعْلَمُ ذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ الذُّنُوبِ مَا يُجْهَلُ أَكْثَرُ النَّاس أَنَّهُ سَبَبٌ لِلْعِقَابِ ، وَأَمَّا الذُّنُوب الَّتِي مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى بِجَعْل عِقَابِهَا أَثَرًا لَازِمًا لَهَا فِي الدُّنْيَا فَلَا تَطَّرِدْ فِي الْأَفْرَادِ كاطرادها فِي الْأُمَمِ ، وَلَا تَكُونُ دَائِمًا مُتَّصِلَة باقتراف الذَّنْب ، بَلْ كَثِيرًا مَا تَقَعُ عَلَى التَّرَاخِي فَلَا يُشْعِرُ فَاعِلِهَا بِأَنَّهَا أَثَرَ لَهُ ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ مَا يَتَوَلَّدُ مِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ مِنْ الْأَمْرَاضِ وَالْآلَام لَا يُعْرَفُ أَكْثَرُ السُّكَارَى مِنْهُ غَيْرُ مَا يَعْقُبُ الشُّرْبِ مِنْ صُدَاعٍ وغثيان ، وَهُوَ مِمَّا يَسْهُلُ عَلَيْهِم احْتِمَالِه وَتَرْجِيح لَذَّة النَّشْوَة عَلَيْه ، وَأَمَّا مَا يُوَلِّدُهُ السُّكْر مِنْ أَمْرَاضِ الْقَلْب وَالْكَبِد والجهاز التَّنَاسُلِيّ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ ضَعْفِ النَّسْل وَاسْتِعْدادِه

لِلأَمْرَاض وَانْقِطَاعِه أَحْيَانًا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْجَسَدِيَّة والعصبية (العقلية) فَهِي تَحْصُل بِبُطْء ، وَقَلَّمَا يَعْلَمُ غَيْرُ الْأَطِبَّاء أَنَّهَا مِنْ تَأْثِيرِ السُّكْر . ثُمَّ قَلَّمَا يُفِيدُ الْعِلْمَ بِهَا بَعْدَ بُلُوغ تَأْثِيرِهَا هَذِهِ الدَّرَجَةُ أَنْ تَحْمِلَ السَّكُور عَلَى التَّوْبَةِ ، لِأَنّ دَاءُ الْخِمَار يزمن وَحُبّ السُّكْر يَضْعُف الْإِرَادَة ، وَمَضَارّ الزِنَا الْجَسَدِيَّة أَخْفَى مِنْ مَضَارّ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرُ ، ومفاسده الاجْتِمَاعِيَّة أَخْفَى مِنْ مُضَارّة الْجَسَدِيَّة ، فَمَا كُلُّ أَحَدٍ يُفْطَن لَهَا . وَيَا لَيْتَ كُلَّ مِنْ عَلِمَ بِضَرر ذَنْبِه بَعْدَ وُقُوعِهِ يَرْجِعَ عَنْهُ وَيَتْرُكه وَيَتُوب إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ ، وَلَا يَكْتَفِي بِالِاعْتِرَاف بِظُلْمِه ، وَلَا بِالْإِقْرَار بِذَنْبِه ، فَإِنَّ هَذِهِ لَا فَائِدَةَ لَهُ فِيهِ لَا فِي دُنْيَاهُ ، وَلَا فِي دِينِهِ ، وَإِذَا كَانَ الرَّاسِخُ فِي الْفِسْقِ لَا يَتُوبُ مِنْ ذَنْبٍ وَقَعَ عَلَيْهِ ضَرَرُه وَعَلِمَ بِهِ ، فَكَيْف يَتُوبُ مِنْ ذَنْبٍ لَمْ يُصِبْهُ مِنْهُ ضَرَرٌ أَوْ أَصَابَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي بِهِ ؟ إِنَّمَا تَسَهَّل التَّوْبَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُون مِنْ قَرِيبٍ ، وَإِلَّا فَهِيَ لِأُولِي الْعَزَائِمِ الْقَوِيَّة الَّذِين تَقْهَر إِرَادَتُهُم شَهَوَاتِهِم فَهُم الْأَقَلُّون .

وَأَمَّا ذُنُوب الْأُمَم فعقابها فِي الدُّنْيَا مُطَّرِد ، وَلَكِنْ لَهَا آجَالًا وَمَوَاقِيت أَطْوَلُ مِنْ مِثْلِهَا فِي ذُنُوب الْأَفْرَاد ، وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ كَمَا تَخْتَلِفُ فِي الْأَفْرَادِ بَلْ أَشَدُّ ، فَإِذَا ظَهَرَ الظُّلْم وَاخْتِلَال النِّظَام وَنَشَأ التَّرَف وَمَا يَلْزَمُهُ مِنْ الْفِسْقِ وَالْفُجُور فِي أُمَةٍ مِنْ الْأُمَم تَمْرَض أخلاقها فتسوء أَعْمَالِهَا وَتَنْحَلّ قَوَاهَا ، وَيَفْسُد أَمْرِهَا وَتُضْعِف مَنْعَتِهَا ، ويتمزق نَسِيج وَحْدَتِهَا ، حَتَّى تُحْسَب جَمِيعًا وَهِي شَتَّى – فيغري ذَلِكَ بَعْضُ الْأُمَمِ الْقَوِيَّة بِهَا ، فتستولي عَلَيْهَا ، وتستأثر بخيرات بِلَادِهَا ، وَتُجْعَل أَعْزُه أَهْلِهَا أَذَلّه . فَهَذِه سُنَّةٌ مَطْرَدَةٍ فِي الْأُمَم عَلَى تَفَاوُتِ أَمْزِجَتِهَا وَقَوَاهَا ، وَقَلَّمَا تُشْعِر أُمَه بِعَاقِبَة ذُنُوبهَا قَبْلَ وُقُوعِ عُقُوبَتُهَا ، وَلَا يَنْفَعُهَا بَعْدَهُ أَنْ يَقُولَ الْعَارِفُون : يَا ويلنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين . عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَعُمُّهَا الْجَهْلُ حَتَّى لَا تَشْعُرُ بِأَنّ مَا حَلَّ بِهَا ، إِنَّمَا كَانَ مِمَّا كَسَبَت أيديها ، فَتَرْضَى باستذلال الْأَجْنَبِيّ ، كَمَا رَضِيتُ مِنْ قِبَلِ

بِمَا كَانَ سَبَبًا لَهُ مِنْ الظُّلْمِ الوَطَنِيّ . وَقد تَنْقَرِض بِمَا يَعْقُبُه الْفِسْق وَالذُّلّ مِنْ قِلَّةِ التَسْل ، وَلَا سِيَّمَا فَشْو الزَنَا وَالسُّكْرِ ، أَوْ تَبْقَى مِنْهَا بَقِيَّة مُدْغَمَةً فِي الْكَثْرَةِ الْغَالِبَةُ لَا أَثَرَ لَهَا تَعدّ بِهِ أُمَّهُ . وَقد تَتَوَالَى عَلَيْهَا الْعُقُوبَات حَتَّى تَضِيقَ بِهَا ذَرْعًا ، فتبحث عَن أَسْبَابِهَا ، فَلَا تَجِدْهَا بَعْدَ طُولِ الْبَحْثِ إلَّا فِي أَنْفُسِهَا ، وَتَعَلُّم صِدْقِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴿ الشُورَى : 30 ﴾ ثُمّ تَبْحَثُ عَنْ الْعِلَاج فتجده فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : إنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿ الرَّعْد : 11 ﴾ . وَإِنَّمَا يَكُونُ التَّغْيِير بِالتَّوْبَة النَصُوح ، وَالْعَمَلِ الَّذِي تَصْلُح بِهِ الْقُلُوبُ فَتَصْلُح الْأُمُور ، كَمَا قَالَ الْعَبّاسُ عَمُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذْ تَوَسَّلَ بِهِ عُمَرُ وَالصَّحَابَةُ بِتَقْدِيمِه لِصَلَاة الِاسْتِسْقَاء بِهِم : اللَّهُمَّ إنَّهُ لَمْ يُنْزِلْ بَلَاء إلَّا بِذَنْبٍ ، وَلَمْ يَرْفَعْ إلَّا بِتَوْبَةٍ . خِلَافًا للحشوية الَّذِين يَسْتَدِلُّون بِهِ عَلَى أَنَّ الْبَلَاءَ إنَّمَا يَرْتَفِعُ كَرَامَة لِلصَّالِحِين الَّذِين يُتَوَسَّل بِهِم الْمُذْنِبُون والمفسدون . وَمَتَى عَلِمْت الْأُمَّة داءها وَعِلَاجه فَلَا تَعْدَمُ الْوَسَائِل لَه

فَلْيَنْظُر الْقَارِئ أَيْن مَكَان الشُعُوب الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْعِبْرَة ، وَالشُعُور بِعُقُوبَة الْجِنَايَة وَالْحَاجَةُ إلَى عِلَاج التَّوْبَة ، وَقد ثلت عروشها ، وخوت صروح عظمتها عَلَى عروشها ، وَكَانَت أَجْدَر الشُعُوب بِمَعْرِفَة سُنَن اللَّهُ فِي هَلَاكِ الْأُمَم واتقائها ، وَأَسْبَاب حِفْظ الدُوَل وَبَقَائِهَا ، فَقد أرشدها إلَيْه الْقُرْآن ، وَلَكِنْ أَيْنَ هِيَ مِنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ تَرَكَ تَذْكِيرُهَا بِهِ الْعُلَمَاءَ ، فهجره الدَّهْمَاء ، وَجَهل أَحْكَامِه وَحُكْمه الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ ، ثُمَّ نَبَتَتْ فِيهَا نَابِتَةٌ لَا تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَان ، أقنعهم أساتذتهم أَعْداءِ الإِسْلامِ ، بِأَنْ لَا سَبَبَ لهبوطها وَسُقُوطُهَا إلَّا إتْبَاعُ الْقُرْآنِ ، فأضلوهم السَّبِيل ، ولفتوهم عَنْ الدَّلِيلِ ، فذنب هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَه ، وَذَنْبُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ لَا يُقِيمُونَه ، هَؤُلَاء مُقَلِدِه لِلْأَجَانِب الطامعين الخادعين ، وَأُولَئِك مُقَلِدِه لشيوخ الْحَشْوِيَّة الْجَامِدِين ، فَمَتَى تَنْتَشِر دَعْوَة الْمُصْلِحِين أُولِي الِاسْتِقْلَال ، فَتَجْمَع الْكَلِمَة بِمَا أُوتِيت مِنْ

الْحِكْمَةِ وَالِاعْتِدَال ، عَلَى قَوْلِ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ : إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿ الرَّعْد : 11 ﴾ . اهـ

وَأَمَّا عَنْ مَوْضوعِ الْهِدَايَةِ فَإِنْ الدُّعَاءَ بِصِدْقِ مَنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِهَا فَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : يَا عِبَادِي كُلُّكُم ضَالٌّ إِلَّا مِنْ هَدِيَّتَه فاستهدوني أَهْدِكُم . رَوَاهُ مُسْلِمٌ . وَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي افْتِتَاحِ قِيَامِ اللَّيْلِ : اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِ بِأُذْنِك ، إِنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وبداية طَرِيق الْهِدَايَةِ مِنْ سَلَكَهَا زَادَهُ اللَّهُ هُدًى كَمَا قَالَ تَعَالَى وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿ مُحَمَّد : 17 ﴾ . وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ أَسْبَابًا لِلْهِدَايَة مِنْ أَهَمِهَا :

1- الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ ، قَالَ تَعَالَى : وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴿ التَّغَابُن : 11 ﴾

2- الْمُتَابَعَة لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ تَعَالَى : وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿ لأعراف : 158 ﴾ ، وَقَال : وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴿ النُّور : 54 ﴾ .

3- الْحِرْصُ عَلَى تَعَلُّمِ الْوَحْيِ وَالْعَمَلُ بِمَا عُلِمَ مِنْهُ ، قَالَ تَعَالَى : وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً* وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿ النِّسَاء : 66-68 ﴾ .

4- الْمُوَاظَبَةُ عَلَى الْعِبَادَاتِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصَوْمٍ وَغَيْرِهَا ، قَالَ تَعَالَى : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿ التَّوْبَة : 18 ﴾ وَعَسَى مِنْ اللَّهِ وَاجِبَةٌ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ .

5- وُجُود الْعَاطِفَة الرَّبَّانِيَّة الَّتِي تُجْعَلُ الْمُسْلِم يُحِبّ وَيُبْغِض وَيُعْطِي وَيُمْنَع لِلَّه فَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ثَلَاثٌ مِنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الْإِيمَانِ ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءُ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْكُفْرِ كَمَا يُكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ .

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مَنْ أَحَبَّ لِلَّه ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ ، وَأَعْطَى لِلَّه ، وَمَنَعَ لِلَّهِ ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ . وَالْحَدِيث صَحَّحَه الْأَلْبَانِيّ .

مَعْنَى الرِّسَالَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ رِسَالَة اللَّهُ تَعَالَى لِلْعَالَمِين مِنْ الْإِنْسِ وَالْجِنّ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (سورة : ص ، آيات 86 : 88) .

فَالْقُرْآن بِهَذَا الْمَعْنَى هُوَ رِسَالَة الْخَالِق إِلَى خَلْقِهِ ، رِسَالَة الْإِلَهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ إِلَى عِبَادِهِ أَجْمَعِين ،

﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : 79]

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الرعد : 30]

فَهَذَا النَّصُّ الْكَرِيم يُوَضِّح تَمَامًا أَرْكَان الرِّسَالَة السَّمَاوِيَّة

فَكَلِمَه أَرْسَلْنَا تُشِيرُ إِلَى الْمُرْسِلِ وَهُنَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْكَاف تُشِير لِلْمُخَاطَب وَالَّذِي هُوَ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ وبتعبير آخَرَ هُوَ الرَّسُولُ النَّبِيّ الْكَرِيمُ كَلِمَة الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَتَتَضَمَّن الْوَاسِطَة وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالرِّسَالَةُ هِيَ كِتَابِ اللَّهِ .

فَعَلَى مَنْ رَامَ الْحَقّ وَطَلَبَ الْهِدَايَة وَالسَّعَادَة أَنْ يَقْرَأَ رِسَالَة اللَّهُ لَهُ ، وَإِن يَتَفَكَّرُ فِيهَا ، وَإِن يَتَدَبَّر مَعَانِيهَا ، وَإِن يَتَّعِظْ وَيَتَذَكَّرْ بِمَا فِيهَا ، وَإِن يُؤْمِنُ بِهَا ، وَأَنْ يُعْمَلَ بِمَا أُمِرْنَا اللَّهُ فِيهَا ، فَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ ، وَهَذِهِ هِيَ خريطته الَّتِي أَرْسَلَهَا اللَّهِ لِخَلْقِهِ ليهتدوا بهُدَاها ويسيروا فِي إرشادها ، و الْمُوَفَق هُوَ مِنْ يَأْخُذُ عَنْ اللَّهِ بِإِخْلَاص وَجَد ، بَعْدَ أَنْ يُخرِجَ مِنْ قَلْبِهِ حَظَّ الدُّنْيَا وَهَوَى النَّفْسِ ، متبعًا للخطوات السِّتَّةُ مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ ، حَتَّى لَا يَكُونُ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (سورة الرُّوم ، آيَة : 7) .

خَاتِمَةٌ

ضَمَّ هَذَا الْكِتَابِ بَيْن دفتيه قِرَاءَة وِجْدَانِيَّة رُوحِيَّة للعديد مِنْ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّة الَّتِي تَخُصّ بَعْضِ الْحَالَاتِ الَّتِي تريح النَّفْس وَتُقَوِي الْإِيمَان وَتُخَفَّف عَنَّا الْكَثِيرِ مِنْ مُعَانَاةِ الْحَيَاة العصرية وَهُمُومِهَا وضجيجها .

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَصْل لِكُلَ مَا يَشْرَح وَيَشْفِي الصُّدُور فَعَلَيْنَا أَنْ نُرَاجِعَ كِتَابِ اللَّهِ بِاسْتِمْرَار قِرَاءَة وَفَهْمًا وتدبيرا فَهُوَ وَحْدَهُ الْقَادِر أَنْ يَجْعَلَنَا عَلَى اتَصَالِ دَائِمٍ مَع خَالِقُنَا وبارئنا دُون وَسَاطَة بَل بِشَكْل مُبَاشِرٌ

فَقِرَاءَة آيَاتِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ تفيدنا كَثِيرًا فِي تَعْزِيز موقفنا الْإِيمَانِيّ فأسلوب الْقُرْآن الْمُعْجِز قَادِرٌ عَلَى التَّأْثِيرِ التَنْفِسِيّ الْقَوِيَ فِي نَفْسِ الْقَارِئ وَالْمُسْتَمِعِ ويعطينا حُجَجًا وَبَرَاهِين وَأَدِلَّة يُمْكِنُنَا الرَّدُّ بِهَا عَلَى كُلَ مَا يصادفنا فِي حَيَاتِنَا مِن أفْكَار ضَالَّةً أَوْ فلسفات وَأَقْوَال مضللة أَنَّه حَقًّا الْحِصْنِ الْحَصِينِ الَّذِي يَقِينًا شُرُور التَنْفِسِ مِنْ الدَّاخِلِ وشياطين الْجِنَ وَالْإِنْسِ فِي الْخَارِجِ .

وَقَد حَرَصْتُ عَلَى عَدَمِ إطَالَة صَفَحَات هَذَا الْكِتَابِ لِيَتَمَكَّن الْقَارِئ الْعَصَرِيّ المنشغل بِأُمُور الْحَيَاةُ مِنْ قِرَاءَتِهِ دُونَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ وَقْتًا أَو جُهْدا .

أَرْجُو مِنْ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ أَنَّ يَتَقَبَّلَ مِنَّا وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .